صدى القرآن

مجلة قرآنية . ثقافية . اجتماعية . فصلية

تصدر عن
دار القرآن الكريم في العتبة الحسينية المقدسة

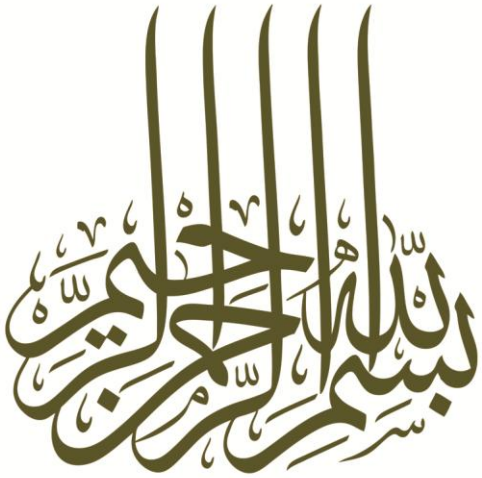
بسم الله الرحمن الرحيم

الإشراف العام

الشيخ حسن المنصوري (م. دار القرآن الكريم)

رئيس التحرير

أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي (جامعة كربلاء)

مدير التحرير

د. مجيب سعد ابو كطيفة (جامعة كربلاء)

سكرتير التحرير

الشيخ علاء حسين النعماني (دار القرآن الكريم)

هيئة التحرير

* السيد د. مرتضى جمال الدين (دار القرآن الكريم)
* أ.د بلاسم عزيز شبيب (جامعة الكوفة)
* د. الشيخ عماد الكاظمي (الجامعة العالمية)
* د. زينب عبد الله كاظم (جامعة الكوفة)

التدقيق اللغوي

م. د. أحمد حسن منصور (جامعة كربلاء)

التنسيق والعلاقات العامّة

أ. م. د. حميد جاسم الغرابي (جامعة كربلاء)

الحافظ منتظر حسن المنصوري (م. مركز التبليغ القرآني الدولي)

التصميم والإخراج الفنّي

أسامة جبار

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٨٢٧ لسنة ٢٠١٣م

ضوابط النشر

١-تَنشر المجلّة الأبحاث العلمية التي تعنى بالشأن القرآني، والملتزمة بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها علمياً.

٢- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (٢٠) صفحةA4 ، وأن لا يقل عن (١٥) صفحة.

٣-تقديم ملخص للبحث في صفحة مستقلّة، على أن يحتوي كلّ ملخص على عنوان البحث واسم الباحث، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني).

٤-تكون هوامش البحث في أسفل كل صفحة بالطريقة الآتية: (اسم الكتاب، المؤلف، اللقب: ج...، ص...)، ويزوّد البحث بقائمة المصادر مستوفاة التفاصيل في آخره.

٥- أن لا يكون البحث قد نُشر في أيّ كتابٍ أو مجلةٍ أو موقعٍ الكتروني.

٦- الأفكار التي ترد في الأبحاث تعبِّر عن رأي كاتبها.

٧-تُرسل الأبحاث على البريد الإلكتروني أدناه، أو تُسلّم إلى أسرة المجلّة.

(sadaalqurandq@gmail.com) كربلاء المقدسة

(im.hu.qu@gmail.com) قسم المشرّفة

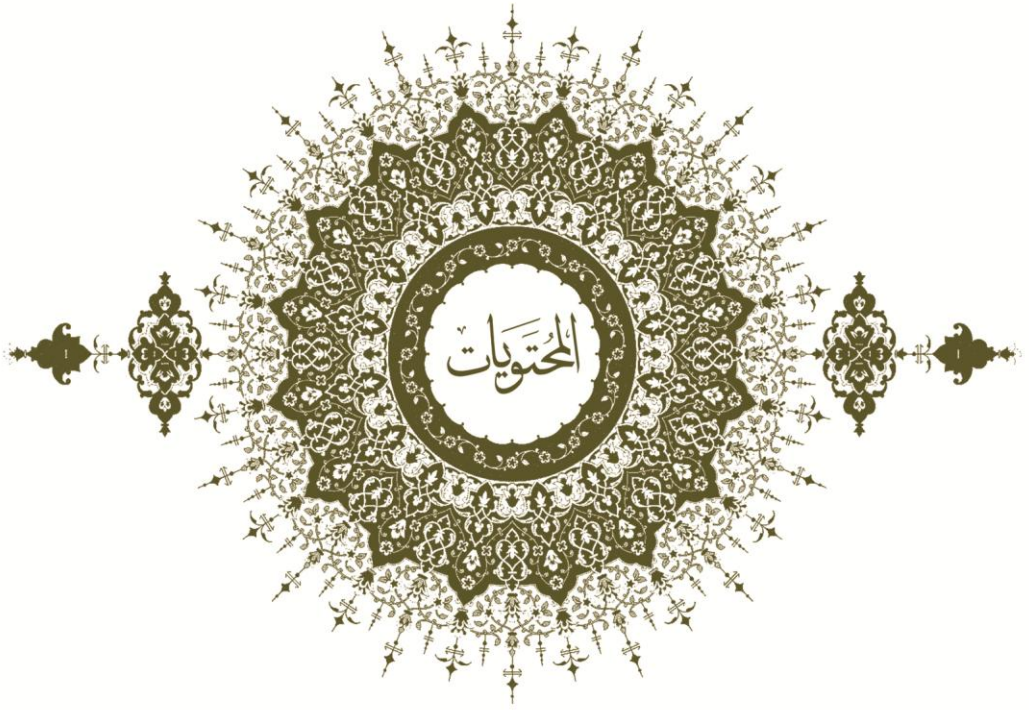

بحوث المؤتمر العلمي القرآني الاول

المنعقد بتاريخ ١٦ربيع الاول ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨/١١/٢٤م

١ الافتتاحية ٩

٢ الإعجاز القرآني عند أهل البيت عليهم السلام (قراءة في الجذور والتأسيس)
أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي - جامعة كربلاء كلية العلوم الاسلامية ١٣

٣ الألفاظ المترادفة للقرآن الكريم (في ضوء مبدأ عدم الافتراق)
أ.م. د. وفاء عباس فياض - جامعة كربلاء/كلية العلوم الإسلامية ٥٣

٤ أزمة فهم النصّ القرآني بين المفسّر والتراث التفسيري
أ. د. عادل عباس النصراوي - كلية التربية الأساسية / جامعة الكوفة ١٠١

٥ لباس أهل الجنّة ولباس أهل النار في القرآن الكريم (دراسة سيميائية)
أ. م. د. طلال خليفة سلمان / كلية التربية للبنات – جامعة بغداد ١٤٣

٦ موقف الأئمة عليهم السلام في مواجهة البدع والانحرافات العقائدية
أ. م. د. بشرى حنون محسن – أ. د. أنوار سعيد جواد / جامعة كربلاء – كلية العلوم الإسلامية ١٨١

٧ العذاب الدنيوي للأمم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم
أ. م. د. ثائر عباس النصراوي/ جامعة الكوفة كلية التربية ٢٠٣

٨ محور علوم القرآن وتفسيره عند أهل البيت عليهم السلام
د. زهور كاظم زعيميان / معهد الفنون الجميلة- تربية الكرخ الثالثة ٢٥٧

٩ الحجاج القرآني في خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام (الخطبة الفدكية نموذجًا)
د. نابلس صلال التميمي / جامعة كربلاء – م. م. ياسمين مهدي شهيد / الجامعة المستنصرية ٢٨٥

١٠ ذِكر النبي الأمّي وأهل بيته في القرآن الكريم (دراسة قرآنية لغوية)
م. م. عبد الله خليل زباري العبادي / الجامعة الاسلامية – كلية علوم القرآن ٣١٩

١١ التّفسيرات القرآنيّة عند الإمامين العسكريين عليهما السلام
م. د. هُدى ناجي عبيد البديري / مركز إحياء التراث العلمي العربي – جامعة بغداد ٣٤٩

كلمة الافتتاح

الحمدُ لله الذي خَلَقَ الإنسانَ وعلَّمَهُ النطقَ واللسانَ، وأنزلَ القرآنَ، وتكفَّلَ البيانَ، والصلاةُ على سيدِ الإنسِ والجانِ محمدٍ الذي شرَّف العربَ على الأقرانِ حيثُ طلعتْ شمسُهُ مِنْ آفاقِهم على أهلِ الزمانِ فصاروا لسائرِ الأقوامِ كأمِّ القرى بالنسبةِ إلى سائرِ البلدانِ، فوجبَ على جميعِ القبائلِ أنْ يتوجهوا إليهم مِنْ كلِّ مكانٍ، ويتعلَّموا منهم اللسانَ؛ لمعرفةِ الكتابِ والسنةِ وأحكامِ الملكِ الديَّان. والصلاةُ على هداةِ الأنامِ، وأمراءِ الكلامِ الذين فيهم تنشَّبَتْ عروقُه، وإليهم تهدَّلَتْ غصونُهُ، سادات العربِ والعجمِ، الذين علَّموا الأممَ ما لم تعلمْ، المُعْرِبُونَ عمَّا أرادَ اللهُ في جميعِ العالمِ، آل محمدٍ الذين اجتباهم اللهُ في القِدَمِ، وجعلهم مواضعَ سرهِ، وحملةَ كتابِهِ، وأولياء النعمِ.

وبعد.. فإنَّ كتابَ اللهِ رمزٌ بينَ الحبيبِ والمحبوبِ، لا يعرفُ بحقيقةِ مرادِهِ سواهما؛ وذلك لأنَّ اللهَ سبحانه جَعَلَ نبيِّه ﷺ رسولاً إلى جميع خلقه. وقد دلتْ الآياتُ والرواياتُ على أنَّ للقرآنِ ظاهراً وباطناً وتأويلاً، وللظاهرِ ظاهرٌ، وظاهرُ ظاهرٍ إلى السبعةِ، وللباطن باطنٌ، وباطنُ باطنٍ، وباطنُ باطن باطنٍ إلى السبعة، وللتأويل تأويلٌ، وتأويلُ تأويلٍ إلى السبعةِ، ولباطن التأويل باطنٌ، وباطنُ باطنٍ إلى السبعةِ.

والقولُ في معرفةِ جميعِ المراتبِ على التفصيل لا يسع المقام لذكرها، فلو مررنا بعجالة على المراد من «الظاهر» و«التأويل» لوجدنا أنّ الظاهرَ ظاهرٌ؛ لأنه التفسيرُ على وضعِ اللغة العربية مع ملاحظةِ جميعِ تركيباته النحوية مِنْ تقديمِ العاملِ على المعمولِ وبالعكس في مواضع عديدة، وإذا كان المعمول ظرفاً أو جاراً ومجروراً وأمثال ذلك،

وتقديم المبتدأ على الخبر وأمثال ذلك مما هو مقرّر عند النحويين، وعدم صرفِ اللفظِ عن معناه اللّغوي إن أمكن، وصرفه إلى المجاز والكنايات والاستعارات إن دلَّ الدليل العقلي والحديث النبوي على بطلان صرفه إلى المعنى اللّغوي وأمثالها مما هو مقرّر عند أهل المعاني والبيان، وهذا هو المعروف عند المفسرين، بل لا تكاد تجد غيرها، فلو تكلمت بغيره أنكروه عليك فيأخذون من القرآن ظاهره فقط فيكون القرآن الكريم جسدا بلا روح.

أما التأويل فهو أن لا تلاحظ هذه الأمور بل تأخذ بعض الكلام مجرداً عن ملاحظة ارتباطه بما قبله أو بما بعده مثل قوله تعالى: ﴿**يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ**﴾ (النساء من الآية ١٣٠)، فتأويلها بحسب ما ورد عن آل البيت عليهم السلام يعني إذا خرج القائم عجل الله فرجه الشريف يمتاز الأخيار من الأشرار ويعزّ الأخيار ويذلّ الأشرار، عنده تنبسط العلوم وتنتشر المعارف بحيث لا يحتاج أحدٌ إلى أن يتعلمَ العلمَ والمعرفةَ، فيكون العالم والمتعلم بمنزلة سواء عندَ ذلك يغني الله كلا من سعته. هذا إذا قطعت النظر عن أولِها وآخرِها؛ لأنك إذا لاحظتها مع أولها وآخرها لا يفيد المعنى الذي قلنا آنفاً، فالمعنى في الجانب التأويلي يكون باطنياً خلاف ما يعرفه أهلُ الظاهر. ومثل هذا ما ورد في تأويل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ**﴾(البقرة من الآية ٢٢١)، فهذا خطاب -في التأويل- للعقول؛ يعني يا أيها العقول لا تنكحوا المشركات أي النفوس الأمارة بالسوء، أي لا تجعلوها صديقة لكم وتحبونها وتفعلون بمقتضاها حتّى يؤمنَّ، أي تطمئن في طاعة الله سبحانه ولا تريد الشر وتصير تابعة للعقل، وهكذا في تأويل الآيات الأخرى.

فتأويل القرآنِ الكريمِ من أوله إلى

آخره بهذه الوتيرة والنمط، وإلا كيف يكون وصف الله التدويني مخالفاً لوصفه التكويني وقد قال عزّ وجلّ: ﴿**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ**﴾، وقال تعالى: ﴿**لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾.

أما الكلام عن الباطن، وباطن الباطن، وباطن باطن الباطن، وباطن التأويل فليس هنا محل التفصيل فيه.

فمعرفة هذه المراتب تعطي نتيجة حتمية هي أن هذه الأمور لا تحصل لكلِّ أحدٍ، ولا يقدر كلُّ من يدعي الفضيلة أن يعرف حقائق القرآن، ويفهم بواطنه وأسراره، ويدرك غوامضه وغيبه، ويعي ما ورد فيه من رمزٍ وإشارة وتلويح على أنحاء مختلفة وأطوار متعددة.

ومن ثَمَّ فالذي يدرك هذه الحقائق وما يحيط بها من رموز هو الذي خُوطِب بهذا الكلام وهو النبيﷺ وأهل بيته عليهم السلام؛ فهم أركانُ البلادِ، وأمناء الرحمن، وأبوابُ الإيمانِ فلا يعرف الإيمان إلا عنهم، ولا يكتسب إلا منهم، ولم ينزله الله من خزائن غيبه إلا فيهم، ولا يخرجه إلى أحدٍ من الخلقِ إلا منهم. قال رسول اللهﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا بماذا تخلفوني فيهما».

من هذا المنطلقِ بادرَتْ دارُ القرآنِ الكريمِ التابعةُ للعتبةِ الحسينيةِ المقدسةِ بإقامة المؤتمر العلمي القرآني الأول متخذاً من شعار «لَن يفترقا» أساساً في محاوره وأهدافه وشعاره الذي جاء بعنوان «التلازم المعرفي بين القرآن الكريم والعترة الطاهرة» الذي انعقد بتاريخ ١٦/ ربيع الأول/ ١٤٤٠هـ الموافق ٢٠١٨/١١/٢٤م، وقد نتجت عن هذا المؤتمر مجموعة من البحوث القرآنية

التي نهلت من علوم آل البيت عليهم السلام في استكناه دلالة الآيات القرآنية. ولأهمية هذه البحوث قررتْ دارُ القرآنِ الكريمِ أن يُفرد لها أعدادٌ خاصة من مجلة (**صدى القرآن**) التابعة للدار فجاء العدد السادس عشر من أعداد المجلة ليكون عددًا خاصاً ببحوث المؤتمر. ومن الله التوفيق.

مدير التحرير

١

الإعجاز القرآني عند أهل البيت عليهم السلام

قراءة في الجذور والتأسيس

أ.م. د. ضرغام كريم كاظم الموسوي
جامعة كربلاء - كلية العلوم الاسلامية

مقدمة:

الحمد لله الملك المنان الذي خلق الانسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على خير الانام أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وآله الطيبين الطاهرين.

بعد قرون من نزول القرآن الكريم نرى التأليف والكتابة في الاعجاز القرآني مستمرين، وبدأت تتعمق وتتوسع لتشمل كل المستويات، وكأن الامر بات وليد اللحظة، فجذوة هذا النزاع او كما يسمى التحدي باتت تتوقد كل يوم بل كل ساعة ولا سيما أنَّ القرآن الكريم ترك الباب مفتوحا على مصراعيه للتحدي.

وبدأت هذه التأليف تظهر على الساحة في كل وقت على حين نجد القرآن بين ايدينا شاخصا قائما يتردد صوته ويسمع الناس آياته، فما الامر العظيم الذي احتواه حتى استوعب الفا واربع مائة عام من الدرس والبحث والتأليف والتفسير، الم تَفِ هذه السنون في فهم هذا الكتاب والوقوف على ما فيه من معارف؟

فهذا في حد ذاته امر محير ومعجز اذ لو اردنا ان نعد ما كتب في القرآن من موسوعات وكتب ورسائل وتصانيف المطبوع منها وغير المطبوع لوقفنا مندهشين امام ذلك الكم الكبير من النتاج، فهذه الوريقات جاءت تستجلي بواكير التأسيس لعلم الاعجاز القرآني، ولا سيما بعد أن نسب هذا العلم الى اشخاص غير المؤسسين، وايمانا منا بأهل البيت عليهم السلام وانهم السباقون في كل علم وما تمليه طبيعة المهمة التي قاموا بها من التبليغ وايصال تعاليم السماء الى الناس نجد في متناثر الموروث الروائي ان لهم اليد الطولى في اقرار معالم هذا العلم واسسه.

وحاولت في هذه العجالة أن أجمع بعض النصوص التي تسعفني في ما أريد

اثباته من أن لهم قدم السبق في هذا المجال أيضا، وإلا فان النصوص كثيرة وتحتاج الى وقفات طويلة لاستخراج تلك الكنوز منها.

وبعد ان جمعت مجموعة من الروايات من الكتب المعتبرة قمت باستظهار ما فيها من معان تخص الاعجاز القرآني فقسمت البحث على مطالب بغية تحديد المحاور التي تضمنتها تلك النصوص.

وبعد هذا اقول لا يسعني الا ان اطلب العفو منكم سادتي فإنْ سددت فبتوفيق من الله تعالى، وإن اخفقت فهذه بضاعتي مزجاة ارجو قبولها منكم.

وفيه مطالب:

المطلب الاول: تعريف الاعجاز لغة واصطلاحا:

اولا: الاعجاز لغة:

من أعجز وعجز اذا ضعف وهو ما يقابل القدرة. ومن معاني الإعجاز الفوت والسبق، يقال: أعجزه الشيء، أي فاته. وإحداث العجز، يقال: أعجز فلان فلانا، أي صيره عاجزا. ووجدان العجز، يقال: أعجز فلان فلانا، أي وجده عاجزا[1].

وردَّ ابن فارس العجر الى اصلين هما الضعف ومؤخرة الشيء[2]

ويرى الباحث هو انه اصل واحد؛ لانَّ الضعف هو ما يؤخر فلذا كان الاولى ان يعرف العجز بالضعف المقرون بالتأخر.

ثانيا: اصطلاحاً:

عُرف الإعجاز بتعاريف عديدة وهذه التعاريف كان للقبليات المعرفية الاثر الكبير في صياغتها، إذ ان مسألة الاعجاز ترتبط ارتباطا وثيقا بمجموع المنظومة المعرفية. ومن يتأمل ويدقق في تلك التعاريف يجد ذلك حاضرا.

قال الشيخ المفيد (٤١٣هـ): «المعجز هو الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى المقرون بالتحدي المتعذر على الخلق

الإتيان بمثله»[٣].

وقال الشيخ الطوسي (٤٦٠هـ): «وهو ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوى»[٤].

وقال السيوطي (٩١١هـ): «المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة»[٥].

وعرفها السيد عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ): «المعجز هو الذي يأتي به مدعى النبوة بعناية الله الخاصة خارقا للعادة وخارجا عن حدود القدرة البشرية وقوانين العلم والتعلم ليكون بذلك دليلا على صدق النبي صلى الله عليه وآله وحجته في دعواه البنوة ودعوته»[٦].

وقال الالوسي (١٢٧٠هـ): «ان حقيقة المعجزة الأمر الخارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند التحدي..»[٧].

وقال العلامة الطباطبائي(١٤٠٢هـ): هو «الأمر الخارق للعادة، الدال على تصرف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعة ونشأة المادة، لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل»[٨].

عرفها السيد الخوئي قدس سره (١٤١٣هـ): «أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه»[٩].

ونلاحظ من التعاريف المتقدمة أنَّ اكثرها سدادًا هو ما ذكره السيد عبد الله شبر والسيد الخوئي اذ كانت ناظرة الى حقيقة الاعجاز وفلسفته الاساس، التي هي أن تكون دليلا على النبوة وشاهدا عليها.

ونذكر هنا مجموعة من الروايات تؤيد ما ذهبنا اليه منها:

ما رواه البرقي مرسلا عن ابي جعفر عليه السلام: «إِنَّ القرآن شَاهِدُ الْحَق»[١٠].

ومنها: جاء في تفسير العسكري عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «فَتَعْلَمُونَ بِعَجْزِكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ وَ أَنَّ ذَلِكَ شَهَادَةٌ مِنَ

الله تَعَالَى بِالصِّدْقِ لَهُ»[١١].

ومنها: ما عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ أَعْطَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَأَعْطَاكُمُ الْمُعْجِزَةَ؟ فَقَالَ عليه السلام: لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ وَالْمُعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلّهِ لا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَحُجَجَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ صِدْقُ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»[١٢].

وفي حديث آخر عن الامام الرضا عليه السلام يؤكد هذا المعنى بقوله: «... جُعِلَ دَلِيلَ الْبُرْهَانِ وَ الْحُجَّةَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد»[١٣].

فالظاهر من النصوص المتقدمة أنَّ الهدف الاساس من المعجزة هو ان تكون شاهدا على صدق دعوى النبي صلى الله عليه وآله ودليلا عليها، فليس الغاية هي التحدي إذ لا تتفق مع الهدف الاسمى من بعثة الانبياء، وهو انقاذ الناس، واخراجهم من الظلمات الى النور.

ثالثا: الفرق بين المعجزة والكرامة:

تقدم في تعريف المعجزة انها ما خرق العادة والمقرون بدعوى النبوة، ويأتي بها النبي صلى الله عليه وآله إثباتا لنبوته، وأما الكرامة فلا تكون مقترنة بدعوى النبوة. وأيضاً المعجزة عمل يعجز عنه غير النبي، وأما الكرامة فلها مراتب ربما يصدر بعضها من غير النبي بل من غير الإمام المعصوم أيضاً[١٤].

لكن نجد ان تخصيص المعجزة بالنبوة ما لم يدل عليه دليل إذ نجد ان الامامة يمكن ان تقترن بالمعجزة: فعَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ أَعْطَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَأَعْطَاكُمُ الْمُعْجِزَةَ ؟ فَقَالَ عليه السلام: لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ وَالْمُعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَ حُجَجَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ صِدْقُ

الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»[١٥].

وفي حديث آخر عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام قَالَ: «عَشْرُ خِصَالٍ مِنْ صِفَاتِ الْإِمَامِ الْعِصْمَةُ وَالنُّصُوصُ وَأَنْ يَكُونَ أَعْلَمَ النَّاسِ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَأَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْوَصِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَيَكُونَ لَهُ الْمُعْجِزُ وَالدَّلِيلُ وَتَنَامَ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامَ قَلْبُهُ وَلَا يَكُونَ لَهُ فَيْءٌ وَيَرَى مِنْ خَلْفِهِ كَمَا يَرَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ»[١٦].

فهذه الرواية نص في ان من الخصال التي يجب ان تكون للامام عليه السلام هي المعجزة ولا سيما أنَّ الامام هنا في مقام تحديد لوازم الامامة.

المطلب الثاني:

ضرورة المعجزة للنبوة وعلتها:

لا بد للنبي من إيتاء المعجز لكي يثبت دعواه وان كانوا عدولا صادقين في اقوامهم؛ إذ ان المتابعة للنبي لا تكون الا بعد ان يثقوا به، وهذه الثقة لا تحصل بمجرد الادعاء، بل تثبت بمجموعة من الامور والمعجزة من هذه الأمور فضلا عن الكمالات الأخرى التي يمنحها الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ الناس لا يمكن أن يسلموا لهكذا أمور من دون دليل وبرهان على صدقه ولا سيما أمرا كهذا؛ إذ به تتحدد السعادة أو الشقاء، فبات إقامة البرهان على هكذا أمور من المسلمات بين الناس؛ لدفع احتمال الكذب.

وجاءت سنة الله عز وجل جريا على هذا الامر ببعث الانبياء بالمعجزات حتى يصدق بهم الناس ويشهد لهم بانهم موفدون من السماء، وانهم قائمون على السفارة الالهية، اذ هذه السفارة في عهدنا تحتاج الى ما يؤيدها من اوراق ووثائق تؤكد صحة الانتماء والسفارة عن تلك الدولة وهذا من الامور العقلية التي جبل عليها الناس، وبهذا صرح

القرآن نفسه بقوله تعالى: ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾[١٧].

أي علامة على صدق دعواه كما في العصى واليد وابراء الاكمه والابرص وغيرها، فارسال الانبياء بالآيات كانت سنة جارية في الخلق.

وهنا يبيّن الامام الصادق عليه السلام علة ارسال الانبياء بالمعجزات، فعَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ أَعْطَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَأَعْطَاكُمُ الْمُعْجِزَةَ؟ فَقَالَ عليه السلام: لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ وَالمُعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لا يُعْطِيهَا إلا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَحُجَجَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ صِدْقُ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»[١٨].

فظاهر النص ان ثبوت النبوة أو الامامة متوقف على دليل وهذا الدليل هو المعجزة، فمن ادعى انه نبي طولب بالعلامة والدليل على صدق دعواه، وعرّج الحديث على مسألة أخرى وهي ان المعجزة بيد الله عزوجل لا تعطى لكاذب وعلل في ذيل الحديث على ذلك.

وفي حديث آخر عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «أَنَّهُ قَالَ لِلزِّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَهُ مِنْ أَيْنَ أَثْبَتَّ الرُّسُلَ وَ الْأَنْبِيَاءَ؟ فَقَالَ: إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً صَانِعاً مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً مُتَعَالِياً لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ وَيُلَامِسُوهُ وَيُبَاشِرهُمْ وَيُبَاشِروهُ وَيُحَاجَّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ فَثَبَتَ الْآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ وَالْمُعَبِّرُونَ عَنْهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ حُكَمَاءُ مُؤَدَّبُونَ بِالْحِكْمَةِ مَبْعُوثُونَ بِهَا غَيْرَ مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ فِي شَيْءٍ مِنْ

أَحْوَالِهِمْ مُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ بِالْحِكْمَةِ ثُمَّ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ مَا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ لِكَيْلَا تَخْلُوَ أَرْضُ اللهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ»[١٩].

في هذا النص بيَّن الامام عليه السلام سنّة الله عز وجل في خلقه من بعث الانبياء، وان هذا العبث مقرون دائما بالدلائل والبراهين على صدق دعواهم، وانزال الحجة ملزمة بانهم سفراء عن الله عزوجل.

وقد بيَّنَ السيد الخوئي(١٤١٣) في تعريفه للمعجزة فائدة المعجزة وضرورتها بقوله: «أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهدا على صدق دعواه. وإنما يكون المعجز شاهدا على صدق ذلك المدعي إذا أمكن أن يكون صادقا في تلك الدعوى»[٢٠].

المطلب الثالث:

معجزة الدين الاسلامي:

بعد أن تبيّن أنَّ المعجزة من الأمور الضرورية للدعوة، ولإثبات صدق الأنبياء عليهم السلام نأتي ونبين ما هي معجزة الاسلام، وان كانت لا تخفى على أحد لكن ارتأينا أنْ نبينها من خلال مرويات أهل البيت عليهم السلام: «أَنَّ قَوْماً مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا لِلصَّادِقِ عليه السلام: أَيُّ مُعْجِزٍ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلّم؟ قَالَ: كِتَابُهُ الْمُهَيْمِنُ الْبَاهِرُ لِعُقُولِ النَّاظِرِينَ مَعَ مَا أُعْطِيَ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهِمَا»[٢١].

فظاهر النص أنَّ معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم، وأنه مهيمن على الكتب السماوية، وانه باهر للعقول.

وأكدت الكتب الكلامية الإمامية أنَّ هذه المسألة ثبتت بالتواتر والنقل، ولا خلاف فيها بين المسلمين[٢٢].

ورب سائل يسأل هناك معاجز اخرى ظهرت على يده الشريفة فما دورها؟

نقول: لا ينافي تعدد المعجزات على يده الشريفة؛ لان المعجزة الاساس هو القرآن، والتي كانت هي عين الرسالة، بل تكون المعجزات الاخرى مؤيدة وتتناسب مع المواقف والاذواق.

المطلب الرابع:

موضوع الاعجاز

إنَّ موضوع الاعجاز هو كل ما يمكن ان يكون شاهدا على صدق دعوى الانبياء عليهم السلام سواء كانت معجزة عقليّة أم حسيّة ويكون موضوعه حسب نوع المعجزة، فمعجزة القرآن الكريم هي ألفاظه وما اشتمل عليه من اسلوب، ونظم، ومعارف وما يمكن أن يقتضي أن يكون فيه حكمة بالغة أو أي شيء نستطيع أن نقف عليه.

فموضوع الاعجاز القرآني منصب على الألفاظ التي سيقت بقوالب لا يقدر الانسان على مجاراتها مع أنها من كلام العرب نفسه، وفي الوقت ذاته بعد ان اتسعت دائرة البحث وتخصصت العلوم اصبح لكل علم معالمه الخاصة، وان بعض جزئيات هذه العلوم وجد لها اشارة او تلميح في القرآن الكريم، كما في الاشارات الفلكية، والجيلوجية، والبيلوجية، وعلم النبات والحشرات، كما أنَّ المستوى التاريخي كالطوفان والهلاك الذي اصاب الامم السبقة والغيبي كان له نصيب في القرآن، فدفعت هذه الاشارات غريزة الفضول الى البحث عن تلك الحقائق التي تعرض لها القرآن، فهذه وغيرها كانت المادة الاساس في موضوع الاعجاز القرآني.

المطلب الخامس:

سبب نشوء علم الإعجاز:

١ -إن طبيعة القرآن الكريم من حيث بناؤه واسلوبه ونظمه، دفعت الناس حول دراسة الإعجاز لما فيه من أمور تستوجب الوقوف عليها، ففي القرآن الكريم اشارات لا يمكن ان يمرَّ عليها اي انسان لديه ادنى معرفة بالأمور الادبية أو الكونية أوالنفسية وغيرها.

٢ -الفتوحات الاسلامية وانفتاح العرب على الثقافات الأخرى ودخول كثير من اتباع الديانات الأخرى الى الاسلام الذين اصطحبوا معهم قبليات تحتاج الى الاجابة وتمييز القرآن الكريم عن تلك الكتب في تلك الديانات.

٣ -انتشار حركة الترجمة ونقل الكتب من والى العربية والاحتكاك بتلك المعارف، مما ادى الى انسحاب تلك العلوم ومقابلتها بالقرآن وما فيه من مفاهيم.

٤ -من الامور التي ساعدت على نشؤ علم الاعجاز الفتوحات العلمية والاكتشافات الحديثة، التي دفعتنا لأن ندرسه ولمعرفة الإشارات القرآنية لتلك المعارف، ولا سيما ان بعض تلك المعارف الموجودة في الكتب السماوية عارضت تلك الاكتشافات؛ بسبب احتوائها على الخرافة والتحريف، مما جعل هذا الاشكال ينعكس على القرآن الكريم وجعله في مرتبة تلك الكتب، مما دفع العلماء المسلمين والمهتمين بالبحاث القرآنية بالدفع عن القرآن الكريم بتقويم دعائم علم الاعجاز، على حين نجد ان القرآن جاء موافقا للاكتشافات الحديثة.

٥ -أن يكون بابا من أبواب جذب الناس الى هذا الدين العظيم، وبيان حقانيته، واطلاعهم على حقيقة القرآن بأنه كلام الله عز وجل، وان ما اشتمل عليه من معارف هي معارف إلهية،

تهدف الى إظهار المعاني العظيمة التي فيها سعادة الانسان في الدارين.

٦ -وإن من أسباب نشوء الإعجاز هو تقديم نظرية متكاملة عن المنظومة المعرفية القرآنية حتى لا يقع المجال للمشككين في إعجاز القرآن.

المطلب السادس:

فائدة دراسة الاعجاز:

إنَّ من الأمور التي يسأل عنها طالب العلم ما هي فائدة دراسة الإعجاز ؟ بالتأكيد يكون هذا السؤال مطروحا لدى كل من يسمع بهذا العلم، ولكن بعد أن يقف على اهميته المتمثلة بمعرفة منزلة القرآن الكريم والغاية من نزوله يتبين له لماذا ندرس هذا العلم ويمكن تصوير فائدته على مستويين هما:

المستوى الأول تنويري:

١. انه يزيد الإنسان قناعة و اعتقادا بحقانية هذا الكتاب وإلهيته، ولا سيما اذا برهن العلم الحديث على هذه الحقائق التي لم تكن معروفة في ذلك الزمان.

٢. إن طبيعة القرآن الكريم مشتملة على هذه الأمور، إذ ان القرآن الكريم فيه إشارات بلاغيّة تعبر عن مجموعة من الحقائق الكونيّة، والأنفسيّة.

٣. إن هذا القرآن هو من الله عز وجل لإخراج الناس من الظلمات الى النّور.

المستوى الدفاعي:

١. إثبات انَّ القرآن صالح لكل زمان ومكان والرد على من ادعى بأن القرآن مختص بزمان قد مضى.

٢. جعل القرآن موطن جذب للآخر.

٣. إثبات أنه كلام الله تعالى وليس كلام البشر.

٤. معرفة مواطن الإعجاز فنستطيع الرد على المعاندين و الناكرين لكتاب الله تعالى.

المطلب السابع:

فضل علم الاعجاز.

انَّ كل علم تكمن اهميته وفضله من ذلك العلم الذي يبحثه الدارسين، فعلم الاعجاز يدرس كلام الله فكفى بذلك فضلا، اضافة على ذلك النصوص الحاثة على التدبر في كتابه وتعلمه وتعليمه ففضل هذا العلم نابع من عقيدة الفرد بكتابه ومكانته.

فالناظر في الآيات والاحاديث التي جاءت في فضل التدبر في القرآن وتعلمه يجد انها كفيلة في بيان مكانة علم الاعجاز، ويتجلى اكثر بمعرفة الفوائد التي يفضي اليها، فهو على درجة من الفضل انه يرتقي بالإنسان الى افضل مراتب اليقين بعقيدته.

فقد جاء في فضل حملة القرآن النصوص الكثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

جاء في تفسير الامام حسن العسكري عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أنه قَالَ: «حَمَلَةُ القرآن الْمَخْصُوصُونَ بِرَحْمَةِ الله، الْمُلَبَّسُونَ نُورَ الله، الْمُعَلَّمُونَ كَلَامَ الله، الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَ الله، مَنْ وَالاهُمْ فَقَدْ وَالَى الله، وَمَنْ عَادَاهُمْ فَقَدْ عَادَى الله وَيَدْفَعُ اللهُ عَنْ مُسْتَمِعِ القرآن بَلْوَى الدُّنْيَا، وَعَنْ قَارِئِهِ بَلْوَى الْآخِرَةِ»[٢٣].

وفي حديث عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: إِنَّ أَهْلَ القرآن فِي أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، فَلَا تَسْتَضْعِفُوا أَهْلَ القرآن حُقُوقَهُمْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ مِنَ الله الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ لَمَكَاناً عَلِيّاً»[٢٤].

وعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ، قَالَ سَمِعْتُ أَبَا الْخَطَّابِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَجْهَلُ حَقَّهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْرُوفٌ بِالنِّفَاقِ: ذُو الشَّيْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَحَامِلُ القرآن، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ»[٢٥].

المطلب الثامن:

نسبته الى العلوم الاخرى:

إنَّ علم الاعجاز كان وما زال على علاقة وطيدة باللغة العربية وعلومها؛ إذ من المستحيل النظر في القرآن الكريم من دون المعرفة باللغة العربية والاطلاع على اساليبها، بل انها مقدمة لفهم الاعجاز؛ لأنَّ القرآن جاء على النهج العربي، ودليل على رسالة النبي صلى الله عليه وآله، فمن لا يمتلك هذا الكم من اللغة لا يستطيع ادراك لطائف القرآن وحكمه، وهذا لا يقتصر على مستوى واحد من اللغة وانما كل مستويات اللغة من الصرف والبلاغة، الصوت.

كما ان علم الاعجاز كان جزئية في علوم القرآن اما اليوم وبعد ان تحددت معالمه وارسيت قواعده فقد استقل واصبح يفرد له البحث والتأليف، وان كانت بعض كتب علوم القرآن الى اليوم تعرج على الاعجاز في ابحاثها.

اما باقي المعارف الأخرى ولا سيما بعد أن اصبحت كثير من العلوم اليوم بديهية احتيج الى معرفة تلك العلوم حتى يستطيع من يدرس الاعجاز ان يلتمس تلك الطرائف التي اشار القرآن اليها كما في الطب، والفلك والفيزياء، وغيرها من العلوم، بل المتأمل في تلك الآيات تدله بنفسها على ما فيها من نكات، إذ تلامس ميولاته ورغباته.

فالذي يمر على آيات البحار او الجبال او النبات لا يمكن ان يمر عليها مرورا عابرا، بل هي تقرع في اذنه ناقوس التدبر والالتفات الى حكمتها.

المطلب التاسع:

واضع هذا العلم:

يزعم بعضٌ أنَّ أول من وضع هذا العلم في القرن الثاني هو ابو عبيد (٢١٠هـ) في كتابه اعجاز القرآن، لكن من يتتبع احاديث اهل البيت عليهم السلام يجد أنَّ أهل البيت عليهم السلام، كانت لهم قدم

السبق في تأسيس هذا العلم، والناظر في مروياتهم يجد أنهم قد اشاروا اليه بكلمات صريحة وقد سبقوا غيرهم فقد روي عَنْ أَبِي بَصِيرٍ أنه قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ أَعْطَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَأَعْطَاكُمُ الْمُعْجِزَةَ؟ فَقَالَ عليه السلام: لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ وَالْمُعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَحُجَجَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ صِدْقُ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»[٢٦].

كما ان الامام الرضا عليه السلام بين علة تنوع المعجزة وسبب توافقها مع صنعة اهل ذلك العصر، إذ قال ابن السكّيت[٢٧] للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: «لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا واليد البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطبّ؟ وبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالكلام والخطب؟ فقال عليه السلام: إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات[٢٨]، واحتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه، ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم»[٢٩].

من هذا النص نعرف أن أهل البيت عليهم السلام لهم السبق في تأسيس هذا العلم؛ لأنَّ المعروف أنَّ تأريخ استشهاد الامام الصادق عليه السلام (١٤٨هـ)، فالفارق الزمني أكثر من ستين سنة، كما لا يخفى ذلك ايضا في خطب الامام علي الرضا عليه السلام واحاديثه المستشهد في (٢٠٤هـ).

المطلب العاشر:

سبب التكذيب للمعجزة مع نفاذها وقاطعيتها:

إنَّ سبب تكذيب المعجزة لم يكن لجهة قصور المعجزة أو نقص الادلة عن غايتها؛ وإنما ما وقع يرجع الى أنَّ بعضهم أستكثر على طائفة من الناس هذا الامر إمّا حسدا او بغضا، وقد صرح القرآن بهذا في أكثر من مورد منها:

قوله تعالى: «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهين»[٣٠].

وقوله تعالى: ﴿**كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيمَا اخْتَلَفُوا فيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فيهِ إِلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم**﴾[٣١].

وقوله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا**﴾[٣٢].

وجاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ كُفْرُهُمْ لِبَغْيِهِمْ وَحَسَدِهِمْ لَهُ- لِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ القرآن الَّذِي أَبَانَ فِيهِ نُبُوَّتَهُ وَأَظْهَرَ بِهِ آيَتَهُ وَمُعْجِزَتَهُ...»[٣٣].

فكفرهم وتفرقهم عنه لم يكن عن جهل، وانما كانوا على علم بأن الذي جاء به هو من عند الله عز وجل، واذا رجعنا الى مفردة (بغيا) فيما يتعلق بهذا المضمون نجد انها تكررت خمس مرات في كتاب الله عز وجل، كلها تفيد ان ما وقع من تكذيب بالآيات والمعجزات هو راجع الى الحسد.

المطلب الحادي عشر:

شروط المعجزة:

من التعاريف التي ذكرها العلماء للمعجزة نجد ان لها شروطا وهي:

١ -ان تكون المعجزة أمراً خارقاً للعادة: إذ لو كانت امرا مألوفا عاديا لما كان معجزة، جاء في تفسير العسكري عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «وَأَمَّا قَوْلُكَ لِي: وَلَوْ كُنْتَ نَبِيّاً لَكَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يُصَدِّقُكَ وَنُشَاهِدُهُ، بَلْ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا نَبِيّاً- لَكَانَ إِنَّمَا يَبْعَثُ مَلَكاً لَا بَشراً مِثْلَنَا، فَالْمَلَكُ لَا تُشَاهِدُهُ حَوَاسُّكُمْ، لِأَنَّهُ مِنْ جِنْس هَذَا الْهَوَاء، لَا عِيَانَ مِنْهُ، وَلَوْ شَاهَدْتُمُوهُ- بِأَنْ يُزَادَ فِي قُوَى أَبْصَارِكُمْ- لَقُلْتُمْ: لَيْسَ هَذَا مَلَكاً، بَلْ هَذَا بَشر؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَظْهَرُ لَكُمْ بِصُورَةِ الْبَشر- الَّذِي قَدْ أَلِفْتُمُوهُ لِتَفْهَمُوا عَنْهُ مَقَالَهُ، وَتَعْرِفُوا بِهِ خِطَابَهُ وَمُرَادَهُ، فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَ المَلَكِ- وَأَنَّ مَا يَقُولُهُ حَقٌّ بَلْ إِنَّمَا بَعَثَ اللهُ بَشراً، وَأَظْهَرَ عَلَى يَدِهِ الْمُعْجِزَاتِ- الَّتِي لَيْسَتْ فِي طَبَائِعِ الْبَشر- الَّذِينَ قَدْ عَلِمْتُمْ ضَمَائِرَ قُلُوبِهِمْ، فَتَعْلَمُونَ بِعَجْزِكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ وَأَنَّ ذَلِكَ شَهَادَةٌ مِنَ الله تَعَالَى بِالصِّدْقِ لَهُ، وَلَوْ ظَهَرَ لَكُمْ مَلَكٌ وَظَهَرَ عَلَى يَدِهِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشر، لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّكُمْ- أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِي طَبَائِعِ سَائِرِ أَجْنَاسِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ- حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ مُعْجِزاً. أَ لَا تَرَوْنَ أَنَّ الطُّيُورَ الَّتِي تَطِيرُ- لَيْسَ ذَلِكَ مِنْهَا بِمُعْجِزٍ؛ لِأَنَّ لَهَا أَجْنَاساً يَقَعُ مِنْهَا مِثْلُ طَيَرَانِهَا، وَلَوْ أَنَّ آدَمِيّاً طَارَ كَطَيَرَانِهَا كَانَ ذَلِكَ مُعْجِزاً، فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ سَهَّلَ عَلَيْكُمُ الْأَمْرَ، وَجَعَلَهُ بِحَيْثُ تَقُومُ عَلَيْكُمْ حُجَّتُهُ، وَأَنْتُمْ تَقْتَرِحُونَ عَمَلَ الصَّعْبِ الَّذِي لَا حُجَّةَ فِيهِ»[٣٤].

فالنص المتقدم وقف على ادق التفاصيل التي يجب توفرها في ما يقدمه مدعي النبوة لإثبات حجته، فلا يجوز التنزل بالخارق الى مستوى يسلبه تلك

الغرابة، ولا الترقي بالإنسان ليكون هو خارقا فلا يعتد بما يراه خارقا، وهذا يكون على نحو ان القلوب تذعن بأن ما جاء به النبي هو امر خارج عن طوق نوع الانسان.

فالقرآن الكريم يجده المتأمل خارقاً لِمَا الفه الناس من الكلام الفصيح، من حيث خصائصه اللفظيّة والمعنائيّة، والأسلوبيّة، والصوتيّة والنظميّة، وما يحويه بين جنباته من حقائق ومعارف شاملة وتامّة وكاملة، بحيث لم يعتد الناس احتواءها في كلام من دون أن يعتريه نقص أو خلل ما قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[٣٥]، وقوله تعالى ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[٣٦].

٢ -ان المعجزة لا تكون إلا للأنبياء: ذكر هذا الشرط بعض من كتب في الاعجاز ولكن من خلال مراجعة الروايات وجد ان المعجزة غير مختصة بالانبياء وانما تعم الحجج من المعصومين عليهم السلام فقد روي عَنْ أَبِي بَصِيرٍ أنه قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ أَعْطَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَأَعْطَاكُمُ الْمُعْجِزَةَ؟ فَقَالَ عليه السلام: لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ وَالْمُعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَحُجَجَهُ لِيُعْرَفَ بِهِ صِدْقُ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ»[٣٧].

فظاهر النص عدم اختصاصها بالأنبياء وهذا ظاهر من قول ابي بصير، إذ سأل الإمام (واعطاكم)، ثم اكد الإمام أن الحجج مشمولون بالمعجزة.

٣ -مطابقة المعجزة لدعوى النبوّة والرسالة: أي ان المعجزة تأتي موافقة لما يعرض، فان طُلب منه مثلا شق القمر الى نصفين لا بد ان تكون المعجزة على النحو الذي طلب فلا يكون اربعة او

ثلاثة، فالقرآن عندما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان في بنائه وتركيبه واسلوبه مطابقًا لما في الدعوى، وإنّ أي انسان عندما ينظر الى المطالب العليا في القرآن الكريم يجد من دون أدنى شكّ ولا ريب أنها تنسجم تمام الانسجام مع ما صدح به صلى الله عليه وآله من تعاليم، وما كشف عنه من حقائق، ودعا إليه من اعتقاد وعمل، وصدر عنه من تبشير وإنذار. وقد تكلّم القرآن الكريم نفسه عن هذه المطابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٣٨]، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٣٩].

٤ ـ اقتران المعجزة زماناً مع دعوى النبوّة والرسالة: من القراءة الدقيقة لتاريخ الدعوة الاسلامية نجد من دون شكّ ولا ريب أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عندما أعلن عن رسالته الإلهيّة وأفصح عنها للناس وبيّن لهم نصّها ومضمونها، كانت مقرونة بالقرآن؛ لأنّ القرآن هو عين الرسالة. وقد بيّن القرآن نفسه ذلك، إذ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله منذ أوّل البعثة الشريفة بقراءة القرآن وتلاوته وتفسيره للناس: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٤٠]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤١]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٤٢]، فلم يسبق نزول القرآن وإظهاره للناس على ظهور دعوى الرسالة فيهم: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤٣]،

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٤٤)، وكذلك لم يتأخّر عنها: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(٤٥).

٥ ـ اقتران المعجزة بالتحدّي: ذهب جماعة الى أن القرآن الكريم تحدى بكلامه الإنس والجنّ، ومن بينهم العرب الذين ابدعوا وبرعوا في لغتهم ولم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدّمة عليهم أو المتأخّرة عنهم، وبلغوا بها مبلغا لم يبلغه غيرهم، في تمام البيان، وجزالة النظم، ووفاء اللفظ، ورعاية المقام، وسهولة المنطق(٤٦).

وقد ورد هذا التحدّي في القرآن ضمن خمس آيات، هي بحسب ترتيب نزولها على وفق الترتيب الآتي:

١- قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٤٧).

٢- قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤٨).

٣- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤٩).

٤- قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(٥٠).

٥- قال تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(٥١).

وبالتأمّل في هذه الآيات، نلاحظ أنه لا وجه للتحدي لما قدمنا، وانما هو فقط

دليل على صدق الدعوى وذهب بعض الباحثين الى عدم اشتراطه.

اما الآيات التي يدل ظاهرها على تحدي فكانت جوابا لحال من الاحوال او الاعتراضات التي قدمها الكفار، فبعد ان عرض النبي آيات القرآن عليه بدأت اولا الحرب الناعمة بتوهين القرآن، وابتداع الاباطيل حوله منها: انه من الاساطير التي اكتتبها النبي خلال رحلاته، أو أنه كانت تملى عليه من قبل رجل اعجمي أو من قبل الجن، أو افتراها، فهنا جاء رد القرآن بأن يأتوا من مثله.

٦ ـ العجز عن الإتيان بمثلها:

لقد فتح القرآن باب التحدي حتى طالت فلم يستطع احدٌ من الإنس والجنّ من الإتيان بمثله، بل نزل مستوى التحدّي إلى الإتيان بمثل حديث منه، وطال وقت الاستنهاض، فلم يجيبوه إلا بالتوعد لأهله بالقتل والتنكيل، ولم يزدهم إلا عجزا، ولم يكن منهم إلا ان يغمدوا السنتهم ويشهروا سيوفهم: ﴿**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[٥٢].

٧ ـ إنَّ الإعجاز خاضع لقانون العلية: «فإن العلل المعنوية أيضا من العلل، ومشمولة لتلك القاعدة، كما أن العلل الطبيعية لا تنحصر في العلل الموجودة المكشوفة، لإمكان اكتشاف علل طبيعية أخرى في الآتي، وعليه فالإعجاز معلول من المعاليل، وله علة معنوية، وهذه العلة المعنوية قد تستخدم في الاعجاز الأسباب الطبيعية، كما دعا النبي صلى الله عليه وآله في حق معاند فسلط الله عليه سبعا فأكله، وقد يكتفي بالعلل المعنوية كإحياء الموتى أو انبات شجر مثمر في دقائق قليلة، وكيف كان، فالنظام الاعجازي يقدم على النظام الجاري بإرادته تعالى،

ومشيته، فليس المعجزة بلا سبب وعلة، حتى يقال: بأنه نقض لأصل العلية ومما ذكر يظهر ما في مزعمة الماديين حول الاعجاز حيث تخيلوا أنه ينافي أصل العلية»[٥٣].

المطلب الثاني عشر:

أنواع المعجزة:

من تتبع الآيات القرآنية التي ذكرت معجزات الانبياء وصورها نستطيع أن نحصر المعجزات في نوعين:

أحدهما: المعجزات الحسية: وهي التي تدرك عن طريق الحواس الخمس، وتكون حاضرة في ذلك المجتمع وتركز غالبا على الاشياء التي تكون اقرب الى ذلك المجتمع وطبيعته، وانواعها كانت ظاهرة وحاضرة في مجتمعات بني اسرائيل وهذا يرجع اما لتدني المستوى العقلي أو لتعنتهم والتشكيك في كل شيء. يقول السيوطي(٩١١هـ): «وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم»[٥٤].

وتمتاز المعجزة الحسية بأمور منها:

١ -انها وقتية تنتهي بانتهاء عصرها.

٢ -انها لا تمثل الرسالة وانما هي امر خارج عن الرسالة غايتها اثبات صدق دعوى النبي.

٣ -تكون في المجتمعات التي لا باع لها في العلوم النظرية.

٤ -انها تكون في المجتمعات التي اعتادت على التكذيب والتعنت اذ كلما كانت المعجزة مادية تكون اكثر الزاما.

الآخر: المعجزات العقلية: وهي التي تدرَك من قبل العقل الإنساني وتتعدّى إدراك الحواس المادّية، كالإتيان بحقائق العلوم من غير تعلّم، قال الراغب: «ما يُدرَك بالبصيرة، كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلّم»[٥٥].

الفرق بين المعجزات الحسية والعقلية:

فأمّا الحسّية: فيشترك في إدراكها العامّة والخاصّة، وهي أوقع عند طبقات العامّة والمتعنتين والمعاندين، وآخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم. وأمّا العقلية: فيختصّ بإدراكها كملة الخواصّ من ذوي العقول الراجحة والأفهام الثاقبة الذين يغنيهم إدراك الحقّ.

المطلب الثالث عشر:

خصائص إعجاز القرآن ومعالمه على ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام:

١ ـ إنَّ المعجزة لا يدخلها تلبيس وانها جلية، وانها قاطعة على الخصم العذر؛ لأنَّها واضحة الدلالة، كما انها لا تُرد، جاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: فَلَمَّا بَهَرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ بِمُعْجِزَتِهِ، وَقَطَعَ مَعَاذِيرَهُمْ بِوَاضِحِ دَلَالَتِهِ، لَمْ يُمْكِنْهُمْ مُرَاجَعَتُهُ فِي حُجَّتِهِ، وَلَا إِدْخَالُ التَّلْبِيسِ عَلَيْهِ فِي مُعْجِزَتِهِ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ قَدْ آمَنَّا بِأَنَّكَ الرَّسُولُ الْهَادِي الْمَهْدِيُّ، وَأَنَّ عَلِيّاً أَخَاكَ هُوَ الْوَصِيُّ وَالْوَلِيُّ»[٥٦].

٢ ـ إنَّ المعجزة هي تكريم للنبي صلى الله عليه وآله، وبيان للحجة، وان المعجزة يجب ان تكون للناس لا للنبي، جاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «قَالَ الْإِمَامُ عليه السلام لِلْوَالِي: وَأَنْتَ قَدْ كَذَبْتَ كَذِبَةً لَوْ تَعَمَّدْتَهَا وَكَذَبْتَهَا- لَابْتَلَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِضربِ أَلْفِ سَوْطٍ، وَسِجْنِ ثَلَاثِينَ سَنَةً فِي الْمُطْبَقِ. قَالَ: وَمَا هِيَ يَاابْنَ رَسُولِ الله؟ قَالَ: بِزَعْمِكَ أَنَّكَ رَأَيْتَ لَهُ مُعْجِزَاتٍ، إِنَّ الْمُعْجِزَاتِ لَيْسَتْ لَهُ إِنَّمَا هِيَ لَنَا أَظْهَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِيهِ إِبَانَةً لِحُجَّتِنَا وَإِيضَاحاً لِجَلَالَتِنَا وَشَرفِنَا، وَلَوْ قُلْتَ: شَاهَدْتُ فِيهِ مُعْجِزَاتٍ، لَمْ أُنْكِرْهُ عَلَيْكَ، أَلَيْسَ إِحْيَاءُ عِيسَى عليه السلام الْمَيِّتَ مُعْجِزَةً أَهِيَ لِلْمَيِّتِ أَمْ لِعِيسَى أَوَ لَيْسَ خَلَقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ- فَصَارَ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ

(مُعْجِزَةً) أَهِيَ لِلطَّائِرِ أَوْ لِعِيسَى أَوَ لَيْسَ الَّذِينَ جُعِلُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ مُعْجِزَةً، أَهِيَ لِلْقِرَدَةِ أَوْ لِنَبِيٍّ ذَلِكَ الزَّمَانِ فَقَالَ الْوَالِي: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ (رَبِّي) وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»[٥٧].

٣ -إنَّ المعجزة هي لاثبات النبوة وعلامة صدق النبيﷺ في دعواه، وانها لا قصور في ذاتها وانما القصور في نفوسهم، جاء في تفسير الإمام الحسن العسكريعليه السلام: «قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ كُفْرُهُمْ لِبَغْيِهِمْ وَحَسَدِهِمْ لَهُ- لِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ القرآن الَّذِي أَبَانَ فِيهِ نُبُوَّتَهُ وَأَظْهَرَ بِهِ آيَتَهُ وَمُعْجِزَتَهُ»[٥٨].

وفي تفسير الإمام الحسن العسكريعليه السلام: لقوله تعالى: «وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ»[٥٩] الدَّلَالاتِ عَلَى نُبُوَّتِهِ..»[٦٠]، وقال الامام عليعليه السلام: «وَيَكُونَ - القرآن - بَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِين..»[٦١].

٤ -إنَّ معجزة القرآن خالدة وانها باقية على مرِّ الازمان، وأنها صالحة لكل وقت. وأنها تجري في الناس، ومهيمنة على كل الكتب والمعجزات. وتدل على هذا المعنى مجموعة من الروايات منها:

ما روي عن الصديقة فَاطِمَةَ عليها فِي خُطْبَتِهَا المعروفة إذ قَالَتْ: «لِلَّهِ فِيكُمْ عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ وَبَقِيَّةٌ اسْتَخْلَفَهَا عَلَيْكُمْ كِتَابُ اللهِ بَيِّنَةٌ بَصَائِرُهُ وَآيٌ مُنْكَشِفَةٌ سَرَائِرُهُ وَبُرْهَانٌ مُتَجَلِّيَةٌ ظَوَاهِرُهُ مُدِيمٌ لِلْبَرِيَّةِ اسْتِمَاعُه...»[٦٢].

اذ الظاهر من المقطع الاخير من الخطبة ان الله عزوجل ادام استماعه للخلق.

ومنها: ما جاء عن الامام زين العابدينعليه السلام: «وَجَعَلْتَهُ مُهَيْمِناً عَلَى كُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلْتَه»[٦٣]، وعن ابي عبد اللهعليه السلام: «أَنَّ قَوْماً مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا لِلصَّادِقِعليه السلام أَيُّ مُعْجِزٍ يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: كِتَابُهُ الْمُهَيْمِنُ الْبَاهِرُ لِعُقُولِ النَّاظِرِين»[٦٤].

ان المراد من الهيمنة هو الغلبة والقهر فمن لا يكون باقيا لا يسمى مهيمنا،

فبقاءه هو من لوازم الخاتمية التي تحتاج الى الدوام والبقاء الى قيام الساعة.

ومنها: ما روي عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قال: «... يَا خَيْثَمَةُ إِنَّ القرآن نَزَلَ (نَزَلَتْ) أَثْلَاثاً فَثُلُثٌ فِينَا وَثُلُثٌ فِي عَدُوِّنَا وَثُلُثٌ فَرَائِضُ وَأَحْكَامٌ وَلَوْ أَنَّ آيَةً نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ ثُمَّ مَاتُوا أُولَئِكَ مَاتَتِ الْآيَةُ إِذَا مَا بَقِيَ مِنَ القرآن شَيْءٌ إِنَّ القرآن يَجْرِي مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَآخِرِهِ إِلَى أَوَّلِهِ مَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَلِكُلِّ قَوْمٍ آيَةٌ يَتْلُونَهَا هُمْ مِنْهَا فِي خَيْرٍ أَوْ شر»[٦٥].

ومنها: قول الامام الصادق عليه السلام: «قَالَ القرآن نَزَلَ فِي أَقْوَامٍ وَ هِيَ تَجْرِي فِي النَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٦٦].

ومنها: عَنْ سَمَاعَةَ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ أَبو عَبْدِ الله عليه السلام: «...جَاءَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله فَجَاءَ بِالقرآن وَشَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ فَحَلَالُهُ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَرَامُهُ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..»[٦٧].

ومنها: ما روي عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شَاذَانَ قَالَ: قال عَلِيُّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام في وصف القرآن الكريم: «وَأَنَّهُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى الْكُتُبِ كُلِّهَا»[٦٨].

ان الظاهر من الاحاديث المتقدمة بيان علة بقاء القرآن وفلسفة دوامه الى الساعة، فان الآية اذا كانت خاصة بقوم فبموتهم تنتهي فاعلية الآية واشخاصها، فهنا اراد الامام عليه السلام ان يبين ان الآية لا ترتبط بمصداق معين وانما هي مفاهيم كلية تجري على مصاديق عديدة، ولذا قال المفسرون: إن العبرة بعموم اللفظ لا خصوص السبب.

ومنها: ما روي عن أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ**﴾ يَعْنِي القرآن الَّذِي ﴿**لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ**﴾ قَالَ: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ قِبَلِ التَّوْرَاةِ وَ لَا مِنْ قِبَلِ الْإِنْجِيلِ وَ الزَّبُورِ وَ أَمَّا مِنْ خَلْفِهِ لَا يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِهِ كِتَابٌ يُبْطِلُه[٦٩].

ان كلمة الابطال في هذا النص ظاهرة في بقاء الفاعلية، وانه ناجز وماض في احكامه، لا ينسخه كتاب من الكتب السماوية الاخرى.

منها: ما روي عن الامام الرضا عليه السلام بقوله: «.. هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَعُرْوَتُهُ الْوُثْقَى وَطَرِيقَتُهُ الْمُثْلَى الْمُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمُنْجِي مِنَ النَّارِ لَا يَخْلُقُ[٧٠] عَلَى الْأَزْمِنَةِ وَلَا يَغِثُّ[٧١] عَلَى الْأَلْسِنَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ بَلْ جُعِلَ دَلِيلَ الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد»[٧٢].

الناظر الى هذا الحديث يجده نصا في دلالته على ان القرآن لم يأتِ لزمان دون زمان آخر، بل انه لم يقتصر على عربي او اعجمي؛ لان لفظة كل تدل على العموم في قوله (كل انسان) وانه باق جديد في كل وقت لا يخلق من كثرة الرد.

٥ -وانها عقلية كما تقدم في النقطة الرابعة.

٦ -وانها دليل على الرسالة، وهي الرسالة في الوقت ذاته، بيَّن فيه الاحكام، وجعله مصانا من ان يحرف، ومما يستدل على ان القرآن عين الرسالة قول الامام علي عليه السلام: «وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله نَبِيُّ الْهُدَى وَمَوْضِعُ التَّقْوَى وَرَسُولُ الرَّبِّ الْأَعْلَى جَاءَ بِالْحَقِ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ لِيُنْذِرَ بِالقرآن الْمُنِير وَالْبُرْهَانِ الْمُسْتَنِير فَصَدَعَ بِالْكِتَابِ الْمُبِين»[٧٣].

وفي موضع آخر يقول: «وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِه».

فظاهر النص أنَّ الدعوة والانذار كان بالقرآن، وان ما صدع به النبي من تعاليم هي من القرآن.

قال الامام علي عليه السلام: «أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاس أَجْمَعِينَ، رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، بِكِتَابٍ كَرِيمٍ قَدْ فَضَّلَهُ وَفَصَّلَهُ وَبَيَّنَهُ وَأَوْضَحَهُ وَأَعَزَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُ الْبَاطِلُ مِنْ

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. ضَرْبَ لِلنَّاسِ فِيهِ الْأَمْثَالَ، وَصَرَفَ فِيهِ الآيات لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ، أَحَلَّ فِيهِ الْحَلَالَ، وَحَرَّمَ فِيهِ الْحَرَامَ، وَشَرَعَ فِيهِ الدِّينَ لِعِبَادِهِ عُذْراً وَنُذْراً لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَيَكُونَ بَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ..»[٧٤].

وقد بين الامام الرضا عليه السلام هذه الامور بقوله: «.. هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَعُرْوَتُهُ الْوُثْقَى وَطَرِيقَتُهُ الْمُثْلَى الْمُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمُنْجِي مِنَ النَّارِ لَا يَخْلُقُ[٧٥] عَلَى الْأَزْمِنَةِ وَلَا يَغِثُّ[٧٦] عَلَى الْأَلْسِنَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ بَلْ جُعِلَ دَلِيلَ الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»[٧٧].

وفي رواية أخرى عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنِ الرِّضَا عَنْ أَبِيهِ عليهم السلام: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا عَبْدِاللهِ عليه السلام مَا بَالُ الْقُرْآنِ لَا يَزْدَادُ عَلَى النَّشْرِ وَالدَّرْسِ إِلَّا غَضَاضَةً؟ فَقَالَ عليه السلام: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٧٨].

لماذا اختير الكلام ان يكون معجزا؟

إنّ خصوصيّة اختيار الكلام ليكون سرّ إعجاز القرآن، يكمن في المقاربات الآتية:

أ- أبلغ المعجزات أثراً في مقام التصديق والتسليم هو ما شابه منها أرقى فنون العصر، وعجز أهل هذه الفنون وأربابها عن الإتيان بمثلها: رُوي أنّه سأل ابن السكّيت[٧٩] الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، فقال: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا واليد البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطبّ؟ وبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالكلام والخطب؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر،

فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات[٨٠]، واحتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم وإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه، ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم»[٨١].

ويُفهَم من هذه الرواية أنّ فلسفة تنوّع المعجزات واختيار إحداها لتكون معجزة لنبيّ من الأنبياء عليهم السلام يدور مدار الخاصّيّة الغالبة على أهل عصر مَن يُجري الله تعالى على يديه المعجزة، لتكون أبلغ في التأثير، وأظهر في التحدّي، وآكد في تصديق الدعوة.

ب- إنّ دوام التصديق بالدين في كلّ زمان ومكان رهن باستمرار معجزته على اختلاف الزمان والمكان، فلمّا كانت رسالة القرآن رسالة عالميّة وخاتمة إلى يوم القيامة، فلا بدّ من أن تكون معجزة هذه الرسالة عالميّة وخالدة - أيضاً - على اختلاف الزمان والمكان، ومن ثمَّ على اختلاف خصائص البيئات الاجتماعيّة الإنسانيّة. ولذا، كان الكلام، بما يشتمل عليه من خصائص لغويّة وصوتيّة ونظميّة ومعنايّة ومضمونيّة...، محلّاً للإعجاز.

ج- تقدّم أنّ نوع العناية بالتحدّي في قوله تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ**﴾[٨٢]، هو بكون القرآن متضمّناً لما يختصّ علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه. لذا كان القرآن من العلم المخصوص به تعالى.

المطلب الرابع عشر:

مكمن الاعجاز في القرآن الكريم عند أهل البيت:

تكاد تجتمع كلمة المسلمين على ان مكمن الاعجاز وعنصره هو الفصاحة والنظم، إذ عدَّ هذا الامر ركنا اساسا في اعجاز القرآن، فالمتصفح لكتب الاعجاز يجد انها تتوسع فيه بحثا وتنقيبا وتحقيقا، واعترف بذلك العدو قبل الصديق، فهذا الوليد بن المغير وهو من بلغاء العرب يقول كلمته المشهورة بعد سماعه القرآن: «وَاللهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَر»[٨٣].

وممن قال كلمته في القرآن من الاعداء عتبة بن ربيعة بعدما سمعه قال: «أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يامعشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[٨٤].

وذهب بعضهم الى أنَّ القرآن معجز بالفصاحة فقط.

وذهب الرماني(٣٨٦هـ) الى ان اعجازه يكمن في سبعة امور: ان لا يعارض مع وجود الدواعي وشدة الحاجة، وان يكون متحديا لكافة الناس، وان الناس مصروفة عن معارضته، وبلاغته، وأخبار الغيب الصادقة، وخروجه عن العادة، وقياسه بكل معجزة[٨٥].

وذهب بعض الى أنَّه معجز بالصرفة أي ان الله تعالى صرف الناس عن معارضة القرآن وهذا ما ذهب اليه النظام من شيوخ المعتزلة، ومن الامامية الشيخ

المفيد (٤١٣هـ)[٨٦]، وعلم الهدى السيد المرتضى(٤٣٦هـ)[٨٧].

اما مكامن الاعجاز عند اهل البيت عليهم السلام نجده على مستويات عدة منها:

ان مكامن الاعجاز هو الاخبار بالأمور الماضية والمستقبلة، فقد روي عَنْ سَمَاعَةَ بْن مِهْرَانَ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «إِنَّ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابَهُ وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ فِيهِ خَبَرُكُمْ وَخَبَرُ مَنْ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ وَخَبَرُ السَّمَاء وَالْأَرْض وَلَوْ أَتَاكُمْ مَنْ يُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ لَتَعَجَّبْتُمْ»[٨٨].

ومثلها ما روي عن ابي عبد الله عليه السلام: «إِنَّ فِي القرآن مَا مَضَى، وَمَا يَحْدُثُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَكَانَتْ فِيهِ أَسْمَاءُ الرِّجَالِ فَأُلْقِيَتْ وَإِنَّمَا الِاسْمُ الْوَاحِدُ فِي وُجُوهٍ لَا تُحْصَى تَعْرِفُ ذَلِكَ الْوُصَاةُ»[٨٩]؛ اذ نجد أنَّ الروايتين ذكرتا مستويين من الاعجاز الغيبي وهو الغيب الماضي والغيب المستقبل.

وفي رواية أخرى يذكر الامام ابو الحسن الاول عليه السلام - يَعْنِي مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام - ان مكمن الاعجاز أبعد مما يتصوره الانسان إذ يقول: «وَقَدْ وَرِثْنَا هَذَا القرآن فَفِيهِ مَا يُقَطَّعُ بِهِ الْجِبَالُ وَيُقَطَّعُ الْمَدَائِنُ بِهِ وَيُحْيَا بِهِ الْمَوْتَى وَنَحْنُ نَعْرِفُ الْمَاءَ تَحْتَ الْهَوَاء وَإِنَّ فِي كِتَابِ الله لَآيَاتٍ مَا يُرَادُ بِهَا أَمْرٌ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللهُ بِهِ مَعَ مَا فِيهِ»[٩٠].

أمّا في رواية الامام الرضا عليه السلام فإنها ذكرت النظم، ففي حديث ينقله مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: «ذَكَرَ الرِّضَا عليه السلام يَوْماً القرآن فَعَظَّمَ الْحُجَّةَ فِيهِ وَالْآيَةَ وَالْمُعْجِزَةَ فِي نَظْمِهِ»[٩١].

فنستطيع بعد هذه النصوص أن نقول: إنَّ الاعجاز له مستويات عدة، وانها لم تقصر على أمر معين ولكل نصيب، وهذا يحتاج تأمل وبعد نظر والتزام المنهج الحق حتى يستطيع الانسان ان يقرر تلك المستويات.

المطلب الخامس عشر:

انواع الاعجاز القرآني عند أهل البيت عليهم السلام:

من خلال تتبع الروايات الواردة عن اهل البيت نستطيع ان نبين ما هي انواع الاعجاز:

١. الاعجاز الغيبي: وهو ان القرآن الكريم أخبر بأمور غابت عن الحواس ولم يطلع عليها احد سواء أكانت ماضية أم مستقبليّة لم تقع بعد، وهي روايات كثيرة نذكر منها:

ما روي عَنْ سَمَاعَةَ بْن مِهْرَانَ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «إِنَّ الْعَزِيزَ الْجَبَّارَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابَهُ وَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ فِيهِ خَبَرُكُمْ وَخَبَرُ مَنْ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ وَخَبَرُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَوْ أَتَاكُمْ مَنْ يُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ لَتَعَجَّبْتُمْ»[٩٢]، اذ نجد ان الرواية ذكرت مستويين من الاعجاز الغيبي وهو الغيب الماضي والغيب المستقبل.

ومثلها ما روي عن ابي عبد الله عليه السلام: «إِنَّ فِي القرآن مَا مَضَى، وَمَا يَحْدُثُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَكَانَتْ فِيهِ أَسْمَاءُ الرِّجَالِ فَأُلْقِيَتْ وَإِنَّمَا الِاسْمُ الْوَاحِدُ فِي وُجُوهٍ لَا تُحْصَى تَعْرِفُ ذَلِكَ الْوُصَاةُ»[٩٣].

ومنها: ما روي عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى بْن أَعْيَنَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: قَدْ وَلَدَنِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وَأَنَا أَعْلَمُ كِتَابَ الله وَفِيهِ بَدْءُ الْخَلْقِ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَفِيهِ خَبَرُ السَّمَاءِ وَخَبَرُ الْأَرْضِ وَخَبَرُ الْجَنَّةِ وَخَبَرُ النَّارِ وَخَبَرُ مَا كَانَ وَخَبَرُ مَا هُوَ كَائِنٌ أَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفِّي إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ»[٩٤].

٢. الاعجاز في النظم جاء في حديث الامام الرضا عليه السلام: «فَعَظَّمَ الْحُجَّةَ فِيهِ وَالْآيَةَ وَالْمُعْجِزَةَ فِي نَظْمِهِ»[٩٥].

الخاتمة والنتائج:

من خلال ما تقدم والروايات التي جمعتها على عجالة نجد ان هناك مجموعة من الامور تجلت من هذه الوريقات ويمكن ذكرها على شكل نقاط وهي كالاتي:

١ -إنَّ اهل البيت عليهم السلام كانت لهم الريادة في تأسيس علم الاعجاز والوقوف على حقائقه وفلسفته.

٢ -إنَّ الاعجاز جاء وليد مجموعة من الامور من ضمنها الفتوحات والاشكاليات التي انعكست على القرآن الكريم.

٣ -يجب قراءة الاعجاز على نحو انه هداية وليس تحدي، وهذا ما وجدناه في الروايات وتركز عليه.

٤ -الانطلاق من الاعجاز لبناء منظومة معرفية نستطيع معها فهم القرآن فهما دقيقا قائما على الروايات التي وصلت الينا عن اهل البيت عليهم السلام.

المصادر والمراجع:

* خير ما نفتتح به القرآن الكريم

١ -ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون الطبعة: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.، الناشر: دار الفكر.

٢ -ابن هشام: عبد الملك الحميري: السيرة النبوية: تحقيق: تحقيق وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، سنة الطبع: ١٣٨٣ - ١٩٦٣ م، المطبعة: المدني - القاهرة، الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده - بمصر.

٣ -الاصفهاني: تفسير مفردات غريب القرآن ١: ٤٢.

٤ -الالوسي: روح المعاني١٦: ٢٨٥.

٥ -البرقي: احمد ابن محمد ابن خالد البرقي المحاسن: ت (٢٧٤هـ او ٢٨٠هـ) الناشر: دار الكتب الاسلامية، ايران- قم، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ.

٦ -التبريزي: الانوار الالهية:٢٠١.

٧ -الخرازي: محسن: بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية ١: ٢٤٣.

٨ -الخوئي: ابو القاسم: البيان في تفسير القرآن، ط٤-١٣٩٥ - ١٩٧٥ م، الناشر: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان:٣٣.

٩ -الراوندي: سعيد بن هبة الله، قطب الدين: الخرائج والجرائح:، ت ٥٧٣هـ الناشر: مؤسسة الامام المهدي عليه السلام،ايران-قم، الطبعة الاولى ١٤٠٩هـ

١٠ -الرماني: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي: النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م: ٧٥.

١١ -السيوطي: الاتقان في علوم القرآن.

١٢ -شبر: عبد الله: تفسير القرآن الكريم:٣.

١٣ -الشريف المرتضى: علي بن الحسين: سائل الشريف المرتضى: تحقيق: تقديم:

السيد أحمد الحسيني/ إعداد: السيد مهدي الرجائي، سنة الطبع: ١٤٠٥، المطبعة: مطبعة الخيام، الناشر: دار القرآن الكريم - قم.

١٤ -الصدوق: ابن بابويه، محمد بن علي: الخصال: ت ٣٨١هـ الناشر: جماعة المدرسين بقم، ايران- قم، الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ

١٥ -الصدوق: محمد بن علي: من لا يحضره الفقيه ط٢- ١٤١٣ هـ تحقيق/ مصحح: غفاري، علي أكبر، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ايران.

١٦ -الصدوق: محمد بن بابويه القمي: علل الشرائع. ط١- ١٣٨٥هـ تحقيق: محمد صادق بحر العلوم. طبع ونشر: المكتبة الحيدرية، النجف - العراق.

١٧ -الصدوق: محمد بن بابويه القمي: معاني الاخبار، ط١- ١٣٧٩هـ الناشر: مؤسسة النشر الاسلامي التاع لجماعة المدرسين، قم - ايران.

١٨ -الصدوق: محمد بن بابويه القمي: عيون أخبار الرضا عليه السلام تح: تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، ط١- ١٤٠٤هـ طبع ونشر: مطابع مؤسسة الأعلمي. بيروت - لبنان.

١٩ -الصدوق: محمد بن علي: معاني الأخبار، محقق/ مصحح: غفاري، علي أكبر، ط١-١٤٠٣ هـ الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ايران - قم.

٢٠ -الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ط١-١٩٩٧م، طبع ونشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت لبنان.

٢١ -الطوسي: نصير الدين: تجريد الاعتقاد:٢١٤.

٢٢ -العسكري: الامام الحسن بان علي: التفسير الامام العسكري عليه السلام:، (ت ٢٦٠هـ)، الناشر: مدرسة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجة الشريف، ايران- قم، الطبعة الاولى (١٤٠٩هـ)

٢٣ -العياشي: محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، (ت ٣٢٠هـ) الناشر: المطبعة العلمية ايران طهران الطبعة الاولى ١٤٢٢هـ

٢٤ -فرات الكوفي: تفسير فرات الكوفي: المحقق/ مصحح: كاظم، محمد، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر في وزارة الإرشاد الإسلامي، مكان الطبع: طهران، تاريخ الطبع: ١٤١٠ هـ الطبعة: الأولى.

٢٥ -الفراهيدي: الخليل بن احمد: كتاب العين ١: ٢١٥.

٢٦ -القمي: علي بن ابراهيم: تفسير القمي، (ت القرن الثالث)، الناشر: دار الكتاب، ايران-قم، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).

٢٧ -الكليني: محمد بن يعقوب: الكافي، ط٥- ١٤٠٤هـ تح: علي أكبر الغفاري، مطبعة: حيدري، نشر: دار الكتب الاسلامية، طهران - ايران.

٢٨ -المجلسي: محمد باقر: بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، الناشر: دار احياء التراث العربي، لبنان-بيرت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ

٢٩ -المفيد: محمد بن محمد النعمان: إعلام الورى بأعلام الهدى (ط - القديمة)؛ النص؛ ص٤٢.

٣٠ -المفيد: محمد بن محمد بن النعمان: النكت الاعتقادية ورسائل أخرى، ط٢- ١٤١٤ هجرية - ١٩٩٣ميلادية، تحقيق: رضا المختاري، طباعة، نشر، توزيع: دار المفيد بيروت-لبنان.

٣١ -المفيد: محمد بن محمد بن النعمان: أوائل المقالات: تحقيق: الشيخ إبراهيم الأنصاري، ط٢- ١٤١٤ - ١٩٩٣ م، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

الهوامش:

(١)- كتاب العين ١: ٢١٥.

(٢)- معجم مقاييس اللغة٤: ٢٣٢.

(٣)- النكت الاعتقادية: ٣٥.

(٤)- تجريد الاعتقاد:٢١٤.

(٥)- الاتقان في علوم القرآن ٢: ٣١١.

(٦)- تفسير القرآن الكريم: ٣.

(٧)- روح المعاني١٦: ٢٨٥.

(٨)- الميزان في تفسير القرآن ١: ٧٣.

(٩)- الخوئي: ابو القاسم: البيان في تفسير القرآن، ط٤-١٣٩٥ - ١٩٧٥ م، الناشر: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان:٣٣.

(١٠)- البرقي: المحاسن؛ ج١؛ ص٢٦٨.

(١١)- تفسير الامام العسكري ٥٠٥.

(١٢)- علل الشرائع؛ ج١؛ ص١٢٢.

(١٣)- عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج٢؛ ص١٣٠.

(١٤)- التبريزي: الانوار الالهية:٢٠١.

(١٥)- علل الشرائع؛ ج١؛ ص١٢٢.

(١٦)- الخصال؛ ج٢؛ ص٤٢٨.

(١٧)- سورة الانبياء/٥.

(١٨)- علل الشرائع؛ ج١؛ ص١٢٢.

(١٩)- علل الشرائع؛ ج١؛ ص١٢٠.

(٢٠)- البيان في تفسير القرآن: ٣٣.

(٢١)- الخرائج و الجرائح؛ ج١؛ ص١١١.

(٢٢)- الحلي: الحسن بن يوسف: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٤٨١.

(٢٣)- التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ ص١٣ح١.

(٢٤)- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج٢؛ ص٦٠٣ح ١.

(٢٥)- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج٢؛ ص٦٥٨ح ٤.

(٢٦)- علل الشرائع؛ ج١؛ ص١٢٢.

(٢٧)- هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقيّ الأهوازيّ الشيعيّ، أحد أئمّة اللغة والأدب، ذكره كثير من المؤرّخين وأثنوا عليه، وكان ثقةً جليلاً من عظماء الشيعة، ويُعدّ من خواصّ الإمامين التقيّين عليهما السلام وكان حامل لواء علم العربيّة والأدب والشعر واللغة والنحو، له تصانيف كثيرة مفيدة، منها: كتاب تهذيب الألفاظ، وكتاب إصلاح المنطق.

(٢٨)- الآفات الواردة على بعض الأعضاء، فتمنعها عن الحركة، كالفالج، واللقوة. ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.

(٢٩)- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، كتاب العقل والجهل، ح٢٠، ص٢٤.

(٣٠)- سورة البقرة/٩٠.

(٣١)- سورة البقرة/ ٢١٣.

(٣٢)- سورة النساء/ ٥٤.

(٣٣)- التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ ص٤٠٢.

(٣٤)- التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام؛ ص٥٠٦

(٣٥)- سورة النحل/٨٩.

(٣٦)- سورة النساء/ ٨٢

(٣٧)- علل الشرائع؛ ج١؛ ص١٢٢.

(٣٨)- سورة النجم/ ٣-٤.

(٣٩)- سورة الحاقّة/٤٠-٤٧.

(٤٠)- سورة العلق/ ١.

(٤١)- سورة النحل/ ٤٤.

(٤٢)- سورة القيامة/ ١٦-١٩.

(٤٣)- سورة يونس/ ١٦.

(٤٤)- سورة العنكبوت/ ٤٨.

(٤٥)- سورة الإسراء/ ١٠٦.

(٤٦)- الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج١، ص٦٨. (بتصرّف)

(٤٧)- سورة الإسراء/ ٨٨.

(٤٨)- سورة يونس/ ٣٨.

(٤٩)- سورة هود/ ١٣.

(٥٠)- سورة الطور/ ٣٣-٣٤.

(٥١)- سورة البقرة/ ٢٣-٢٤.

(٥٢)- سورة هود/ ٥.

(٥٣)- الخرازي: محسن: بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية ١: ٢٤٣.

(٥٤)- الاتقان في علوم القرآن٢: ٣١١.

(٥٥)- تفسير الراغب١: ٤٢.

(٥٦)- تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ٢٩١.

(٥٧)- تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام:٣١٨.

(٥٨)- تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ٤٠٢

(٥٩)- سورة البقرة/٩٢.

(٦٠)- تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص٤٠٨.

(٦١)- كافي (ط - دار الحديث)؛ ج١٥؛ ص٤١٥.

(٦٢)- من لا يحضره الفقيه؛ ج٣؛ ص٥٦٧.

(٦٣)- الصحيفة السجادية؛ ص١٧٤.

(٦٤)- الخرائج و الجرائح؛ ج١؛ ص١١١.

(٦٥)- تفسير فرات الكوفي؛ ص١٣٨.

(٦٦)- المحاسن؛ ج١؛ ص٢٨٩.

(٦٧)- المحاسن؛ ج١؛ ص٢٦٩.

(٦٨)- عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج٢؛ ص١٢١.

(٦٩)- تفسير القمي؛ ج٢؛ ص٢٦٦.

(٧٠)- خلق الثوب: بلى.

(٧١)- غث حديث القوم: ردؤ وفسد.

(٧٢)- عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج٢؛ ص١٣٠.

(٧٣)- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج٨؛ ص٣٦٠.

(٧٤)- الكافي (ط - دار الحديث)؛ ج١٥؛ ص٤١٥.

(٧٥)- خلق الثوب: بلى.

(٧٦)- غث حديث القوم: ردؤ و فسد.

(٧٧)- عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج٢؛ ص١٣٠.

(٧٨)- بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج٨٩؛ ص: ١٥.

(٧٩)- هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقيّ الأهوازيّ الشيعيّ، أحد أئمّة اللغة والأدب، ذكره كثير من المؤرّخين وأثنوا عليه، وكان ثقةً جليلاً من عظماء الشيعة، ويُعدّ من خواصّ الإمامين التقيّين عليهما السلام وكان حامل لواء علم العربيّة والأدب والشعر واللغة والنحو، له تصانيف كثيرة مفيدة، منها: كتاب تهذيب الألفاظ، وكتاب إصلاح المنطق.

(٨٠)- الآفات الواردة على بعض الأعضاء، فتمنعها عن الحركة، كالفالج، واللقوة. ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.

(٨١)- الكلينيّ، الكافي، م.س، ج١، كتاب العقل والجهل، ح٢٠، ص٢٤.

(٨٢)- سورة هود/١٤.

(٨٣)- إعلام الورى بأعلام الهدى (ط - القديمة)؛ النص؛ ص٤٢.

(٨٤)- ابن هشام: عبد الملك الحميري: السيرة النبوية: تحقيق: تحقيق وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، سنة الطبع: ١٣٨٣ - ١٩٦٣م، المطبعة: المدني - القاهرة، الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده - بمصر١: ١٩١.

(٨٥)- علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي: النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م: ٧٥.

(٨٦)- المفيد: محمد بن محمد النعمان: اوائل المقالات: ٦٣.

(٨٧)- الشريف المرتضى: علي بن الحسين: سائل الشريف المرتضى: تحقيق: تقديم: السيد أحمد الحسيني / إعداد: السيد مهدي الرجائي، سنة الطبع: ١٤٠٥، المطبعة: مطبعة الخيام ، الناشر: دار القرآن الكريم - قم٢: ٣٢٦.

(٨٨)- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج٢؛ ص٥٩٩.

(٨٩)- بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليه وآله؛ ج١؛ ص١٩٥.

(٩٠)- بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليه وآله؛ ج١؛ ص٤٧.

(٩١)- عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج٢؛ ص١٣٠.

(٩٢)- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج٢؛ ص٥٩٩.

(٩٣)- بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليه وآله؛ ج١؛ ص١٩٥.

(٩٤)- الكافي (ط - الإسلامية)؛ ج١؛ ص٦١.

(٩٥)- عيون أخبار الرضا عليه السلام؛ ج٢؛ ص١٣٠.

أ.م. د. وفاء عباس فياض
جامعة كربلاء/كلية العلوم الإسلامية

ملخص البحث:

تعد ظاهرة الترادف من ظواهر العربية البارزة وسمة باقية من سماتها، وتعرف بأنها ما اختلف لفظه واتفق معناه، وقد اختلف العلماء فيما بينهم في وقوعه في العربية، وكذلك اختلفوا في وقوعه في القرآن الكريم، فكان هنالك فريق مؤيد لوقوعه في القرآن الكريم وآخر معارض لذلك الوقوع؛ ولحسم ذلك ارتأينا أن نطرق هذا الموضوع عبر دراسة بعض الألفاظ التي وردت مترادفة -على رأي من يقول إنها مترادفة- في ضوء مبدأ عدم الافتراق بين كلام الله عزّ وجلّ وكلام العترة الطاهرة عليهم السلام.

وقد اخترنا أن تكون عينة البحث ألفاظا مهمة ذهب الكثيرون إلى عدّها من المترادفات وهي ألفاظ (القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر)!!، فهل هي مترادفة حقّا؟ وهل أن هذه الألفاظ جميعها بمعنى ومستوى واحد من الدلالة أم لا؟ وكيف استعملت هذه الألفاظ في كلام أهل البيت عليهم السلام؟.

كل هذا سنوضحه في محاور أربعة للبحث، سيكون المحور الأول في دلالة لفظة (القرآن) في ضوء عدم الافتراق بوصفها اللفظة الرئيسة في هذه المجموعة، كما أنها اللفظة الأكثر ثباتا، فهي ذات مدلول محدد ومرجع ثابت، ويتناول المحور الثاني دلالة لفظة (الكتاب) في ضوء عدم الافتراق، ويتناول المحور الثالث دلالة لفظة (الفرقان) في ضوء عدم الافتراق، وسيكون المحور الرابع في دلالة لفظة (الذكر) في ضوء عدم الافتراق، وهذه المباحث تسبقها مقدمة وتمهيد يكون مدخلا نظريا لمبدأ عدم الافتراق؛ كونه منهجا لفهم القرآن الكريم، ويُشفع البحث بخاتمة تعرض أهم النتائج، وقائمة تتضمن ذكر روافد البحث.

المقدمة:

الحمد لله كما يستحق حمده، والحمد لله مُتواترا مُتَّسقا ومُتواليا مُستوسِقا، وصلواته على رسوله وعلى آله أبدا وسلامه دائما سرمدا.

أما بعد: فلقد لفتت انتباهي أثناء تدريسي لجملة من المواد اللغوية والنحوية القرآنية مسألة في غاية الأهمية، وقد بُحثت من قبل العلماء الأجلاء وأدلوا بدلوهم فيها، ألا وهي مسألة الألفاظ المترادفة التي اختلفوا فيما بينهم في وقوعها في العربية؛ وكذلك اختلفوا في وقوعها في القرآن الكريم، فكان هنالك فريق مؤيد لهذا الوقوع وآخر معارض لذلك؛ ولحسم ذلك ارتأينا أن نطرق هذا الموضوع عبر دراسة بعض الألفاظ التي وردت مترادفة – على رأي من يقول إنها مترادفة – في ضوء مبدأ عدم الافتراق بين كلام الله عزّوجلّ وكلام العترة الطاهرة عليهم السلام.

وعليه ستكون عينة البحث ألفاظا مهمة ذهب الكثيرون إلى عدّها من المترادفات وهي ألفاظ (القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر)!!، فهل هي مترادفة حقّا؟ وهل أن هذه الألفاظ جميعها بمعنى ومستوى واحد من الدلالة أم لا؟ وكيف استعملت هذه الألفاظ في كلام أهل البيت عليهم السلام؟.

كل هذا سنوضحه في محاور أربعة للبحث، سيكون المحور الأول في دلالة لفظة (القرآن) في ضوء عدم الافتراق بوصفها اللفظة الرئيسة في هذه المجموعة، كما أنها اللفظة الأكثر ثباتا، فهي ذات مدلول محدد ومرجع ثابت، ويتناول المحور الثاني دلالة لفظة (الكتاب) في ضوء عدم الافتراق، ويتناول المحور الثالث دلالة لفظة (الفرقان) في ضوء عدم الافتراق، وسيكون المحور الرابع في دلالة لفظة (الذكر) في ضوء عدم الافتراق، وهذه المباحث تسبقها مقدمة وتمهيد يكون

مدخلا نظريا لمبدأ عدم الافتراق؛ كونه منهجا لفهم القرآن الكريم، ويُشفع البحث بخاتمة تعرض أهم النتائج، وقائمة تتضمن ذكر روافد البحث.

أما المصادر التي سنستعين بها وسنستسقي منها روافد البحث فهي المعجمات العربية، والتفاسير العامة، وكتب معاني القرآن وإعرابه، وكتب الفروق اللغوية، فضلا عن ذلك كله كتب الأحاديث للشيعة الإمامية.

التمهيد:

مدخل نظري في منهج مبدأ عدم الافتراق.

دأب كثير من العلماء سواء كانوا مفسرين أم لغويين في بيان دلالات الألفاظ القرآنية على ما يظهر فيها من دلالة ظاهرة عبر وضعها في سياقها التي ترد فيه، أو بالاستعانة بمدلولها اللغوي (المعجمي) أحيانا أخرى، وهنالك منحى آخر لدى بعض العلماء من السنة والشيعة الذين يستعينون بكلام أهل البيت عليهم السلام فيما يتعلق بتوضيح الآيات الخاصة بالعقائد والتشريعات والأحكام والأخلاق، «ولم ينل الجانب اللغوي وتحديداً المستوى الدلالي الاهتمام اللازم؛ بل كان مختفيا في طيات بحوثهم واستدلالاتهم»[1]، فلم يوظفوا كلام أهل البيت عليهم السلام وأحاديثهم إلا فيما ذكرنا سابقا.

ووفق المبدأ الذي سننطلق منه في توضيح الدلالة القرآنية لأية لفظة وهو

مبدأ (عدم الافتراق)[٢] المستند إلى الحديث المشهور والمعروف بـ(حديث الثقلين): «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَيْنِ: كِتَابُ اللهِ، حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَوْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[٣]، سيكون الاستناد إلى كلام أهل البيت عليهم السلام في ضوء هذا الحديث؛ فهم عدل القرآن وهم المفصحون عن دلالة آياته وتفصيلات أحكامه وعقائده، وعندهم معرفة أسراره وجوانب أعجازه، لا يسبقهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله سابق. وسيكون الجانب اللغويّ وتحديدا (دلالة الألفاظ) من المستويات التي لن يفترق أهل البيت عليهم السلام عن القرآن الكريم في الإبقاء على دلالتها التي استعملت بها تلك الألفاظ في القرآن عند استعمالهم لها في أحاديثهم[٤].

إن هذا المبدأ يقوم على خاصيّة منهجيّة هي غاية في الأهمية، تتمثّل في فرضيتين منهجيتين هما من أسس المبدأ[٥]:

الفرضية الأولى: يستبطن هذا المبدأ وحدة الدلالة القرآنية للفظة، بمعنى أن لكل لفظة قرآنية دلالة واحدة، ولا يمكن أن تدلّ لفظة واحدة على معنيين في آن واحد. ويأتي هذا الاستبطان اللازم من أنه لو لم يكن هذا فكيف يعلم حقيقة ما يدلّ عليه الحديث من أنّ أهل البيت لن يفترقوا عن القرآن؟ فالقول بالتعدد الدلالي للفظة يؤدي إلى تغييب هذا المبدأ. ومحصلة ذلك تتعارض والحديث الشريف.

ومصداق ذلك ما قررته الآيات القرآنية في أكثر من موضع، ومن أبرز الآيات في هذا المجال قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾(النساء/٨٢)، فنفي الاختلاف عن القرآن لا يقتصر على الجوانب التشريعية والكونية والأخلاقية وغيرها مما تعارف

عند المهتمين، بل يتعدى ذلك إلى نفي أن تكون اللفظة الواحدة في القرآن أتت بدلالتين أو أكثر؛ فهو غير مقبول في كتاب الله، والاختلاف من شأن غيره من الكتب.

الفرضية الثانية: إنّ أهل البيت عليهم السلام يستعملون الألفاظ القرآنية بتلك الدلالة التي استعملها القرآن للفظة، وهي دلالة تلازم تلك اللفظة في سائر كلامهم سواء أكان متعلقا بالقرآن مباشرة أم كان غيره مما هو من كلامهم مع الناس أو مناجاتهم ربّهم عزّ وجلّ. وهذا يعني أنّ كل ما ورثناه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من ثروة لغوية ستكون مصدرًا لفهم الألفاظ القرآنية، في كل مواضع استعمال اللفظة القرآنية.

وعودا على ذي بدء فقد ذكرت في مقدمة هذا البحث أن جملة من العلماء سواء كانوا مفسرين أم كانوا لغويين يذكرون أن كلام الله المنزّل على نبيه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله له ألفاظ مترادفة منها (القرآن والكتاب والفرقان والذكر)، وكلها تأتي بمعنى واحد: «قال أبو إسحاق الزجاج: يسمى كلام الله الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وآله كتابا، وقرآنا، وفرقانا، وذكرا»[٦]، وأعاد ذكر هذا القول ابن منظور (ت٧١١هـ) في لسان العرب[٧]. ولكننا نرفض هذه المسألة جملة وتفصيلا؛ لأننا نؤمن أن لكل لفظة دلالتها الخاصة بها، والعربية غير عاجزة عن ذلك وكذلك القرآن الكريم؛ لأننا نؤمن بواحدية القرآن[٨]، وعليه فإننا نرى أن دراسة أية لفظة من ألفاظ القرآن الكريم لا يمكن فهمها بمعزل عن سياقها الذي وضعت فيه، ولا تتم معرفة وتوضيح دلالتها القرآنية إلا إذا أتينا على جميع الموارد التي وضعت فيها في القرآن الكريم أيضا، وهذا منهج علمي واضح ومتبع في دراسة أي من الألفاظ القرآنية، وهو أسلوب مهم وبيّن لمعرفة الدلالات القرآنية للألفاظ.

وإذا ما حاولنا تطبيق منهج عدم

الافتراق في ضوء كلام الخالق عزّ وجل وكلام أهل البيت عليهم السلام بما فيه كلام النبي الأعظم صلى الله عليه وآله على جميع ألفاظ القرآن الكريم بما في ذلك الألفاظ المترادفة التي حددناها موضع الدراسة سنكون قد حققنا الهدف الأسمى والأمثل من تطبيق هذا المبدأ، وهو ما سنعرضه في الصفحات التالية عبر المحاور القادمة.

المحور الأول:

دلالة لفظة (القرآن) في ضوء عدم الافتراق.

في ضوء ما تقدم من المدخل النظري سنحاول الوقوف عند لفظة (القرآن) تحديدا، وكيف استعملت في الدلالة القرآنية وكلام أهل البيت عليهم السلام؟ بعد الوقوف على دلالتها اللغوية.

فمن الملفت للنظر أن أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) جعل جذر (قرأ) في كتاب القاف باب القاف والراء وَمَا يَثْلُثُهُمَا في مادة (قَرِيَ)، وكأنه أراد أن ينظر إلى الحروف المعتلة الثلاثة نظرة واحدة إذ يقول فيه: «قَرِيَ الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى جُمَعٍ وَاجْتِمَاعٍ. مِنْ ذَلِكَ الْقَرْيَةُ، سُمِّيَتْ قَرْيَةً لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا. وَيَقُولُونَ: قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْمِقْرَاةِ: جَمَعْتُهُ، وَذَلِكَ الْمَاءُ الْمَجْمُوعُ قَرِيٌّ. وَجَمْعُ الْقَرْيَةِ قُرًى، جَاءَتْ عَلَى كُسْوَةٍ وَكُسًى. وَالْمِقْرَاةُ: الْجَفْنَةُ، سُمِّيَتْ لِاجْتِمَاعِ الضَّيْفِ عَلَيْهَا، أَوْ لِمَا جُمِعَ فِيهَا مِنْ طَعَامٍ... وَإِذَا هُمِزَ هَذَا الْبَابُ كَانَ هُوَ وَالْأَوَّلُ سَوَاءً. يَقُولُونَ: مَا قَرَأَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ سَلًى، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهَا مَا حَمَلَتْ قَطُّ. قَالَ:

ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ
هَجَّانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا

قَالُوا: وَمِنْهُ الْقُرْآنُ، كَأَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمْعِهِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»[٩]، فقوله: (وَإِذَا هُمِزَ هَذَا الْبَابُ كَانَ هُوَ وَالْأَوَّلُ سَوَاءً) يعني أن تحقيق الهمزة وتسهيلها سواء عنده، لا كما جعلها الآخرون في جذر (قرأ)

بالهمزة فقط، وعليه جاء «قرأ: القرآن: التنزيل العزيز وانما قُدِّمَ على ما هو أبْسَطُ منه لشَرفه قَرَأَهُ يَقْرَؤُهُ ويَقْرُؤُهُ»[١٠]، وزاد عليه الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) بقوله: «القُرْآن هو التنزيل العزيزُ أي المَقروءُ المكتوب في المَصاحف وإنما قُدِّم على ما هو أبْسَطُ منه لشرفه»[١١].

ودلالته اللغوية هي الجمع، أو أنه أُنزل مجموعا، يقول ابن منظور: «ومعنى القُرآن معنى الجمع وسمي قُرْآناً؛ لأَنه يجمع السُّوَر فيَضُمُّها، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ علينا جَمْعه وقُرآنه**﴾ أي جَمْعَه وقِراءَته ﴿**فَإِذا قَرَأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ أي قِراءَتَهُ... وقَرَأْتُ الشيءَ قُرْآناً جَمَعْتُه وضَمَمْتُ بعضَه إِلى بعض»[١٢].

ويجوز أن يكون «معنى قرأت القرآن لفظت به مجموعا أي ألقيته، وأخبرني محمد بن يعقوب الأصم، عن محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم أن الشافعي أخبره أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين. وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولكنه اسم لكتاب الله، مثل التوراة والإنجيل»[١٣]، وزيد عليه بقوله: «ويَهمز قرأت ولا يَهمز القرانَ كما تقول إذا قَرَأْتُ القُرانَ»[١٤].

وذكر أن «قلب الهمزة على هذا الحد، لا يجيزه سيبويه إلا في الشعر ويجيزه غيره فهو على قول من أجاز ذلك. وممن أجاز ذلك أبو زيد. وحكي عنه أنه قال لسيبويه: سمعت قربت واخطيت قال فكيف تقول في المضارع قلت: اقرأ فقال حسبك أو نحو هذا. قال أبو علي يريد سيبويه أن قريت مع اقرأ لا ينبغي، لأن قريت اقرأ على الهمز وقريت على القلب، فلا يجوز أن تغير بعض الأمثلة دون بعض. فدل على أن القائل لذلك غير فصيح، فإنه غلط في لغته»[١٥].

مما تقدم يتضح أن لفظة القرآن في الدلالة اللغوية تعني الجمع وضم بعضه إلى بعض، أو هو اللفظ المجموع بمعنى الإلقاء، وفي كلا الحالتين لا يبعد عن

كونه قرآنا؛ لأن «الأَصل في هذه اللفظة الجمع وكلُّ شيءٍ جَمَعْتَه فقد قَرَأْتَه وسمي القرآنَ لأنه جَمَعَ القِصَصَ والأَمرَ والنهيَ والوَعْدَ والوَعِيدَ والآياتِ والسورَ بعضَها إلى بعضٍ»[١٦]. فالدلالة المعجمية لمادة (ق. ر. أ) أصل صحيح دال على الجمع والاجتماع والضم، وهي معان تفيد القوة[١٧]، وترد سائر المشتقات إلى هذا الأصل باطّراد. ولا ينقض هذا الأصل استعمال مادة قرأ في القراءة أو الإلقاء، فالقراءة تؤول إلى الجمع، لأن المراد بها ضم الحروف والكلمات في الترتيل، والتلفظ بها وإلقاؤها مجموعة. وكلمة (قرآن) وإن صارت علماً مختصاً بكتاب الله، فإنها تتضمن هذه المعاني لاشتقاقها من مادة قرأ[١٨].

وجاء في الحديث الشريف: «أكثرُ مُنافِقي أُمَّتِي قُرّاؤُها»[١٩]، بمعنى «أنهم يَحْفَظونَ القُرآنَ نَفْياً للتُّهمَة عن أنفسهم وهم مُعْتَقِدون تَضْيِيعَه وكان المنافقون في عَصْر النبيﷺ بهذه الصفة»[٢٠]، ويتضح فيما ورد أن القرآن هو الكلام المنزل على نبيه فقط، وهو - أي القرآن - كأي كتاب سماوي منزل من قبل الله عزّوجلّ على أنبيائه، ولا تشاركه أية لفظة من الألفاظ التي ذكرها العلماء؛ لأنها جاءت مقرونة بالقراءة؛ ولذا أمرنا بجملة من الآداب والسلوكيات التي ينبغي مراعاتها عند قراءته فضلا عن التمسك بآياته قولا وعملا.

وبناءً على ما سبق فإن المتأمل في الآيات القرآنية يجد أن لفظة (الْقُرْآنِ) جاءت معرفة بالألف واللام، ووردت في سياقات مختلفة قاربت (٤٣) موردا، منها (١٤) موضعا جاء مقترنا باسم الإشارة هذا فقال: (هَذَا الْقُرْآنُ)، وموضع واحد مجرور بالباء فقال: (بِهَذَا الْقُرْآنِ)، ومرة واحدة أيضا باللام فقال: (لِهَذَا الْقُرْآنِ)، ومرة واحدة جاءت مضافة إلى آيات فقال: (آيَاتُ الْقُرْآنِ). وبطبيعة الحال لا نستطيع أن نأتي عليها جميها في هذا الموضع، ولكننا سنشير إلى بعض

من تلك الموارد؛ للوقوف على الدلالة القرآنية بعد أن علمنا الدلالة اللغوية لهذه اللفظة، وكيف جاءت موافقة ومتفقة مع كلام أهل البيت عليهم السلام.

فأول آية مباركة تطالعنا لهذه اللفظة قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾(البقرة/١٨٥)، ففيها إشارة واضحة على أن هذا القرآن نزل في وقت معلوم قد حددته الآية بشهر رمضان، وهو بذلك لا يخالف الدلالة اللغوية التي سبقت الإشارة إليها من أنه نزل مجموعا في هذا الشهر المبارك. في حين دلت الآية المباركة: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾(الفرقان/٣٢) على أن القرآن الكريم لم ينزل كلّه في وقت واحد بل نزل متفرّقا، وكأن الذين كفروا أرادوا أن يكون لهم من ذلك مطعن على القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله، فلا مانع أن يكون متفرقا في مدة هذا الشهر المبارك، ولا سيما أنّ هذا الشهر عرف بشهر القرآن ما يلمح إلى هيمنته الزمنية على هذا الشهر، ثم أن قولهم (جملة واحدة) يحتمل أنّهم أرادوا أن يكون القرآن قسما واحداً لا أقسام فيه من الآيات والسور، وبيّن الدكتور حسن الأسدي أن ذيل الآية يوكّد هذا المعنى فقوله: ﴿**وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾، إذ إن «الرَّتَلُ حُسْن تَناسُق الشيء... وكلامٌ رَتَل ورَتِلٌ أي مُرَتَّلٌ حسَنٌ على تؤدة ورَتَّلَ الكلامَ أحسن تأْليفه وأَبانَه وتمَهَّلَ فيه»[٢١]، فهو حسن التقسيم والتنظيم، وعلى هذا فالآية ليست بصدد بيان أن القرآن أنزل متفرقا في عدة سنوات[٢٢].

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن حث الله عزَّ وجل على تدبر ما في هذا القرآن ينسجم مع تكامل القرآن الكريم وصدوره عن الكامل المطلق، قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا**

كَثِيرًا﴾(النساء/٨٢)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد/٢٤)، فالآيتان تشيران إلى أبرز الخصائص النصيّة التي يمتاز بها القرآن الكريم، وهي تظافر أجزائه (ألفاظه وآياته) لتأكيد ترابطها الدلاليّ، وتأكيد ما اتّسم به القرآن من الوحدة البيانية[٢٣]. ودليل ذلك أنه لم يكتف ربّ العزّة بالحث على تدبر آياته، بل أكد أن الذي أوجبه عليك يا محمدﷺ لرادك إلى معاد، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(القصص/٨٥)، إن (فرض عليك) بمعنى أوجبه عليك لا كما ذهب إليه بعض المفسرين من أنه أنزله عليك[٢٤]؛ لأن «فرَضْت الشَّيْءَ أفْرضه فَرْضاً وفَرَّضْتُه لِلتَّكْثِير: أَوْجَبْتُه. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾...والفَرْضُ: السُّنةُ، فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِﷺ، أي سَنَّ، وَقِيلَ: فَرَضَ رسولُ اللَّهِﷺ، أي أَوْجَبَ وُجُوباً لَازِمًا، قَالَ: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ.

والفَرْضُ: مَا أَوْجَبه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّ لَهُ مَعالِمَ وَحُدُوداً. وفرَض اللَّهُ عَلَيْنَا كَذَا وَكَذَا وافْتَرَضَ أي أَوْجَب. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَ﴾[٢٥]، أي أَوْجَبه عَلَى نَفْسِهِ بإحرامه»[٢٦].

وقد أكد الزمخشري ذلك بقوله: «فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه، يعني: أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثوابا لا يحيط به الوصف. ولرادُك بعد الموت إلى مَعادٍ أي معاد ليس لغيرك من البشر»[٢٧].

وجاء التأكيد في القرآن على وضع ضوابط وأصول لقراءته؛ كونه ليس له مثيل كغيره من الكتب الأخرى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف/٢٠٤)، وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل/٩٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (الإسراء/٤٥)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (الانشقاق/٢١)، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل/٢٠)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء/٤٦). زيادة على جملة من الآيات الأخرى التي جاء بها اللفظ صريحا بالقرآن، وجميها تعني هذا الكتاب المنزل على النبي محمدﷺ، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾(طه/٢)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر/٩١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل/٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر/١٧) أربع مرات، وقوله تعالى:﴿الرَّحْمَنُ*عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن/١-٢)، وقوله تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل/٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الإنسان/٢٣).

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم سيرى بوضوح الهيأة التدوينية للقرآن منذ أول أمره، ولولا هذا الكيان المدوّن الذي كتب به القرآن الكريم لما أمكن أن يشار إليه بعنصرين من عناصر التعيين والتحديد وهما (أداة التعريف) واسم الإشارة (هذا) اللذان جاءا في تركيب واحد في ستة عشر موردا في القرآن مع ملاحظة أن اسم الإشارة ودخول (أل) التعريف لا يدع مجالا للقول بغير العهدية الخالصة للقرآن الكريم، ومن هذا العهد نرى رجاحة الهيأة التدوينية التي نزل بها القرآن الكريم وتم تداوله

بها، وبها يتحدد كيانه وينضبط بين دفتيه[٢٨].

والآيات نذكرها بحسب ورودها في القرآن الكريم.

١ -قوله تعالى:﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام/١٩).

٢ -قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس/٣٧).

٣ -قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف/٣).

٤ -قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء/٩).

٥ -قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء/٤١).

٦ -قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء/٨٨).

٧ -قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء/٨٩).

٨ -قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف/٥٤).

٩ -قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان/٣٠).

١٠ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل/٧٦).

١١ -قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (الروم/٥٨).

١٢ -قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ/٣١).

١٣ -قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ* قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر/٢٧-٢٨).

١٤ -قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت/٢٦).

١٥ -قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف/٣١).

١٦ -قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر/٢١).

ويعضد ما سبق ذكره استعمال لفظة القرآن في أربعة وثلاثين موردا آخر غير ما مر مما يبعد احتمال كون إطلاقه على آيات معدودة، أو متفرقة بل استعماله هذا يفيد بأن القرآن هو بهيأته المحددة.

وقد فرق أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) بين القرآن والفرقان بقوله: «إن القرآن يفيد جمع السور وضم بعضها إلى بعض، والفرقان يفيد أنه يفرق بين الحق والباطل والمؤمن والكافر»[٢٩].

وفي ضوء مبدأ عدم الافتراق نجد لأئمة أهل البيت عليهم السلام وقفة طويلة عند هذه اللفظة؛ ولكن لضيق المقام سوف

أذكر أهم ما جاء عنهم عليهم السلام؛ لأنهم سراج واحد مع القرآن، ولعل من أهم الإشارات ما ورد عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله حين وصف هذا القرآن بقوله: «إن هذا القرآن هو النور المبين، والحبل المتين، والعروة الوثقى، والدرجة العليا، والشفاء الأشفى، والفضيلة الكبرى، والسعادة العظمى»[٣٠].

١٧ ـ ووصف الإمام علي عليه السلام هذا القرآن بقوله: «وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ وَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَمُ»[٣١].

وفي موضع آخر يعرف الإمام علي عليه السلام القرآن بقوله: «هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ»[٣٢]، وسئل الإمام علي عليه السلام ما القرآن؟ فقال: «جعله الله نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يقل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهدم (أو لا تهزم) أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأدوية الحق وغيصانه، وعيون لا ينضبها المانحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء»[٣٣].

ولقد أشار أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) إلى ما ذهبنا إليه بنقله رواية عن الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «وروى ابن سنان عمن ذكره قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيء واحد، أم شيئان؟ فقال عليه السلام:

القرآن جملة الكتاب، والفرقان: المحكم الواجب العمل به. وأقول: كفى بالحديث فارقا، ولعمري لا يفرق بين القرآن والفرقان إلا من نزل في نبيهم القرآن، وعرفوا ظاهره وخوافيه، وأهل البيت أعلم بما فيه! »[٣٤]. والنص فيه دلالة واضحة وشهادة بيّنة من أبي هلال (اللغوي المعروف) على مبدأ عدم افتراق كلام العترة الطاهرة مع النص القرآني المبارك فيما يتعلق بلفظة (القرآن)، كيف لا يكون ذلك وهم حفظته وحملته والعاملين به؟.

ومن ذلك ما روي عن الشيخ الكليني في بَابُ أَنَّهُ لَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ كُلَّهُ إِلَّا الْأَئِمَّةُ عليهم السلام وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عِلْمَهُ كُلَّهُ إذ يروي عن «مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي الْمِقْدَامِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: مَا ادَّعَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ كَمَا أُنْزِلَ إِلَّا كَذَّابٌ وَمَا جَمَعَهُ وَحَفِظَهُ كَمَا نَزَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَالْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ عليهم السلام»[٣٥]. وكذلك ما روي عن « مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ عَنْ عَمَّارِ بْنِ مَرْوَانَ عَنِ الْمُنَخَّلِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ عِنْدَهُ جَمِيعَ الْقُرْآنِ كُلِّهِ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ غَيْرُ الْأَوْصِيَاءِ»[٣٦].

فالأحاديث نصت على أن هذا القرآن لم يجمعه ولم يحفظه إلا من نزل عندهم هذا القرآن وهم أهل البيت عليهم السلام وهم أعلم بما فيه من تشريع وأحكام وأعرف بظاهره وباطنه.

المحور الثاني:

دلالة لفظة (الكتاب) في ضوء عدم الافتراق.

سنقف في هذا المحور على دلالة لفظة (الكتاب) من القرآن نفسه بعد الوقوف على دلالته اللغوية ومن ثم نعرّج على دلالته عند أهل البيت عليهم السلام. فقد أكدت المعجمات اللغوية على أن

هذه اللفظة من الجذر الثلاثي (كتب)، والكتاب هو الفرض والحكم، يقول: «كتب: كتبتُ الكتاب أكتبه، وهو من الجمع، والكتاب: الفرضُ والحكم، و(الكتاب): القدرُ. قال الجعدي:

يا بنت عمي كتابُ الله أخرجني
عنكم وهل أمنعنَّ الله ما فعلا»[٣٧].

وفي موضع آخر يقول: «(كَتَبَ) الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالْكِتَابَةُ. يُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا. وَيَقُولُونَ: كَتَبْتُ الْبَغْلَةَ، إِذَا جَمَعْتُ شُفْرَيْ رَحِمِهَا بِحَلْقَةٍ. قَالَ:

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا حَلَلْتَ بِهِ
عَلَى قَلُوصِكَ وَاكْتُبْهَا بِأَسْيَارِ

وَالْكُتْبَةُ: الْخُرْزَةُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِجَمْعِهَا الْمَخْرُوزَ.

وَالْكُتَبُ: الْخُرَزُ. قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوَارِزَهَا
مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بَيْنَهَا الْكُتَبُ»[٣٨].

ونقل ابن منظور عن الأزهري قوله: «الكِتابُ اسْمٌ لِمَا كُتب مَجْمُوعاً؛ والكِتابُ مَصْدَرٌ... والكِتابُ، مُطْلَقٌ: التوراةُ، وَبِهِ فَسَّرَ الزَّجَّاجُ قولَه تَعَالَى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾. وَقَوْلُهُ: كِتابَ اللَّهِ، جَائِزٌ أن يَكُونَ القرآنَ، وأن يَكُونَ التوراةَ؛ لأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ قَدْ نَبَذُوا التوراةَ. وقولُه تَعَالَى: ﴿وَالطُّورِ وَكِتابٍ مَسْطُورٍ﴾. قِيلَ: الكِتابُ مَا أُثْبِتَ عَلَى بَنِي آدَمَ مِنَ أَعْمالهم. والكِتابُ: الصَّحِيفَةُ والدَّواةُ... والكِتابُ: الفَرْضُ والحُكْمُ»[٣٩].

وقد قلنا: إن بعض المفسرين واللغويين قد ذهبوا إلى أن للقرآن تسميات عدة منها الكتاب، وذهبوا في موارد أخرى إلى أن الكتاب هو واحد من الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين، أو هو اللوح المحفوظ في موارد أخرى. نقول في سياق هذا التصور: إن واحدية الدلالة التي أشرنا إليها سابقا ترفض الاعتراف بمثل هذا التعدد الدلالي؛ لأن

من سمات هذا المنهج أن اللفظة في الاستعمال القرآني لها دلالة واحدة في جميع مواردها، ويقتضي ذلك أن تكون لكل لفظة دلالتها المميزة، وإيراد اللفظة المعينة في موضع ما يبنى على قصد في إرادتها، ويبدو أن الكتاب يمثل حقيقة أخرى غير ما ذكر المفسرون فلكل سياقاته اللغوية[٤٠].

وإذا ما حاولنا استعراض بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة (الكتاب) وحللنا بعضا منها للوقوف على سمات هذه اللفظة ودلالتها القرآنية، إذ وردت لفظة الكتاب (١٥١) مرة في القرآن الكريم، و(١٩) مرة (أهل الكتاب)، و(٩) مرات (كتاب الله)، و(١٢) مرة (كتابا).

ولا نستطيع أن نلم بكل جوانب التحليل للآيات بأجمعها، وقد حاول الأستاذ الدكتور حسن الأسدي الوقوف على بعض الآيات القرآنية التي ظهرت فيها لفظة (الكتاب) بعد عرضها، وحلل قسما منها، وخلص إلى القول: إن هذا الكتاب ذو مواصفات قد تكون خارج حدود التصور والمألوف، بل هو معجزة ما بعدها معجزة، فهو يشتمل على كل ما يكون في الدنيا صغيرا أو كبيرا، بل يزيد على التفصيل مزيد إيضاح لكل ذلك، ويبدو أن الكتاب تكوّن بصيغتين الأولى أنزلها على نبيه موسى عليه السلام، والثانية أنزلت على نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وهذه الصيغة أكثر تبيانا، وهي مهيمنة على الصيغة الأولى. وكون (الحروف المقطعة) هي آياته يعني أنه اعتمد طريقة مختلفة لإيراد هذا الكم من المعلومات، وتلك ميزة معجزة بين أيدي أنبيائه المكرمين، وقد صرح القرآن الكريم بوجود مثل هذا الكتاب في مورد تفصيل، ووصف هذا الكتاب بأنه كتاب مبين مع الإشارة المهمة التي خصّ نفسه ب(مفاتيح الغيب) وذلك قوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ**

﴿وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام/٥٩)، وهي على النحو الآتي[٤١]:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة/٨٧)، وفي تفسير هذه الآية المباركة يقول الإمام العسكري عليه السلام: «قال الله عز وجل وهو يخاطب هؤلاء اليهود الذين أظهر محمد صلى الله عليه وآله المعجزات لهم عند تلك الجبال ويوبخهم وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ التوراة المشتمل على أحكامنا، وعلى ذكر فضل محمد وعلي وآلهما الطيبين، وإمامة علي بن أبي طالب عليه السلام وخلفائه بعده، وشرف أحوال المسلمين له، وسوء أحوال المخالفين عليه. وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ جعلنا رسولا في أثر رسول. وَآتَيْنا أعطينا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ الآيات الواضحات مثل إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإنباء بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وهو جبرئيل عليه السلام، وذلك حين رفعه من روزنة بيته إلى السماء، وألقى شبهه على من رام قتله فقتل بدلا منه»[٤٢]، فالكتاب عند الإمام تعني التوراة.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (البقرة/١١٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء/١٠٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا

طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام/٣٨)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام/١٥٤)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل/٨٩)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء/٥٨).

فالسمات التي أظهرتها السياقات اللفظية للكتاب في الآيات المتقدمة وغيرها من الآيات الأخرى تنحو بنا للقول بأن الكتاب لفظة تدل على كتاب إلهيّ آخر هو غير القرآن الكريم.

وتعضيدا لما ذهب إليه الدكتور حسن الأسدي نذكر قولا لأمير المؤمنين عليه السلام: «وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله»(٤٣)، فقوله (الكتاب معي) يشير إلى الصيغة الثانية التي كان عليها الكتاب والمهيمن على الصيغة الأولى. وفي مورد آخر جاء عن محمد بن يحيى، عن بعض أصحابه، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله وروى ابن سنان عمن ذكره قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيء واحد، أم شيئان؟ فقال عليه السلام: القرآن جملة الكتاب، والفرقان: المحكم الواجب العمل به.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس إنّ الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول صلى الله عليه وآله وأنزل إليه الكتاب بالحق وأنتم أميون عن الكتاب ومن أنزله، وعن الرسول ومن أرسله، على حين فترة من الرسل، وطول هجعة من الأمم،

وانبساط من الجهل، واعتراض من الفتنة، وانتقاض من المبرم »[٤٤]، فقوله (أميون عن الكتاب) تعني أنهم «عَلَى أَصل وِلَادَةِ أُمِّهم لَمْ يَتَعَلَّموا الكِتابة والحِساب، فَهُمْ عَلَى جِبلَّتِهم الأُولى»؛ لأن «مَعْنَى الأُمِّيّ المَنْسُوب إِلَى مَا عَلَيْهِ جَبَلَتْه أُمُّه أَيْ لَا يَكتُبُ، فَهُوَ فِي أَنه لَا يَكتُب أُمِّيٌّ، لأَن الكِتابة هِيَ مُكْتسَبَةٌ فكأَنه نُسِب إِلَى مَا يُولد عَلَيْهِ أَيْ عَلَى مَا وَلَدَته أُمُّهُ عَلَيْهِ»[٤٥].

وقد ذهب أحد اللغويين إلى أن «الكتاب هو الجامع لمسائل متحدة في الجنس مختلفة في النوع»[٤٦]، وفي موضع آخر فرق بين الكتاب والمصحف بقوله: «الفرق بين الكتاب والمصحف: أن الكتاب يكون ورقة واحدة ويكون جملة أوراق، والمصحف لا يكون إلا جماعة أوراق صحفت أي جمع بعضها إلى بعض، وأهل الحجاز يقولون مصحف بالكسر أخرجوه مخرج ما يتعاطى باليد وأهل نجد يقولون مصحف وهو أجود اللغتين، وأكثر ما يقال المصحف لمصحف القرآن، والكتاب أيضا يكون مصدرا بمعنى الكتابة تقول كتبته كتابا وعلمته الكتاب والحساب، وفي القرآن ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ**﴾[٤٧] أي كتاب في قرطاس ولو كان الكتاب هو المكتوب لم يحسن ذكر القرطاس»[٤٨]، وهذه التفاتة رائعة منه.

وفي موضع ثالث نجده يفرق بين المنشور والكتاب إذ يقول: «الفرق بين المنشور والكتاب: أن قولنا عند فلان منشور يفيد أن عنده مكتوبا يقويه ويؤيده، والمنشور في الأصل صفة الكتاب وفي القرآن ﴿**كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا**﴾[٤٩]؛ لأنه قدر صار اسما للكتاب المفيد الفائدة التي ذكرنا والكتاب لا يفيد ذلك»[٥٠].

وإذا ما عدنا إلى القرآن الكريم سنجد أول إشارة إلى لفظة (الكتاب) في

قوله تعالى: ﴿الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/١-٢)، فاستعمال اسم الإشارة (ذلك) وال التعريف المصاحبة للفظة الكتاب لربما يكشف عن البعد الزماني أو المكاني للكتاب، ومما يعضد ذلك قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس/١)، فاستعمال اسم الإشارة (تلك) دليل واضح على أن التكوينات الحرفية (الحروف المقطعة) هي الآيات التي يشتمل عليها هذا الكتاب، وعلى هذا فالطريقة التي أخرج عليها هذا الكتاب هي طريقة التشفير[٥١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الرعد/١).

وأما ورود لفظة (أهل الكتاب) فكان في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة/١٠٥). وتعني اليهود والنصارى؛ لأنهم من الذين كفروا بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة/٣٠-٣١). وهذا يجرنا إلى الحديث عن غفران الذنوب جميعا إلا الإشراك به تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء/٤٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء/١١٦).

أما قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة/١٠٩).

وإذا ما تتبعنا الآيات التي ورد فيها ذكر اليهود والنصارى سنجدهم هم أهل الكتاب، فبعد أن خاطبهم بأسمائهم عدل بالخطاب ليجمعهم ويجعلهم تحت مسمى واحد هو (أهل الكتاب)، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة/١٨-١٩)، فالآية الأخيرة صريحة بأن (أهل الكتاب) هم اليهود والنصارى، وهو ما عليه كثير من المفسرين واللغويين[٥٢].

وقد جاء في بيان وتفصيلات هؤلاء الأجناس في آيات أخرى من ذلك قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة/٨٣ -٨٢)، وقوله عزّوجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(البقرة/١١٣).

وأما استعمال القرآن لفظة (كتاب الله) فقد جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٠١)، ففي هذه الآية تأكيد على أن الكتاب غير كتاب الله، ولعله يوافق ما ورد عنه صلى الله عليه وآله بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»(٥٣)، وفي لفظ آخر: «إِنِّي تَارِكٌ فيكم الثَّقْلَيْن كِتابَ اللّهِ وعِتْرَتِي أهْلَ بَيْتِي مَا إنْ تَمَسَّكْتُم بِهِمَا لنْ تَضِلُّوا»(٥٤)، وما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام بقوله: «اعرِضُوهُمَا عَلى كِتابِ اللّهِ فَما وَافَق كِتَاب اللّهِ فَخُذُوه، ومَا خَالَف كِتاب اللّهِ فَرُدُّوه»(٥٥)، وهو ما عنى به الإمام الباقر عليه السلام حينما سأله أحدهم عن بعض المسائل: «جاء رجل إلى أبي جعفر عليه السلام بمكة فسأله عن مسائل فأجابه فيها، ثم قال له الرجل: أنت الذي تزعم أنه ليس شيء من كتاب الله إلا معروف؟ قال: ليس هكذا قلت، ولكن ليس شيء من كتاب الله إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه، مما لا يعلمه الناس، قال: فأنت الذي تزعم أنه ليس من كتاب الله إلا والناس يحتاجون إليه؟ قال: نعم، ولا حرف واحد، فقال له: فما (المص) قال أبو لبيد: فأجابه بجواب نسيته. فخرج الرجل فقال لي أبو جعفر عليه السلام: هذا تفسيرها في ظهر القرآن أفلا أخبرك بتفسيرها في بطن القرآن؟ قلت: وللقرآن بطن وظهر؟ فقال: نعم إن لكتاب الله ظاهرا وباطنا، ومعاني وناسخا ومنسوخا، ومحكما ومتشابها وسننا وأمثالا، وفصلا ووصلا، وأحرفا وتصريفا، فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك وأهلك»(٥٦).

وفي هذا السياق يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّناً حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ وَنَاسِخَهُ

وَمَنْسُوخَهُ وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ وَمُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ»[٥٧]. ويقول عليه السلام أيضا: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَا يَعْيَا لِسَانُهُ وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ»[٥٨].

الملاحظ مما سبق من ذكر الآيات القرآنية وبعض الروايات عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أن لفظة (كتاب الله) هذه الإضافة المخصوصة لله تعالى تشير إلى خصوصيتها إليه وليس لأي أحد كان، وهو ما عنى به أهل البيت عليهم السلام[٥٩]. أما لفظة (الكتاب) فتعني في دلالتها القرآنية كتابا سماويا آخر غير القرآن.

المحور الثالث:

دلالة لفظة (الفرقان) في ضوء عدم الافتراق.

المادة اللغوية للجذر (فرق) الفاء والراء والقاف أُصَيلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييز وتزييلٍ[٦٠]، وفي قوله تعالى: ﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب والفُرْقان لعلكم تهتدون**﴾ قال ابن منظور: «يجوز أن يكونَ الفُرْقانُ الكتاب بعينه وهو التوراة إلا أنه أُعِيدَ ذكره باسم غير الأَول، وعنى به أنه يَفْرُقُ بين الحق والباطل وذكره الله تعالى لموسى في غير هذا الموضع فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (الأنبياء/٤٨) أراد التوراة، فسَمّى جلّ ثناؤه الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وآله فُرْقاناً وسمى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام فُرْقاناً والمعنى أنه تعالى فَرَقَ بكل واحد منهما بين الحق والباطل، وقال الفراء

آتينا موسى الكتاب وآتينا محمداً الفُرْقانَ»[٦١].

ولعل ما ذكره ابن منظور هو ما أكده بعض النحويين وهو قطرب من أن المعنى وآتينا محمداً الفرقان، ودليله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان/١) يعني به القرآن. والقول الأول هو القول وعلل الزجاج ذلك لأن الفرقان قد ذكر لموسى في غير هذا الموضع، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأنبياء/٤٨)، والقول الأول مراد به أن يكون الفرقان الكتاب بعينه إلا إنَّه أعيد ذكره، وعَنى به أنه يفرق بين الحق والباطل[٦٢].

والذي أراه أن الدلالة القرآنية للفرقان لا تبتعد عن الدلالة اللغوية كونها تعني التمييز والتزييل؛ ولذا جاء بمعنى الفرق بين الحق والباطل. وعلى ما يبدو من النص أن ابن منظور يشير إلى الصفة لا إلى الاسم فكلاهما أي التوراة والفرقان صفتهما التفريق بين الحق والباطل وقد مر بنا سابقا أن المراد من الفرقان المحكم الواجب العمل به كما بيّنه الإمام الصادق عليه السلام، وهو ما سنأتي عليه لاحقا.

وجاء في مقاييس اللغة أن «الفُرْقانُ: كتاب الله تعالى فَرَقَ به بين الحقِّ والباطل. والفُرْقان: الصُّبح، سمِّي بذلك لأنه به يُفْرق بين اللَّيل والنَّهار، ويقال لأنَّ الظُّلْمة تتفرَّق عنه»[٦٣]، وذكرنا سابقا أن أبا هلال العسكري كان قد فرق بين القرآن والفرقان بقوله: «الْفرق بَين الْقُرْآن وَالْفرْقَان أَن الْقرَان يُفِيد جمع السُّور وَضم بَعْضهَا إِلَى بعض وَالْفرْقَان يُفِيد أَنه يفرق بَين الْحق وَالْبَاطِل وَالْمُؤمن وَالْكَافِر»[٦٤]، ونقل عن الجوهري قوله: «الفرقان: القرآن. وكل ما فرق به بين الحق والباطل فهو فرقان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾(الأنبياء/٤٨)، والفرق:

الفرقان أيضا ونظيره: الخسر والخسران. انتهى. وذكر المفسرون لتسمية القرآن بالفرقان وجوها منها: أنه سمي به لنزوله متفرقا مدة الزمان. ومنها أنه مفروق بعضه من بعض، لأنه مفصل بالسور والآيات. ومنها: افتراقه عن سائر المعجزات ببقائه على صفحات الأيام والدهور. ومنها: فرقه بين الحق والباطل، والحلال والحرام. وروى ابن سنان عمن ذكره قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيء واحد، أم شيئان؟ فقال عليه السلام: القرآن جملة الكتاب، والفرقان: المحكم الواجب العمل به»[٦٥]. وكل ما ذكر من تسمية القرآن بالفرقان هي دلالات لا تخرج عن الدلالة اللغوية وإن تعددت تسمياتها.

ومن الملاحظ أن لفظة (الفرقان) جاءت في القرآن الكريم مقرونة فقط بموسى عليه السلام وأخيه (هارون) في الآية الأولى، في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ**﴾(الأنبياء/٤٨)، ومقرونة بموسى فقط في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾(البقرة/٥٣)، وجاء في تفسير الزمخشري قوله: «الْفُرْقانَ وهو التوراة وَأتينا به ضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ والمعنى: أنه في نفسه ضياء وذكر، أو وآتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرا»[٦٦]، وصرّح أبو البقاء العكبري بأن: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَضِيَاءً**﴾: قِيلَ: دَخَلَتِ الْوَاوُ عَلَى الصِّفَةِ، كَمَا تَقُولُ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الْكَرِيمِ وَالْعَالِمِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ حَالًا، أَيِ الْفُرْقَانَ مُضِيئًا. وَقِيلَ: هِيَ عَاطِفَةٌ، أَيْ آتَيْنَاهُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: الْفُرْقَانَ، وَالضِّيَاءَ، وَالذِّكْرَ»[٦٧].

ومن اللافت للنظر حقا أن في القرآن سورة خاصة بهذه اللفظة، وهي سورة الفرقان وابتدأت بقوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾(الفرقان/١)، ولفظة (عبده) وردت في آيات كثيرة مرتبطة

بالنبي صلى الله عليه وآله، ومنها هذه الآية المباركة وغيرها من الآيات[٦٨]، وهذا يعني أن للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فرقانا أيضا كما كان لموسى عليه السلام فرقان بنص القرآن. هذا من جانب ومن جانب آخر نجد أن موسى عليه السلام قد ذكر في هذه السورة نفسها دون سائر الأنبياء عليهم السلام، وقد تقدمهم ذكره عليهم أيضا؛ وذلك لخصوصيته في إتيانه الكتاب وهو قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا**﴾(الفرقان/٣٥)، ومرّ قبل قليل أن الله آتاه الكتاب والفرقان، وكذلك نزل على محمد صلى الله عليه وآله القرآن والفرقان إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا**﴾(الإنسان/٢٣)، ومن مجموع ما ذكر فإننا وصلنا إلى حقيقة قرآنية مفادها أن لكل من موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله كتابين، للأول التوراة والفرقان وللثاني القرآن والفرقان بنصوص القرآن، وهذا يكشف لنا أن الفرقان الوارد ذكره في الآيات القرآنية كتاب ثان للكتاب الأول فيه تقدير الأشياء وتمييزها، وهو ما عبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بأنه المحكم الواجب العمل به. وتدلنا على ذلك آيات كثيرة في سورة (الفرقان) نورد قسما منها لتأكيد ما نقول، منها قوله تعالى: ﴿**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾(الفرقان/٢)، وقوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾(الفرقان/٣)، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾(الفرقان/٦)، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ**

مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾(الفرقان/٧-٨)، أي غير مميز. وقوله تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا**﴾(الفرقان/١١)، وغير ذلك من الآيات الأخرى.

وإذا ما تتبعنا آيات السورة بأجمعها سنجد أنها عبارة عن كتلة دلالية واحدة توضح معنى الفرقان الذي هو كتاب يتميز بأنه يعرض موارد التقدير والتمييز في الأشياء من قبل الباري عزّ وجل، وعدم التقدير والتمييز من قبل خلقه الضالين المضلين. ونرى أنّ في هذه السورة ترابطا دلاليا عجيبا بين أجزائها (ألفاظها وآياتها)، مما يكشف عن مدونته المغلقة التي أشرنا إليها في أول البحث وهو ما سنأتي عليه مفصلا إن شاء الله تعالى.

وعودا على ذي بدء نقول إننا نجد أن لفظة (الفرقان) جاءت في الموضعين السابقين مقرونة بلفظة (الإتيان)، وثلاث آيات أخرى مقرونة بلفظة (النزول) باختلاف تصاريف هذا الفعل، فمرة استعملها القرآن (أنزل) بصيغة الفعل الماضي، ومرة استعمل (نزّل) بالتضعيف، واستعملها مرة ثالثة (أُنزل) بصيغة المبني للمجهول. والآيات المباركات هن على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿**مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾(آل عمران/٤)، وقال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾(الفرقان/١)، وقال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾(البقرة/١٨٥).

والفرق واضح بين دلالة (الإتيان) و(الإنزال)، فالإتيان تعني الإعطاء، قال ابن عباس (ت٦٨هـ): « (وَلَقَد آتَيْنَا) أعطينا»[٦٩]، أما ابن عاشور فيرى أن

«الإخبار عن الفرقان بإسناد إيتائه إلى ضمير الجلالة للتنبيه على أنه لم يَعْد كونَه إيتاء من الله تعالى ووحياً كما أوتي محمد (عليه الصلاة والسلام) القرآن، فكيف ينكرون إيتاء القرآن وهم يعلمون أن موسى عليه السلام ما جاء إلا بمثله؟. وفيه تنبيه على جلالة ذلك المُؤتَى»[٧٠].

والفرق واضح أيضا بين الإنزال والتنزيل: «قال بعض المفسرين: الإنزال: دفعي، والتنزيل: للتدريج. قلت: ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿**نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل**﴾، حيث خص القرآن بالتنزيل، لنزوله منجما، والكتابين بالإنزال لنزولهما دفقة. وأما قوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب**﴾ فالمراد هناك مطلقا من غير اعتبار التنجيم، وكذا قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ فإن المراد إنزاله إلى سماء الدنيا، ثم تنزيله منجما على النبي صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين كما وردت به الروايات»[٧١]، فالفعل (نزّل) مصدره (التنزيل) أي بالتدريج، أما الفعل (أنزل) فمصدره (الإنزال) أي دفعة واحدة، والفرق بيّن وواضح.

ولا يبتعد كلام أهل البيت عليهم السلام في تفسيرهم للفظة الفرقان عن ما قدمناه من الدلالة القرآنية لهذه اللفظة؛ ولذا فسّر الإمام العسكري عليه السلام الآية المباركة بقوله: «واذكروا إذ آتينا موسى الكتاب وهو التوراة الذي أخذ على بني إسرائيل الإيمان به، والانقياد لما يوجبه، والفرقان آتيناه أيضا فرق به ما بين الحق والباطل، وفرق ما بين المحقين والمبطلين. وذلك أنه لما أكرمهم الله تعالى بالكتاب والإيمان به، والانقياد له، أوحى الله بعد ذلك إلى موسى عليه السلام يا موسى هذا الكتاب قد أقروا به، وقد بقي الفرقان، فرق ما بين المؤمنين والكافرين، والمحقين والمبطلين، فجدد عليهم العهد به، فإني قد آليت على نفسي قسما

حقا لا أتقبل من أحد إيمانا ولا عملا إلا مع الإيمان به»[٧٢]، وقول الإمام العسكري عليه السلام: «وقد بقي الفرقان، فرق ما بين المؤمنين والكافرين، والمحقين والمبطلين، فجدد عليهم العهد به...» يعني أن الفرقان كتاب آخر غير التوراة لدى موسى عليه السلام كما أن الفرقان كتاب آخر غير القرآن لدى محمد صلى الله عليه وآله؛ بدليل قول الإمام عليه السلام «فجدد عليهم العهد به، فإني قد آليت على نفسي قسما حقا لا أتقبل من أحد إيمانا ولا عملا إلا مع الإيمان به»، والفقرة الأخيرة تكشف عن دلالة ما توصلنا إليه من أن الفرقان هو ما خص بالتقدير والتمييز بين الأشياء وكذلك الإيمان به.

وختاما فقد فسرت الآية المباركة: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(الأنفال/٤١) بأن الفرقان هُنَا: «هُوَ النَّصْرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ**﴾(الأنفال/٤١) يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ»[٧٣]، ولا يخفى على أي أحد منا أن النصر هو تفريق بين الحق والباطل.

المحور الرابع:

دلالة لفظة (الذكر) في ضوء عدم الافتراق.

ما عليه أغلب اللغويين أن: « ذَكَرْتُ الشيء، خلافُ نسِيتُه. ثم حمل عليه الذِّكْر باللّسان. ويقولون: اجعلْه منك على ذُكْرٍ، بضم الذال، أي لا تَنْسَه. والذّكر: الْعَلَاءُ وَالشَّرَفُ. وَهُوَ قِيَاسُ الْأَصْل. وَيُقَالُ رَجُلٌ ذَكِرٌ وَذِكِّيرٌ، أَيْ جَيِّدُ الذِّكْرِ شَهْمٌ»[٧٤]. وقال ابن منظور: «الذِّكْرُ: الحِفْظُ لِلشَّيْءِ تَذْكُرُه. والذِّكْرُ أيضاً: الشَّيْءُ يَجْري عَلَى اللِّسَانِ. والذِّكْرُ: جَرْيُ الشَّيْءِ عَلَى لِسَانِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَن الذِّكْرَ لُغَةٌ فِي الذِّكْرِ، ذَكَرَهُ يَذْكُرُه ذِكْراً وذُكْراً؛ الأَخيرة عَنْ

سِيبَوَيْهِ»[٧٥]، وهذا يعني أن (الذكر) في اللغة يعني الشيء الملفوظ والمذكور والمحفوظ.

وإذا ما أتينا إلى لفظة (الذكر) في القرآن الكريم وجدناها وردت بصيغ مختلفة، منها لفظة (الذِّكر)، وقد اقترنت بلفظة (النزول)[٧٦]، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾(الحجر/٦)، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر/٩)، وجاء في تفسير هذه الآية أنها «رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾(الحجر/٦)، ولذلك قال: إنا نحن، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمدﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها. وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه. فإن قلت: فحين كان قوله ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**﴾ رداً لإنكارهم واستهزائهم، فكيف اتصل به قوله ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾؟ قلت: قد جعل ذلك دليلا على أنه منزل من عنده آية، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه»[٧٧]، وقد قيل: «إنَّ الْهَاء التي فِي (لَهُ) يُراد بِهَا القرآن (حافِظُونَ) أي راعون: ويُقال: إن الْهَاء لمحمدﷺ وإنا لمحمد لحافظون»[٧٨]. وذكر الزّجّاج في توضيح دلالة الآية المباركة قوله: «أي نَحْفَظُهُ من أن يقع فيه زيادة أو نقصان، كما قال: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾(فصلت/٤٢)»[٧٩].

وللربط بين الدلالة اللغوية للفظة (الذكر) والدلالة القرآنية في ضوء ما

تقدم نجد أن لفظة (الذكر) في القرآن استعملت استعمالا خاصا لتعطي معنى آخر غير معنى القرآن وليس هو القرآن نفسه بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا**﴾(الإنسان/٢٣)، وفي مورد آخر يقول تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر/٩)، فلو كان المعنى واحدا لما اختلف اللفظان، ولو تساوت الدلالة بينهما لما استعمل القرآن مرة لفظة (القرآن) ومرة لفظة (الذكر)، ونحن نؤمن أشد الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى غير عاجز عن إيراد لفظتين بمعنى واحد، ولكن لكل لفظة خصوصية في التعبير القرآني لديه قصد إليها قصدا، فضلا عن أننا نؤمن بواحدية الدلالة التي أشرنا إليها أثناء البحث.

هذا من جانب ومن جانب آخر إذا كانت لفظة (الذِّكر) تعني في اللغة الشيء المحفوظ فما الداعي لتذييل الآية المباركة بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر/٩)؟ فإذا كان شيئا محفوظا فما الداعي لتأكيد حفظه مرة أخرى؟.

وفي العودة إلى تطبيق منهج تفسير القرآن بالقرآن بقي علينا أن نسلّم بأن هذا (الذِّكر) هو كتاب سماوي آخر غير القرآن الكريم بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾(فصلت/٤١)، ووصفه الله تعالى بأنه كتاب عزيز، وفي آية أخرى تكفل الله بحفظه وأكد على هذا الحفظ بقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر/٩).

وعليه فلا مجال للقول بعد ذلك بأن الذكر من أسماء القرآن، كما يذكر ذلك الطريحي (ت١٠٨٥هـ) بقوله: «الذكر من أسماء القرآن وسمي به؛ لأنه لا يذكر ويذكر به المنزل عليه والمؤمن به والعامل والتالي فيفيده. وَ﴿**الذِّكْرِ الْحَكِيمِ**﴾(آل عمران/٥٨) أي المحكم الذي أحكمت آياته أو المتضمن للحكمة»[٨٠]، ودليله قوله تعالى: ﴿**أَأُنْزِلَ**

﴿عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾(ص/٨)، وليس هذا دليلا كافيا؛ وذلك لوجود كثير من الآيات القرآنية ارتبط نزولها بالله تعالى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر/٩)، وقوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل/٤٤).

وفرقنا فيما سبق بين دلالة كل من لفظتي (نزّل) و(أنزل) في القرآن، واتضح بأن الإنزال دفعي والتنزيل بالتدريج وهي بحاجة إلى توقف، وغيرها من الآيات التي جاءت في القرآن الكريم وفيها لفظة (الذِّكر) غير مقرونة بالنزول منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء/١٠٥)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾(الفرقان/١٨)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾(الفرقان/٢٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾(يس/١١)، وقوله تعالى: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾(القمر/٢٥)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾(القلم/٥١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر/١٧). وجميع هذه الآيات بحاجة إلى تمعن وتدقيق للوقوف على دلالتها القرآنية، ولكن للوهلة الأولى وللتصور المنهجي الذي عرضنا له في بداية البحث يتأتى لنا معرفة أن لفظة (الذّكر) التي قصدها القرآن تعني شيئا خارج القرآن أو بمعنى أنه شيء غير القرآن.

أما لفظة (أهل الذِّكر) فقد وردت في آيتين مباركتين، في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾(النحل/٤٣)، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾(الأنبياء/٧). والفرق بيّن بين الآيتين، إذ ذكر في الآية الأولى ﴿**مِنْ قَبْلِكَ**﴾ ولم يذكر في الآية الثانية (من)، وذكرها كما يرى الدكتور فاضل السامرائي[٨١] يفيد الابتداء أي ابتداء الغاية وهو امتداد من الزمن الذي قبلك مباشرة، أي من زمان الرسول صلى الله عليه وآله إلى زمن آدم.

أما في سورة الأنبياء فقوله ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾(الأنبياء/٧) فهي تحتمل البعيد والقريب. وهذا الذكر أو الحذف يعتمد على سياق الآيات فإذا كان السياق ممتدا يأتي بـ(من)، وإذا كان السياق لزمن محدد لا يأتي بها. ففي سورة النحل قال تعالى: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾(النحل/٢٦)، فكل الآيات فيها (من)؛ لأن الحديث كله عن سلسلة الأنبياء (مستمرة)، أما في سورة الأنبياء ﴿**مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ**﴾(٦) فهي قائمة على التبليغ فناسب حذف (من).

واختلف في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ إذ قال: «ابن عباس ومجاهد: المعني بأهل الذكر أهل الكتاب، ومنهم من قال: المراد من آمن من أهل الكتاب، ومنهم من قال: أمر مشركي العرب أن يسألوا أهل الكتاب عن ذلك فإنهم لا يتهمونهم. وقال ابن زيد: يريد أهل القرآن لأن الذكر هو القرآن. وقال الرّماني والأزهري

والزّجاج: المعني بذلك أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم، سواء كانوا مؤمنين أو كفاراً، وما آتاهم من الرسل قال: وفي ذلك دلالة على أنّه يحسن أن يرد الخصم - اذا التبس عليه أمر - إلى أهل العلم بذلك الشيء إن كان من أهل العقول السليمة من آفة الشبه»[٨٢].

ولكن الدلالة القرآنية ترشدنا إلى أن أهل الذكر هم حاملو هذا الكتاب وهم أعلم به من غيرهم، فهؤلاء ينبغي أن يكونوا على علم ودراية بتفصيلات ما جرى وما يجري بدلالة وجود (من) وعدم وجودها، ولذا جاء في تفاسير أخرى أن أهل البيت عليهم السلام هم أهل الذكر الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، جاء في تفسير فرات الكوفي: «قال حدثني الحسين بن سعيد معنعنا عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾، قال: نحن أهل الذكر»[٨٣]، وجاء في تفسير فرات الكوفي أيضا: «قال حدثني محمد بن الحسن بن إبراهيم معنعنا عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾، قال: هم آل محمد»[٨٤]، وجاء في تفسير العياشي: «نحن أهل الذكر، ونحن المسئولون»[٨٥]، وجاء في جوامع الجامع عن الإمام الباقر عليه السلام: نحن أهل الذكر[٨٦]، وأخيرا جاء في مجمع البحرين: «عن أبي جعفر عليه السلام قال: نحن والله أهل الذكر. فقلت: أنتم المسئولون؟ قال: نعم. قلت: وعليكم أن تجيبونا؟ قال: ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا تركنا»[٨٧].

وختاما لا بد من الإشارة إلى أن جميع الآيات السابقة التي وردت في القرآن الكريم كانت معرفة بالألف واللام سوى آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾(الأنبياء/٢٤) من غير تعريف وكما هو معروف فإن دلالة التعريف تعطي معنى غير معنى التنكير.

الخاتمة:

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث توصلت الباحثة إلى أهم النتائج التي يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١ -ركّز البحث على مبدأ واحدية الدلالة القرآنية للفظة، بمعنى أن لكل لفظة قرآنية دلالة واحدة، ولا يمكن أن تدلّ لفظة واحدة على معنيين في آن واحد.

٢ -من جملة ما وقف عليه البحث هو كلام أهل البيت عليهم السلام، وتبين أنهم يستعملون الألفاظ القرآنية بتلك الدلالة التي استعملها القرآن للفظة، وهي دلالة تلازم تلك اللفظة في سائر كلامهم.

٣ -إن دراسة أية لفظة من ألفاظ القرآن الكريم لا يمكن فهمها بمعزل عن سياقها الذي وضعت فيه، ولا تتم معرفة وتوضيح دلالتها القرآنية إلا إذا أتينا على جميع مواردها التي وضعت فيها في القرآن الكريم أيضا، وهذا منهج علمي واضح ومتبع في دراسة أي من الألفاظ القرآنية، وهو أسلوب مهم وبيّن لمعرفة الدلالات القرآنية للألفاظ.

٤ -تبين عبر صفحات البحث أن دلالة لفظة (القرآن) تعني الجمع والضم وكشفت بعض الآيات التي فيها لفظة (القرآن) أبرز الخصائص النصيّة التي يمتاز بها القرآن الكريم، وهي تظافر أجزائه (ألفاظه وآياته) لتأكيد ترابطها الدلاليّ، وتأكيد ما اتّسم به القرآن من الوحدة البيانية.

٥ -في لفظة (الكتاب) وجد البحث أن هذا الكتاب ذو مواصفات قد تكون خارج حدود التصور والمألوف، بل هو معجزة ما بعدها معجزة فهو يشتمل على كل ما يكون في الدنيا صغيرا أو كبيرا، بل يزيد على التفصيل مزيد إيضاح لكل ذلك، وعليه فالكتاب كتاب سماوي آخر غير القرآن.

٦ -وصلنا إلى حقيقة قرآنية مفادها أن لكل من موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله كتابين، للأول التوراة والفرقان وللثاني

القرآن والفرقان بنصوص القرآن، وهذا يكشف لنا أن الفرقان الوارد ذكره في الآيات القرآنية كتاب ثان للكتاب الأول فيه تقدير الأشياء وتمييزها.

٧ -تضح لنا أن لفظة (الذكر) في القرآن استعملت استعمالا خاصا لتعطي معنى آخر غير معنى القرآن، وليس هو القرآن نفسه بدليل نصوص من القرآن نفسه.

٨ -لم يبتعد كلام أهل البيت عليهم السلام عن دلالات الألفاظ القرآنية كثيرا، بل جاء منسجما في كثير من الأحيان، ولاسيما فيما يتعلق بدلالات ألفاظ القرآن والكتاب والفرقان والذكر التي وقف البحث عند دلالاتها وبين عدم ترادفها.

المصادر والمراجع:

١. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، العلامة المجلسي (ت١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ ق.

٢. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٣. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٤. التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (ت٣٨٥-٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي.

٥. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

٦. تفسير الإمام العسكري عليه السلام، منسوب للإمام الحادي عشر للشيعة عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ

٧. تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي (عاش بين سنة ٢٦٠ إلى ٣٢٠هـ)، قام بتحقيق الكتاب السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المطبعة العلمية في طهران، ١٣٨٠هـ

٨. تفسير فرات الكوفي، أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي، من شخصيات عصر الغيبة الصغرى، مؤسسة الطبع والنشر في وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ

٩. تفسير القرآن بالقرآن- دراسة في المفهوم والمنهج، أ. سعاد كوريم، مجلة إسلامية المعرفة العدد ٤٩.

١٠. تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١١. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس،

المنسوب لعبد الله بن عباس (ت٦٨هـ)، جمعه: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، دار الكتب العلمية، لبنان.

١٢. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٤. جوامع الجامع، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري، تحقيق: مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

١٥. سنن الدارمي (ت٢٥٥)، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ

١٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٧. صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي (ت٣١١هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، الحواشي الملحقة بالكتاب كتبها: محمود خليل.

١٨. غريب القرآن، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: سعيد اللحام.

١٩. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٢٠. الكافي، ثقة الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب الشيخ الكليني (ت٣٢٨ - ٣٢٩هـ).

٢١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، الطبعة

الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ

٢٢. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٣. لسان العرب، ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (ت٧١١هـ)، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ

٢٤. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٥. مبدأ عدم الافتراق منهج في قراءة الموروث الديني، د. حسن عبد الغني الأسدي (تحت الطبع).

٢٦. مبدأ عدم الافتراق منهج لفهم القرآن الكريم، د. حسن عبد الغني الأسدي (تحت الطبع).

٢٧. مجمع البحرين، الشيخ فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، محمود عادل.

٢٨. مجمل اللغة، أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٠. مسند الإمام علي عليه السلام، السيد حسن القبانچي، تحقيق: الشيخ طاهر السلامي، سلسلة الكتب المؤلفة في أهل البيت عليهم السلام (١٢٢).

٣١. مُصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن أبي شيبة العبسي الكوفي (١٥٩- ٢٣٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة. طبعة الدار السلفية الهندية القديمة.

٣٢. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٣. معاني القرآن، أبو زكريا الفراء

(ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الطبعة الأولى، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

٣٤. معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ(قم)، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ

٣٥. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٦. منهج المدونة المغلقة (مباحث تأسيسية لتفسير القرآن بالقرآن)، الأستاذ الدكتور حسن عبد الغني الأسدي، المطبعة دار الرافد، قم، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ

٣٧. نهج البلاغة، الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، إعداد: مركز الأبحاث العقائدية.

٣٨. وسائل الشيعة، الفقيه المُحْدّثِ الشيخُ مُحمّدْ بن الحسن الحُر العاملي (ت١١٠٤هـ)، التحقيق والنشر: مؤسّسة آل البيتِ عليهم السلام لإحياء التُّراثِ، الطبعة الأُولى، جمادى الثانية، ١٤٠٩هـ ق.

الهوامش:

(١) مبدأ عدم الافتراق منهج في قراءة الموروث الديني، د. حسن عبد الغني الأسدي (تحت الطبع).

(٢) أول من أطلق هذا المصطلح هو الباحث الأستاذ الدكتور حسن الأسدي في بعض بحوثه القيمة الخاصة بهذا الجانب من الدراسة الدلالية القرآنية. ينظر: مبدأ عدم الافتراق منهج في قراءة الموروث الديني.

(٣) مسند أحمد: ١٨١/٥، مصنف ابن أبي شيبة: ٤٥٢/١١، سنن الدارمي: ٥٢٤/٢، صحيح ابن خزيمة: ٦٣/٤، كنز العمال: ١٧٢/١و١٧٣، وغيرها العشرات من كتب الحديث باختلاف بعض الألفاظ.

(٤) ينظر: مبدأ عدم الافتراق منهج لفهم القرآن الكريم: ١.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) تهذيب اللغة: ٢٦٢/٣.

(٧) ينظر: لسان العرب: ١٢٨/١.

(٨) هذا مصطلح ذكره الأستاذ الدكتور حسن عبد الغني في بحوثه القرآنية، ويراد به المنهج العلمي البيّن لفهم القرآن الكريم. ينظر: مبدأ عدم الافتراق منهج لفهم القرآن الكريم: ١. بحث تحت الطبع.

(٩) مقاييس اللغة: ٧٨/٥-٧٩.

(١٠) لسان العرب: ١٢٨/١.

(١١) تاج العروس: ١٨٦/١.

(١٢) لسان العرب: ١٢٨/١.

(١٣) تهذيب اللغة: ٣ /٢٦٢. وينظر: لسان العرب: ١٢٨/١.

(١٤) لسان العرب: ١٢٨/١.

(١٥) التبيان في تفسير القرآن: ٢٨٢/١.

(١٦) لسان العرب: ١٢٨/١.

(١٧) تفسير القرآن بالقرآن: دراسة في المفهوم والمنهج: ٥.

(١٨) الملاحظ أيضا أن مادة (ق. ر. أ) مؤلفة من أصوات مجهورة وشديدة، صدراً وحشواً ونهاية، مما يكسبها قوة في النطق ووضوحاً في السمع. وحين يكون الكلام قرآناً، تبلغ القوة ذروتها، محققة مرتبة الإعجاز، ويدرك الوضوح مداه عند نزول القرآن بلسان عربي مبين. ينظر: تفسير القرآن بالقرآن: دراسة في المفهوم والمنهج: ٤.

(١٩) مسند أحمد: ٢١٠/١١.

(٢٠) لسان العرب: ١٢٨/١.

(٢١) لسان العرب: ١٥٧٨/٣(مادة رتل).

(٢٢) ينظر: منهج المدونة المغلقة (مباحث تأسيسية لتفسير القرآن بالقرآن): ٢١.

(٢٣) ينظر: المصدر السابق.

(٢٤) ينظر في ذلك: معاني القرآن، الفراء: ٣١٣/٢، معاني القرآن وإعرابه: ١٥٧/٤، غريب القرآن لابن قتيبة: ٢٨٦، الطبري: ٦٣٨/١٩، لسان العرب: ٢٠٣/٧.

(٢٥) سورة البقرة/١٩٧.

(٢٦) لسان العرب: ٢٠٢/٧.

(٢٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤٣٦/٣.

(٢٨) ينظر: منهج المدونة المغلقة: ١٩ وما بعدها.

(٢٩) معجم الفروق اللغوية للعسكري: ٢٨٩/١.

(٣٠) تفسير الإمام العسكري: ٤٤٩- ٤٥٠.

(٣١) نهج البلاغة: ١٦٤.

(٣٢) نهج البلاغة: ١٨٢.

(٣٣) مسند الإمام علي عليه السلام: ١٩٨/٨.

(٣٤) معجم الفروق اللغوية للعسكري: ٢٢٥.

(٣٥) الكافي: ٢٢٨/١.

(٣٦) الكافي: ٢٢٨/١.

(٣٧) مجمل اللغة: ٧٧٨.

(٣٨) مقاييس اللغة: ١٥٨/٥.

(٣٩) لسان العرب: ٦٩٨/١-٦٩٩.

(٤٠) ينظر: منهج المدونة المغلقة: ١٤١.

(٤١) ينظر: منهج المدونة المغلقة: ١٤١-١٤٣.

(٤٢) تفسير الإمام العسكري: ٣٧١-٣٧٢.

(٤٣) نهج البلاغة: ١٧٩.

(٤٤) الكافي/الأصول والفروع: ٧٢/١.

(٤٥) لسان العرب: ٣٤/١٢.

(٤٦) معجم الفروق اللغوية: ٣٠٥/١.

(٤٧) الأنعام/٧.

(٤٨) معجم الفروق اللغوية: ٣٠٥/١.

(٤٩) الإسراء/١٣.

(٥٠) معجم الفروق اللغوية: ٣٥٣/١.

(٥١) ينظر: منهج المدونة المغلقة: ١٤٢.

(٥٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٨٨/١، التحرير والتنوير: ٤٩/١.

(٥٣) وسائل الشيعة: ٣٤/٢٧.

(٥٤) بحار الأنوار: ٣٣١/٣٦.

(٥٥) وسائل الشيعة: ١١٢/٢٧. وبداية الحديث عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قوله: «إذا جاءكم عنا حديث فوجدتم عليه شاهداً أو شاهدين من كتاب الله فخذوا به، وإلا فقفوا عنده، ثم ردوه إلينا، حتى يستبين لكم».

(٥٦) بحار الأنوار: ٩٠/٨٩.

(٥٧) نهج البلاغة: ٤٤.

(٥٨) نهج البلاغة: ١٩١.

(٥٩) «جمع أمير المؤمنين عليه السلام القرآن كله، ووضعه في إزار وأتى به إليهم وهم في المسجد. فقال لهم: هذا كتاب الله سبحانه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أعرضه إليكم لقيام الحجة عليكم، يوم العرض بين يدي الله تعالى، فقال له فرعون هذه الأمة ونمرودها: لسنا محتاجين إلى قرآنك، فقال عليه السلام: لقد أخبرني حبيبي صلى الله عليه وآله بقولك هذا، وإنما أردت بذلك إلقاء الحجة عليكم. فرجع أمير المؤمنين عليه السلام به إلى منزله، وهو يقول: لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك لا راد لما سبق في علمك، ولا مانع لما اقتضته حكمتك، فكن أنت الشاهد لي عليهم يوم العرض عليك». بحار الأنوار: ١٧٠/٥٢.

(٦٠) ينظر: مقاييس اللغة: ٣٩٢/٤.

(٦١) لسان العرب: ٢٩٩/١٠.

(٦٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٣٤/١.

(٦٣) مقاييس اللغة: ٣٩٤/٤.

(٦٤) الفروق اللغوية: ٥٩.

(٦٥) معجم الفروق اللغوية: ٤٢٤، وينظر: الصحاح: ١٥٤١/٤، ومجمع البحرين: ٣٩٤/٥.

(٦٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١٢١/٣.

(٦٧) التبيان في إعراب القرآن: ٩١٩/٢.

(٦٨) الآيات الأخرى هي قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (سورة الكهف/١)، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(سورة الزمر/٣٦)، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(سورة النجم١٠)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(سورة الحديد/٩).

(٦٩) تنوير المقباس: ٣٠٣.

(٧٠) التحرير والتنوير: ١٧٢/٩.

(٧١) معجم الفروق اللغوية: ٧٩.

(٧٢) تفسير الإمام العسكري: ٢٥٢.

(٧٣) تفسير القرطبي: ٢٩٥/١١.

(٧٤) مقاييس اللغة: ٣٥٨/٢-٣٥٩.

(٧٥) لسان العرب: ٣٠٨/٤.

(٧٦) ومنها قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل/٤٤)، وقوله تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا

عَذَابِ﴾(سورة ص/٨)، وقوله تعالى: ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (سورة الزخرف/٨).

(٧٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٥٧٢/٢، مجمع البحرين: ١٩/٢- ٢٠.

(٧٨) معاني القرآن للفراء: ٨٥/٢

(٧٩) معاني القرآن وإعرابه: ١٧٤/٣.

(٨٠) مجمع البحرين: ٨٧/٣

(٨١) ينظر: لمسات بيانية: ٧٧٦.

(٨٢) التبيان في تفسير القرآن: ٣٨٤/٦.

(٨٣) تفسير فرات الكوفي: ٢٣٥.

(٨٤) المصدر السابق.

(٨٥) تفسير العياشي: ٢٦١/٢.

(٨٦) جوامع الجامع: ٣٦٧/٢.

(٨٧) مجمع البحرين: ٨٥/٣

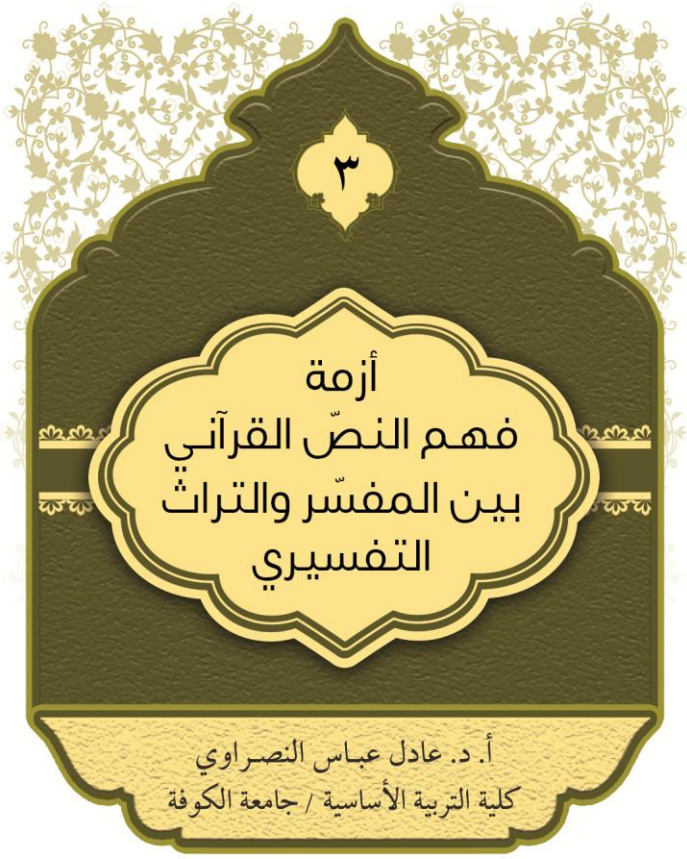

أ. د. عادل عباس النصراوي
كلية التربية الأساسية / جامعة الكوفة

مدخل:

تختلف رؤية المفسّر عن غيره في النظر إلى النصّ القرآني، وأعني بالمفسّر الذي لا يقف عند حدود لغة النصّ أو عند جزيئة معيّنة منه أو أن يكتفي بظواهر النصّ من دون الغور في أعماقه، كما أنّ عليه أن لا يلتمس أفكاره من شرعةٍ ضيقةٍ أو مشربٍ واحدٍ؛ لأنّ الاطلاع على مجمل الأفكار والآراء سواء أكانت متفقة مع بعضها أم مختلفة، هي مفيدة في معرفة رأي الآخر ذي الثقافة الأخرى والفكر الآخر، وهذا سيوجّه ضوءاً كاشفاً على بعض خبايا النصّ عن طريق منهجه الذي يختلف عن المناهج الأخرى، فعليه إنّ المفسّر لا يكتفي بظواهر النصّ القرآني تفسيراً وتحليلاً، وإنّما عليه أن يذهب إلى أبعد من هذا التفسير في محاولة للكشف عن المعاني الأخرى التي تعذّر الحصول عليها من خلاله؛ لأنّ التفسير لوحده يدلّ على مجرد التفاصيل التطبيقية والوسائط الجزئية المفضية إلى إدراك الظواهر ويعتمد في كلّ ذلك على أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد وغيرها من علوم القرآن الأخرى التي تهتم بظاهر النصّ أولاً وقبل كلّ شيء، في حين أنّ المخزون الدلالي الآخر الكامن بين سطور آياته وكلماته وحروفه يبقى مقيّداً فيها لعدم إمكان تلك العلوم التطبيقية تحفيزها لأجل حضور المعاني المتضمنة فيها.

إنّ استعمال العقل المستَنْبِط لفهم آيات النصّ وسوره سيُفضي إلى علم آخر لم يكن معهوداً في التفسير، بمعنى أنّ النظر إلى النصّ من الناحية العقلية لإدراك ظواهره هو عمل استنباطي تُسهم فيه علوم القرآن كذلك وتعضده المفاهيم الأساسية للقرآن المتفق عليها عقلياً.

لذا كان من الواجب أن لا يقف المفسِّر عند حقبة زمنية معيّنة والاكتفاء

بما ذكره القدماء سواء أكانوا صحابةً أم تابعين أم مفسّرين، بل يجب تجاوز التصوّر السلفي لفهم النصّ القرآني؛ لأنه نصٌ متجدِّدٌ، ولأنّ هذا التصوّر أو هذه القراءة تُعَدُّ من سمات التفسير التراثي للقرآن، وهي -في الحقيقة- قراءة أُحادية لأنّها معتصمة داخل علوم القرآن بحسب المنهج التراثي، وهي قراءة نجدها في أغلب التفاسير القديمة وحتى المعاصرة منها، وإن بدت في ظاهرها جديدة، إلاّ أنّها إعادة إنتاج للشروح التي قبلها، وتتسم هذه التفاسير التراثية بعدم اختلافها في المنهج عند أغلب المفسّرين عَبْرَ الحقب الزمانية، وهذا يعني أنّها لا تعتمد التطور التاريخي لمجمل الحياة العامة للمجتمع الإنساني، بمعنى أنّها ذات فهم (لا تاريخي) للنص القرآني أي هي معتمدة على مقولة (العبرة بدلالة عموم اللفظ لا بخصوص السبب) وهذه القاعدة تتيح استبعاد الظروف التاريخية المتمثلة بسبب النزول ومتجهة إلى عموم اللفظ[1] كي لا يترتّب على ذلك من تفسير تاريخي للآيات وأن لا يكون التاريخ محدِّداً للخطاب؛ لذا نفوا عن مبحثهم في أسباب النزول «جريانه مجرى التاريخ» بمعنى أنّ أسباب النزول لم تقف حائلاً أمام تعدي النصّ في دلالته إلى غير أسبابها[2].

لكن مع اعتماد المفسّرين على هذه المقولة، تراهم في مواضع أخرى يحاولون أن يتجاوزوها عندما يصطدموا بمفهومٍ يُحدِّد مسار النصّ ويقيّده باتجاه معيّن في الاستدلال على قضية معيّنة لا تتفق مع توجهاتهم الفكرية أو العقلية.

إنّ السمة اللاتاريخية للقرآن الكريم -بحسب المفسّرين- تنطلق عند أغلبهم من أمرين أساسيين هما: مفهوم الوحي، ونظرية قِدَم القرآن، وقد حاول بعضهم أن يفرّق فيما نزل على النبي محمد صلى الله عليه وآله أهو وحيٌ أم إلهام؟ فإذا كان ما نزل من الله سبحانه على نبيّه وحياً

منه فإنّ ذلك يجعل من النصّ المُوحى هو كلام الله تعالى ذاته بحرفه ومعناه، وفيما إذا عُدَّ إلهاماً يجعل من النصّ القرآني هو كلام الله تعالى ذاته بمعناه وينطق به الرسول صلى الله عليه وآله بألفاظه وكلماته، وهذا المفهوم الإلهامي للنصّ القرآني المقدّس لا يستبعد تجربة النبي محمد صلى الله عليه وآله في صياغته وتشكيله فضلاً عن خصوصيات العصر، ممّا يجعل لأسباب النزول دخلاً في ذلك أيضاً.

لكن السائد في التراث الإسلامي أنّ مفهوم الوحي هو المؤثر في كل ذلك وأنَّ مسألة الإلهام تنحدر في مجمل التراث التفسيري للنص، ويرى أصحابها أنّ وظيفة النبي محمد صلى الله عليه وآله قد قَصُرت على التبليغ فقط مستشهدين على ذلك بقوله سبحانه: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[٣]، وقوله: ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾[٤] وغيرها من الآيات القرآنية الأخرى التي تُحدِّد في ظاهرها وظيفة النبي محمد صلى الله عليه وآله، غير أنّ المدقّق في مثل هذه الآيات يجد تحديداً للوظيفة بقضية معيّنة وإيكال أمرها إلى الله تعالى وذلك بسبب ظروفٍ معيّنةٍ حدّدت عمله ضمن أسباب نزول الآية، فمثلاً قوله سبحانه: ﴿**وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[٥]، ففيه أنّ الله سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه وآله بإبلاغ الناس ودعوتهم (إلى الإيمان بالإسلام ديناً، فلمّا كفروا بما يدعوهم إليه ورفضوه أُمِرَ صلى الله عليه وآله بتركهم وشأنهم لأنّ واجب النبي الدعوة إلى الحق، وأمّا ما بقي من أحوالهم وحسابهم فذلك ما يتكفّل به الله سبحانه في محاسبة عباده)[٦]، إذ لم يكن من وظيفته صلى الله عليه وآله حسابهم يوم القيامة فذلك من شأن الله سبحانه وحده لا يُشركه بذلك أحدٌ من البشر، وعليه لا يمكن تقييد وظيفة النبي محمد صلى الله عليه وآله على وفق ما يُوحيه ظاهر هذه النصّوص أو غيرها.

إنّ ما يذهب إليه بعض مفسّري القرآن الكريم أو الباحثين من أنّ القرآن إلهامي يخرج بالنصّ إلى مخالطة الإلهي بالبشري وهذا ينسجم مع فكرة خلق القرآن التي أثيرت في عصور التأسيس الفكري والعقدي التي تَعُدُّ القرآن نصاً لغوياً قابلاً للدرس والبحث من دون أن يمسّ ذلك بقدسية مصدره.

ويرى بعض المعاصرين أنّ قضية الوحي تحدّ من وظيفة النبيﷺ، وأنّه لم يَعُدّ سوى وسيلة للإبلاغ فيؤدي إلى الناس ما يأتيه به جبريل[٧]، وهذا كلام غير دقيق، لأنّك تجد أنّ القرآن الكريم قد وجَّه ليكون النبي محمدﷺ مشرِّعاً لدين الإسلام عندما أمر الله تعالى عبادَهُ أن يأخذوا عنهﷺ تشريعاته وتوجيهاته وعقليته وكلّ ما يتعلّق بحياة الناس، قال تعالى: ﴿**مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[٨] وغيرها من الآيات القرآنية، أمّا فكرة الإلهام - بحسب ما يرون - فتجعل للنبي دوراً محورياً في خلق القرآن، أي أنه يؤلّف ما يأتيه من الله سبحانه بحسب ما يراه ويفهمه وذلك من خلال قوة خارجية تستحوذ عليه ومثله مثل الشاعر تماماً، وإنّ الإلهام نابعٌ من الداخل أو من الخارج، لا موضوعية له هنا، وأنّه لا يشمل النبي لوحده، بل ينبثق من كلّ نفس وكل شخصية إلهية، وأنّ النبي يختلف عن سائر الأشخاص؛ وذلك لأنّه أدرك إلهية هذه النفس، بمعنى أنّ نفسه اتحدت مع الله، فيكون النبي على وفق هذا المفهوم خالقاً للوحي بشكل آخر، غير أنّ هذا الوحي لا يمكن بيانه للناس؛ لأنّه خارج مستوى فهمهم وفوق مستوى الكلمات وقد صاغه النبي في إطارٍ خاص ليجعله في متناول فهم الجميع[٩].

هذا الفهم غير دقيق أبداً، ولعلّ ما يُسقطه كائن عند المقارنة بين الأحاديث النبوية الصحيحة والقرآن الكريم، إذ تجد بوناً شاسعاً بينهما لغةً ونظماً وتركيباً، ويشعرك الحديث النبوي

الشريف ببشريةٍ واضحةٍ، ويشعرك القرآن الكريم بألوهية مصدره معنى ولفظاً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[10]، إذ أوضح الله تعالى هيئة الوحي وطريقة إلقاء القرآن لفظاً ومعنى على النبي محمدصلى الله عليه وآله، وفي مكان آخر من القرآن يصف الله تعالى تلقي الوحي من خلال قراءة الألواح، قال سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾[11].

إذن، الانسياق وراء فكرة الإلهام يُفقد النصّ القرآني بريقه ومضامينه ويجعله حبيسَ عصر نزوله بسبب ما لحقه من صفات البشرية، فيما أنّ فكرة الوحي تجاوِزُهُ عصر نزوله إلى عصور تالية له وتحمّله معانٍ ودلالات متجدّدة؛ لأنّ الوحي يجعله متفاعلاً مع كل الظروف والمتغيرات، فضلاً عن ذلك تمنح المفسّر فسحةً من إمكان تأويل النصّ، ومحاكاته عقلياً من خلال استنطاقه، وقد أفاد منه أصحاب المنهج العقلي في تفسيره وبيان أحكامه ودلالاته، إذ إنّ هؤلاء لم يتعاملوا مع النصّ القرآني تعاملاً لغوياً بحتاً؛ لأنّ هذا التعامل لا ينتج دلالة أكثر من الدلالة التي يوحيها ظاهر النصّ، وهنا سيظهر إشكال يتمثّل في ظهور دلالة قاصرة عن استيعاب كلّ الحالة التي نزل بها القرآن الكريم، في حين أنّ النظر إليه بأبعد ممّا في اللغة سيفيض بدلالات أخرى لم تكن ظاهرة على سطح النصّ، غير أنّ هناك من يأخذ بالظروف الحافة به فيُعمل العقلَ في النصّوص فيتجه إلى التأويل ومحاولة استنطاق النصّ من خلال إثارة أسئلة موجَّهةٍ له، ثم يقوم

النصّ بالإجابة عنها، وهنا ستكون الإجابات غير قسرية لأنّ أصل العملية تعتمد على العقل والمنطق الموجِّه للنص.

لكن عندما تبدأ عملية الاستنطاق هذه ستكون الإجابات نسبية أيضاً، لأنّ النصّ سيجيب على قدر تلك الأسئلة، ولا يجاوزها خشية أن لا تكون مفهومة من السائل أو المفسّر.

إذن عملية الاستنطاق تعتمد على عناصر متعددة وغير متعلّقة بالنصّ لوحده، فهنا يدخل المتلقي السائل، ونوع الأسئلة، والظروف المحيطة بتلك الأسئلة، وطريقة صياغتها وتركيبها وحدودها وغيرها، ممّا يُؤَثّر على طبيعة الجواب الذي تكمن فيه مجمل الدلالة.

على وفق ذلك ستكون نتيجة الاستنطاق هذه ظهور اجتهادات متعدّدة ورؤى مختلفة تبرز من خلال فهم الإجابة التي أباح بها النصّ بعد استنطاقه.

مع كلّ ذلك قد ينكل المفسّر المؤوّل- أو يضُنَّ بالمعنى بسبب من المتلقي ومحدوديته، فتكون عملية مراعاة المتلقي محدِّدة لأبعاد الدلالة أو تكون مهيمنةٍ على النصّ، وهذا ما أشار إليه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام لما أنكروا عليه تحكيم الرجال فذمَّ أصحابه عندما اختلفوا في تأويل القرآن، إذ عدّ تأويلهم ليس بحكم للقرآن، فقال: (إنّا لم نحكّم الرجال وإنّما حكّمنا القرآن، وهذا القرآن إنّما هو خطٌّ مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولابُدَّ له من ترجمان، وإنّما ينطق عنه الرجال)[١٢]، فيكون العيب بمستوى فهم النصّ وليس في النصّ ذاته؛ لأنّه عندما خضع لعقول الرجال أضحى فهمه بمستوى عقولهم، ولمّا كانت مستويات العقول متفاوتة في الفهم اختلف لديهم فهم القرآن الكريم وهو أوسع من فهمهم، لأنّك تجد في القرآن فسحةً واسعةً لتعدّد المعنى واتساعه، وهنا سيختلف مقدار التلقي ونوعه من متلقٍ لآخر؛ لذا كان الإمام

عليّ بن أبي طالب عليه السلام يدعو عبدالله بن عباس أن يحاججهم بالحديث النبوي، بوصفه كلاماً بشرياً تتحدّد فيه التفسيرات، لأنّه موجّه إلى بشرٍ تبعاً لحادثةٍ أو سؤالٍ أو غير ذلك، فتتحدد الإجابة تبعاً لحدود السؤال أو التوجيه وهذا خلاف ما كان عليه القرآن، ويتضح ذلك في وصية الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى عبدالله بن عباس لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج قال فيها: (لا تُخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّالٌ ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاجَّهم بالسنة، فإنهم لم يجدوا عنها محيصاً)[١٣].

فتتعدّد القراءات للنص القرآني، في حين تتوحّد في الحديث الشريف، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة النصّ القرآني الذي اتخذ سمة الإجمال والإشارة والرمز (فتتعدّد التأويلات، ثم هناك قياس الوقائع المتجدّدة على النصّ الثابت المجمل العام، وكلّ هذا يؤدّي إلى اختلاف في «القراءة» فينتصب على رأس كل «قراءة» إمام يتحلّق حوله أتباع، وهكذا تنشأ المذاهب وتختلف)[١٤] فيما بينها، وربما تفضي هذه القراءات إلى أن تستبدَّ قراءةٌ واحدةٌ فتحتكر المعرفة بفرض الرأي الأوحد لها على باقي الآراء الأخرى بمساعدة السلطة الحاكمة أو بالعنف أو بأيةٍ وسيلةٍ أخرى قائمة يمكن الاستفادة منها، وتبقى باقي الآراء مهمشة أو مستبعدة، غير أنّ السلطة الفكرية هذه حاولت إيجاد وسيلة لجمع باقي الآراء تحت عباءتها الفكرية أو المذهبية فأسست مقالة «الإجماع» بمعنى الاتفاق على أمرٍ ديني معيّن عن اجتهاد من خلال إحداث تسوية بين المذاهب والآراء، يدعمه -بزعمهم- النصّ المقدّس ورأوا أنّ هذا النصّ المقدّس المُقتدى به واحدٌ، فيكون من المحال أن يقع الاختلاف، فعند ذلك يكون الخروج عن هذا الإجماع هو بمثابة الخروج عن

الشرعية، بمعنى أنّ وقوع الاختلاف بعد الإجماع هو اختلاف حول تأويل «النصّ» والخروج عن الإجماع هو خروج عن الفهم الصحيح للنص المقدّس، وهذا مما يُحرّم حقّ الاختلاف على الآخرين[١٥]، فتصير الأمور إلى التقييد وعدم الانفتاح على الآخر الفكري أو العقدي الذي يرى رأياً غير ما تراه الجماعة المتفِقة على إجماعها.

أزمة قراءة النصّ القرآني:

تختلف القراءة للنص القرآني من زمنٍ لآخر فقراءته زمن النزول ينبغي أن تختلف عن القراءة بعد قرنين أو ثلاثة قرون أو أكثر، وهي تختلف قطعياً عن القراءة المعاصرة؛ وذلك لأنّ القيم المعرفية والفكرية والعقدية تختلف من زمن لآخر، فضلاً عن تطوّر ثقافة القارئ والمتلقي للنصّ القرآني في كلّ عصر، هذا هو السلوك الطبيعي في القراءة الصحيحة لأي نصّ كان سواء أكان نصّاً دينياً أم غيره.

لكن على المفسّر أو قارئ النصّ أن يضع نَصْبَ عينيه عند القراءة المتفحصة أن ينطلق من قاعدة حضور التراث التفسيري في استجلاب المعنى أو الدلالة القرآنية؛ لأنّ قراءة التراث المسبقة تُظهر مدى الحراك الفكري الذي أحدثه القرآن الكريم عَبْرَ عصور دراسته وتفسيره، لذا كان على المفسّر أو القارئ أن لا يستغني عن التراث كلياً، بل يجعله أصلاً ينطلق منه نحو الحاضر، وكذلك عليه أن يستحضر قضايا العصر الفكرية والاجتماعية والأخلاقية في ممارسة فكرية كبرى مع التراث التفسيري والفكري معاً وتكون بذلك قراءة متميّزة لم تهمل الماضي ولا الحاضر، بل من خلالهما سيكون الانطلاق إلى المستقبل أسهل ممّا لو أحدث قطيعة مع أحدهما.

كما ينبغي عند دراسة التراث التفسيري أن نكون على حذرٍ كبير من القراءات السابقة؛ وذلك أنّ بعضها

قراءات أيديولوجية أو عقدية للنص، فلم تراعِ أصل النصّ وتفهمه كما هو وإنّما هناك قراءات لم تعدَّ القرآن الكريم أصلاً تُحمل عليه الآراء والمذاهب، بمعنى أنّه كان قد اسُتبيح حتى أصبح التراث التفسيري للعلماء يُحْمل عليه القرآن الكريم، وهذا خلاف القراءة السليمة، إذ أقحم المفسّر آراءه الفقهية والكلامية وتخريجاته الأصولية وجدله الكلامي في النصّ القرآني، وكأنّها مسلَّماتٌ، وأخذ المفسّر يبحث في القرآن الكريم عن آية أو سورة يحملها على أقواله[١٦]، بمعنى أنهم لم يجعلوا القرآن هو الذي يُقاس عليه، بل عملوا خلاف ذلك.

كما ينبغي أيضاً أنْ يُدرس التراث دراسة معمّقة؛ ففيه المدنَّس والموضوع من الحديث والأخبار فضلاً عن نَقَلَة الأحاديث والأخبار في التفسير وغيره، ممّا لا يمكن الاطمئنان إليها بسهولة وذلك من خلال مراجعة شاملة للظروف المحيطة بها.

إذن، نجد أنّ هناك أزمةً حقيقةً في تفسير النصّ القرآني، تتمثل في الأزمة التي تعيشها الأمة المتمثّلة بتراثها الكبير والواسع الذي لا يمكن الإحاطة بكل تفصيلاته بسهولة ويُسر، أي نحن -كما يرى أحدُ الباحثين- أمام أزمة كبيرة تجاه التفسير تمثّلت باتجاهين: الأول يرى الأزمة في الظرف والسياق التاريخي اللذَيْن تعيشهما الأمة اليوم، مما يجعلها أبعد ما يكون عن الاستفادة من التراث التفسيري لما فيه من ألغام لا يمكن توقّع أيّها تنفجر وفي أي زمن أو مكان، والاتجاه الثاني عَبَّر عن وعيه بالأزمة التي يعيشها علم التفسير على أنّها أزمة نمو وأنّها لابُدَّ أن تُحسم من خلال إعادة النظر في العلاقة بين المفسّر وتراثه التفسيري وبالأخص في مجالات المنهج وطبيعة العلم نفسه[١٧]، أي أنّ العلاقة يُحددّها المنهج المستعمل في القراءة، وبما أنّ المنهج المتّبع يجب أن يكون وليد البيئة التي وُلِد فيها النصّ لا أن نأتي

بمناهج لا علاقة لها بالمتغيرات الثقافية والاجتماعية للمجتمع المسلم، فهنا -إذا اقتضت الضرورة- علينا أن نكيّف بعض مفاصِلهِ المتعلقة بالبيئة الأم بما يُوافق البيئة المسلمة المتلبّسة بتعاليم القرآن والتراث الإسلامي العتيد.

وهناك أمرٌ مهم في فهم النصّ القرآني، وهو أنّ على المفسّر أو القارئ أن يدرك العلاقة التاريخية بين النصّ والمحيط الاجتماعي بكلّ توجهاته الثقافية والمعرفية، أي أنّ فهم النصّ سيظل مرتبطاً بزمنٍ وإطارٍ حضاريٍّ وثقافي غير ثابت، وإذا فُهِمَ ضمن زمنٍ معيَّنٍ وإطار حضاري معيِّن، يبقى حبيسَ ذلك الإطار وعنده سوف لا تجد للنص القرآني فاعلية في محاكاة الواقع الجديد؛ لأنّ القيم الحضارية تلك لا يمكنها أن تتمدّد إلى عصورٍ تالية لها، وإن حدث مثل ذلك فسيُكتَب للنصّ الوقوف عند ذلك الزمن.

إذن، سيكون الوقوف عند الفهم التراثي كمن وقف أمام معالجة قديمة لا يمكن تجاوزها، وإذا تجاوزناها سيكون ذلك مجرد انحراف لا يُساعد على تفهّم سليم للتراث التفسيري[١٨]، كما أنّ الانحراف سيواجه بصدمة كبيرة، وهذا التوجه يُشَبّه بمن يسير في أرضٍ ملغومة إذ يجد المفسّر العصري نفسه محاصراً بالمسلّمات وبالقناعات التي لا تتزحزح وبالانحيازات والأحكام المسبقة، وهذه كلّها تتناسل في الممارسة شكوكاً واتهامات وأنواعاً قاتلة من التعصّب[١٩]، تحرسها مؤسسة سياسية لا تقبل بالتجديد أو الممارسة النقدية تجاه التراث، لأنّ مثل هذه الممارسات ستعمل على تقويض السلطة السياسية بسبب من وعي النصّ؛ لذلك تعمل هذه المؤسسة على حماية هذا التراث التفسيري الذي في أغلبه صنعته المؤسسة السياسية الحاكمة، وهنا يكون هذا التراث قد ارتبط بهذه المؤسسة التي عملت على تحويله إلى سلطة حتى صار

بمستوى المؤسسة يفرض قيماً معيّنة وعلاقات معيّنة، وأنّ أيّ خروج عليه سيُحمل على أنّه مروق عن الدين، أو الالتزام بالخضوع أو التبعية لسلطانه وهذا هو الاهتداء بزعمهم[٢٠].

إنّ القراءة المعاصرة للنص القرآني تتجاوز هذه الانتكاسات على مستوى الفكر أو تحجيم العقل أو إهمال القارئ أو المخاطَب أو الاستخفاف به من خلال وسمه بالمروق عن الدين أو الانحراف أو الكفر؛ وذلك أنّها ترى النصّ القرآني المبارك قد أشرك المخاطَب في إنتاجه، أيّ أنّ الإنسان العربي أبان نزول القرآن الكريم والإنسان العالمي في عصرنا الحاضر هو المخاطَب به قبل كلِّ شيءٍ، لذا فإنّ النصّ القرآني لأجل أن يكون مفهوماً من الجميع لابُدَّ أن يكون قد اهتم واضعه وهو الله تعالى بالمخاطَب بوصفه الشخص الموجّه إليه الخطاب القرآني، لذا لابُدَّ أن يرعاه في إنتاج الدلالة، فضلاً عن مراعاته في السياق الذي يرد فيه.

وهنا يتحقّق في النصّ القرآني ثلاثيّ محدِّد للدلالة القرآنية تتعاون فيما بينها في الصياغة النهائية لشكل النصّ ودلالته، وهذا الثلاثي يتألف من المتكلِّم وهو الله تعالى والمخاطَب وهو الإنسان والسياق الذي يرد فيه النصّ.

لمّا خاطب اللهُ الناس خاطبهم بمستوى عقولهم وأفهامهم، وهذا يقتضي من المتكلّم أن يكون خطابه مفهوماً من الجميع، ثم إنّ السياق هو الآخر حاكمٌ على إنشاء المعنى والدلالة التي يبتغيها منتجا النصّ الديني بعمومه (المتكلِّم والمخاطَب) بحسب المفهوم الحديث لتداول الخطاب بين المتكلمين والمخاطَبين.

ولمّا كان الخطاب القرآني قد نزل مخاطِباً فيه كلّ الناس (يا أيها الناس...) ولمختلف العصور، إذن، لابُدّ أن يُفهم على أنّه خطابٌ عالميّ، وهو كذلك لذا

نـراه محـتملاً لأوجـه دلاليـة متعـدّدة لا تتموضع في حيزٍ مكاني أو زمـانٍ معيّنٍ، وبهذا يكون غير مقيّدٍ بمعنى واحدٍ، وأنّ طبيعة تركيبه ونظمه تومئ إلى ذلك، لـذا فإنّ حصره في مقامٍ معيّن وحـدود معيّنـة يعنـي إهـداراً للأوجـه الدلاليـة الأخـرى التـي يكتنفهـا الـنصّ الكـريم، وقـد قـال الإمـام علـيّ عليه السلام: (القـرآن حّمـالٌ ذو وجوه)[٢١].

على وفق هذا يجب على المفسّر أن يفهـم العلاقـة الثلاثيـة (المـتكلم «الله» - المخاطَـب «الإنسـان» - السـياق) وأن يـدرك أنّ هـذه العلاقـة ليسـت علاقـة اعتباطيـة، وإنّمـا هـي علاقـة مبنيـة علـى القصد، وبذلك يكون قـد وضـع القـرآن الكريم بداخله سلطة كبـرى محصّـنة لـه من السـطو علـى الـنصّ أو التقيّـد بمعنـى واحـد وإهمـال بـاقي المعـاني الأخـرى قصد الاستحواذ على دلالاتـه وتوجيهها باتجـاه المفسّـر أو المؤسسـة السياسـية الحاكمة للإفادة الخاصة منه، فضـلاً عـن إلغاء دور المخاطَب وجعلـه منحـازاً إلـى مـا تـراه السـلطة أو التلقّـي عنهـا وعـدم الانفتاح على النصّ القرآني.

هذه الثلاثيـة تعمـل علـى تفعيـل دور العقـل عنـد محاكـاة النصّـوص أو محاكمتها؛ لذا بـرزت بعـض التوجّهـات العقلية في تفسير الـنصّ القرآنـي، ولعـلّ من أظهر التفاسير التي ظهرت في العـالم الإسـلامي علـى وفـق هـذه التوجّـه هـو تفسير الكشاف للزمخشري، مع مـا عليـه من ملاحظات.

علـى أنّ القـراءة القديمـة تقـوم هـي الأخرى على ثلاثية معتمدة على التـراث التفسيري الذي بُنـي علـى قـراءات أولـى للـنص أبـان نزولـه أو بعـد ذلـك بقليـل، وهـي المتمثلـة بالروايـات والأخبـار عـن النبي محمـد صلى الله عليه وآله وأصـحابه أو التـابعين لهم، ثم تمثّلت بكتب معاني القرآن، ثـم بُني عليهـا مـا بُنـي مـن تفاسـير اعتمـدت عليهـا، ولعـلّ أكثرهـا كانـت نَسْـخاً واجتـراراً للمصـنفات الأولـى، فتـرى

المفسّر أو القارئ لا يستطيع الانفلات أو الانفكاك من قيودها حتى طغت تلك الأخبار على أصل النصّ، وربما عملوا على توجيه النصّ بوجهٍ غير مراد النصّ من خلال اختلاق ووضع أخبار وأسباب نزول وغيرها بما يُحاكي رغباتهم التي قد تتجاوز النصّ القرآني فيكون النصّ على وفق هذا نصّاً ثانوياً.

إذن، تجلّت هذه الثلاثية بعناصر هي (التراث التفسيري، المفسّر، النصّ)، ففي العصور الأولى كان التراث التفسيري ينحصر - كما علمنا من قبل - بالروايات المنسوبة إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله والصحابة الأجلاء والتابعين، والمحدّثين فيما بعد، إذ كان هذا التراث المعُتَمد في فهم النصّ القرآني قد كُتِبَ بعد عصر الرسالة بأكثر من قرنٍ من الزمان؛ لذا كان يشوبه كثير من التدليس والوَضْعَ ممّا جعل المفسّرين المنصفين يتوقفون حيال هذا التراث التفسيري وقفات كثيرة لأجل التدقيق في الرواية، وبيان الصحيح منها والموضوع وغير ذلك.

في حين كان التراث التفسيري بعد واضعي التفاسير الأولى من نحو كتب معاني القرآن ومجازه وغيرها، قد اتجهوا اتجاهاً آخر، ففضلاً عن الاعتماد على الرواية والخبر فقد اعتمدوا أيضاً كتب المعاني المذكورة آنفاً، وعدّوها أصولاً لهم مضافاً للرواية فيكون بذلك قد اتسع هذا التراث وبدت منظومته أكثر اتساعاً حتى أخذت حيزاً كبيراً في ذلك، وهذا ممّا وسَّع الرؤى التفسيرية بتوسّع مشارب المفسّرين حيث يدخل المفسّر طرفاً ثانياً في المعادلة التفسيرية كمصدر للتفسير أو كدالٍ على المعنى، وهنا ستتقاطع الرؤى من جديد بين القراءة الأولى والقراءة الجديدة، حيث تُضاف رؤىً جديدة تحدّ مسار المعنى في النصّ القرآني، وغالباً ما ينصاع المفسّر إلى رؤاه الفكرية والعقدية والثقافية في إظهار المعنى وابرازه من النصّ، وهنا ستجد النصّ القرآني المبارك مطواعاً

لكلّ تلك التغيّرات ليدخل طرفاً جديداً في هذه المعادلة بوصفه حاملاً للمعنى ومكتنفاً للدلالة، لكن اختلاط الفهم البشري للنص القرآني حين تتقاطع الرؤى بين التراث التفسيري عبر عصوره المتوالية مع المفسّر بشكل رئيس تُفقد النصّ حيويته، فيكون نصّاً مهمَّشاً وغير فعّالٍ في خضمِّ هذه المعادلة، وذلك أنّ المفسّر سوف لا يستطيع الانفكاك من قيود التراث الذي ترعاه المؤسسة السياسية عَبْر العصور المؤلِّفة له؛ لذا ستكون رؤاه منقادة له، لأنَّ ثقافته في أصل تكوينها وبنائها قد ترسّخت فيها قيم التراث، فهو وإن حاول التخلّص منها فإنّه سيجد نفسه منقاداً إليها من دون وعي منه ومبتعداً عن أصل النصّ القرآني.

وعوداً على بدء، ففي القراءة المعاصرة للنص القرآني يجب النظر إليه على أنّه وحدة واحدة لا تتجزأ بمعنى أن لا نتعامل مع النصّ بصورة مجزّأة ولا نركّز على الأحكام الجزئية، بل يجب النظر إلى النصّ القرآني كمنظومة متكاملة مع الواقع الذي نزل به النصّ والواقع المعاصر، أي اندماج النصّ القرآني مع أسباب النزول والبيئة التي نزل بها النصّ المبارك والنظر إلى متطلبات العصور التي بعده، بمعنى أنّ تحديد دلالة النصّ العامة لا تُحدَّد بأسباب نزول فقط، بل لابُدّ من النظر في نسقه اللغوي والتركيبي والبنائي الذي يمكن من خلاله استخلاص دلالات جديدة - هي في الأصل كامنة داخل النصّ - وقد استشعر الواقع ضرورة ظهورها وفق المعطيات الجديدة، وهذا النسق التجديدي في تفسير النصّ يُعنى بالمعاصرة، وهو يتصل بالواقع الإسلامي بمعطياته الجديدة وبالفكر عموماً الذي أصبح ذا أثرٍ فعّال من خلال الاختلاط والاقتراب وحدوث التأثير المتبادل بين الأفكار والرؤى التي تُحدث بدورها تجديداً فكرياً، أي نحن تجاه عولمة

فكرية يُكتب فيها البقاء للفكر الأصيل الذي تمتد جذوره إلى أعماق التراث الإنساني بعيدةً عن تأثير الدين كمحدِّد فكريّ ومقيّدٍ للسلوك وفق رؤاه وتعاليمه التي غالباً ما تكون رؤى بشرية صاغتها أفكار الفقهاء والمفسّرين وعقولهم، وبما أنّ ارتباطهم كان بالنصّ الديني فقد أضحت مقولاتهم وأفكارهم وقد اكتسبت شيئاً من قدسية النصّ القرآني، وبالنتيجة أصبحت ذات أثرٍ كبير في مسيرة المجتمع والناس، وهذا مما يُفضي إلى جمودٍ فكري؛ لأنّه سيبقى معتمداً على التراث التفسيري ومحاولة الإفادة منه، فهو لم يُكلّف المتتبّع أو المفسّر جهداً في استقصاء الدلالة فهي جاهزة لديه وموجودة في طيات التراث التفسيري الكبير، فهنا يجد المفسّر استراحة من عناء البحث والتقصّي، فيبقى متكلّساً بحدود تعاليم ورؤى تراثية صاغتها عقول قبل ما يقرب من عشرة قرون من الزمان.

لم يخلق هذا الاتجاه في التفسير مرجعيةً تفسيرية أو فكريةً جديدةً، وإنّما يبقى متموضعاً ضمن مساحة التراث بكل قيمها وتعاليمها وأفكارها السائدة قبل أكثر من عشرة قرون من الزمان.

المعاصرة تبني منهجاً عملياً ومرجعيةً جديدة توائم العصر ومتطلباته الحداثية وقيمه المعرفية وتتجاوز الماضي مع الاحتفاظ ببعض القيم المشتركة والمستثمرة من الماضي إلى الحاضر، فنحن لا يمكن أن نجعل كل التراث وراء ظهورنا؛ لأنّنا - في الشرق عموماً والعالم الإسلامي خصوصاً - مرتبطون بيئياً ولغوياً بالتراث وذلك بسبب وجود النصّ القرآني، فحضارتنا (حضارة نص) تعتمد على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، لكنَّ الذي يجعلنا أمام خيار المعاصرة هو أنّ القيم الفكرية والدينية في التراث الإسلامي - في كثير من مفاصلها - لم تعد ملائمة لمعطيات العصر الحاضر وخاصة أنّ هذا التراث

التفسيري أصبح في كثير من الأحيان مقدّماً حتى على النصّ القرآني.

في قراءة سريعة له نجد أنّ الرؤى السياسية والعقدية والاجتماعية والتأثيرات النفسية والاجتماعية موجِّهة لكثير من دلالات النصّ القرآني بما يتسق معها، بمعنى أنّ النصّ القرآني أصبح يحتل ضمن هذا التراث موقعاً متأخراً ضمنه، ولم يَعُد هو المرجع بل أصبح ما يقوله الفقيه والأصولي والمتكلم أو المفسّر هو المرجع الأول، وهذا ممّا أضعف دور النصّ المؤسِّس للحضارة الإسلامية والعربية ونتج عن ذلك تشتت في الروى، وذلك أنّ الرجوع إلى النصّ المؤسِّس وفق رؤية ثابتة منبثقة من الواقع الذي نزل ومجموع المعطيات والمسببات المصاحبة لنزوله وإنتاجه، فضلاً عن تركيب النصّ الذي تعامل على وفق معطيات لغته وفنونها هو الأسلم لإنتاج الدلالة منه، وإذا توجَّه النصّ على وفق هذه المعطيات الموحِّدة سوف يُنتج دلالةً متوازنة منبثقة عن أصل النصّ من دون أي تأثير قد يقع بسبب عقدي أو فكري أو ذاتي، وهذا يعني الرجوع إلى الأصالة النصّية الحاملة لجوهر الدلالة التي استمدت إيحاءاتها الفكرية والمعنوية من الذات الواضعة للنص والمنتجة له التي رأت أنّ هذا النصّ غير محدَّد بزمان أو مكان معيّنين، وبالنتيجة فإنّ أيّ دلالة تفسيرية تراثية نتعامل معها هي ناتجة عن نشاط بشري قاصر عن استيعاب كل محتويات النصّ وغير قادر على استيعاب كل المعطيات التي تحيط به فضلاً عن المعطيات الذاتية الإلهية.

إذن، الوقوف عند التراث التفسيري ينتج لنا رؤية قاصرة عن دلالة النصّ وإيحاءاته، أو أنّها تكون دلالة مشوّهة لا تتفق مع المعطيات الحديثة والوقائع الاجتماعية المتجددة وتقارب الأفكار وتلاحقها بفعل وسائل الاتصالات السريعة في عصرنا الحاضر التي سهّلت

عملية الحوار والاتصال المباشر والانتقال السريع للأفكار عَبْرَ الأثير حتى أصبح من العسير اللحاق بكل التطورات الفكرية يومياً.

إذن، عملية الاعتماد على التراث التفسيري في فهم النصّ القرآني ربّما تجعلنا في مؤخرة الركب الحضاري مع أنّنا نمتلك نصّاً متحركاً عَبْرَ الأزمان ويمكنه اللحاق بكل المتغيرات لو أُحْسِن الإفادة منه من خلال تأويله والتنقيب عن معانيه الكامنة في أعماقه، غير أنّها بحاجة إلى مَنْ يبحث عنها على وفق المعطيات التي نزل بها النصّ.

ثم إنّ في النصّ قابلية كبرى على إنتاج دلالات متجدّدة، لكنّ ذلك لم يكن إلاّ على أساس منح القارئ حرية الفهم وتأييده وتغييب الحكم الشرعي القائم في منظومة التراث التفسيري، بمعنى إحلال النصّ من أي تبعات قديمة عالقة به ومنحه الحرية الكاملة من تلك القيود التي قُيِّد بها النصّ من خلال مسيرته عَبْر العصور منذ عصر التأسيس والى وقت متأخر من عصرنا الحاضر، والنظر إلى النصّ نظرة معاصرة غير متأثرة بفكر سابق أو عقيدة أو رغبة شخصية أو ذاتية.

الأمر الآخر والمهم هو ضرورة إيجاد توازن بين التراث التفسيري بوصفه رؤية كانت قائمة وحاكمة للنظام الفكري العربي الإسلامي، وبين المتغيرات الفكرية الجديدة بوصفها بنية عقلية معاصرة تُحاكي الواقع العربي المعاصر أكثر من الرؤية القديمة وإن بدت الرؤية القديمة هي السائدة في عموم سلوك المجتمع العربي الإسلامي؛ إذ تربّت عليها أجيال كثيرة حتى صاغت المجتمع وفق رؤى وأفكار مَنْ وضعوها، إذ قدّموا رؤيتهم الخاصة بالمجتمع فكانت سلوكاً حاكماً، لكن الرؤية المعاصرة بوصفها تتناغم مع الحالة التجديدية قد تصطدم مع السلوك التقليدي القديم، فهنا يجب أن يُعاد تنظيم الرؤى والأفكار وإعادة

قراءة التراث على وفق الرؤية المعاصرة ثم محاولة إيجاد المشتركات وتنميتها لتكون القاعدة الصلبة التي يمكن الانطلاق منها نحو المعاصرة ومحاولة مجاوزة الأزمة بين القديم والحديث، لكنّ الأمر الأهم في مجاوزة الأزمة فضلاً عن تنمية المشتركات وتوحيدها هو محاولة دراسة التراث وتفعيل المشتركات بما يُناسب العصر لا كما دُرِس في القرون السالفة التي منحته قدسيةً فسوّرت تلك الرؤى بأسوار القداسة الذي يعني أنّ أي محاولة لمعارضته أو توجيه النقد له يؤدي إلى الكفر أو الانحراف عن المقدّس وهذا الأمر يعمل على تكميم الأفواه.

الثابت والمتحرك حيال النصّ القرآني:

تقف عملية فهم النصّ القرآني أمام أمرين مهمين يتعاطاهما المفسّر وفق آلية معيّنة تتحرك من خلالها المعاني والدلالات التي يكتنفها النصّ القرآني، أحدهما متحرك يتعلق بما يُحيطه من أحداث وقيم اجتماعية يتحكّم بها زمن المتلقي وما يتبعه من الأفق الثقافي عَبْر الأزمان ابتداءً منذ نزول النصّ إلى أي عصر يمكن فيه قراءته وما يتبعه من قيم معرفية، فعندما يتحرك الزمن فسينتج عنه قراءات متعددة عَبْر تعدّد الزمان والعصور، فضلاً عن القراءة الأولى المتمثلة بقراءة النبي محمد صلى الله عليه وآله والصحابة والتابعين في عصر التأسيس، فإنّ جموع هذه القراءات تمثّل تاريخ النصّ، فالمفسّر في أي عصر بعد عصر التأسيس لا يمكنه أن يتخلى عن القراءات التي سبقته - شاء أم أبى - وذلك أنّها تشكّل لديه ثقافة لا ينفصل فيها الحاضر عن الماضي، لذا تبقى القيم المعرفية عند النظر إلى النصّ القرآني موجودة في الذات القارئة له وهي متحركة عَبْر كلّ الأزمان والعصور ولا يمكن إهمالها؛ لأنّ في إهمالها تكون القراءة غير مستوعبة لكل مضامين النصّ.

أمّا الأمر الثاني فهو الثابت الممثَّل بالنصّ القرآني في بنيته وطريقة تركيبه ونظمه وأسلوبه الذي نزل فيه، إلاّ أنّ ما يُضاف إلى النصّ القرآني كبنية لغوية ثابتة منذ عصر النزول والى ما شاء الله له أن يستمر، يُضاف له الظروف المحيطة بنزوله المتمثلة بأسباب النزول والروايات والأخبار المصاحبة له التي تشكّل في النهاية تاريخاً للقرآن الكريم، فهو لحظة نزوله يكوِّنُ معنى ودلالة خاصة بتلك اللحظة التي نزل فيها وما عاصرته من ظروف النزول.

إذن، النصّ القرآني ليس مجرد نصّ لغويّ محض بل يتبعه أمور أخرى - كما ذكرناها - وهذه الأمور مهيمنة على النصّ في توجيه دلالاته واستكناه معانيه التي يحملها القرآن الكريم.

النصّ القرآني إلهي المصدر لكنّه عندما نزل إلى الأرض أصبح في متناول عقول الناس وأفهامهم، فكلٌ يفسّره ويحلّل معانيه على وفق رؤاه وأفكاره وهذا ما أشار إليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمّا أنكر عليه بعضهم التحكيم فقال: (إنّا لم نحكّم الرجال وإنّما حكّمنا القرآن وهذا القرآن إنّما هو خطُ مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولابدّ له من ترجمان وإنّما ينطق عنه الرجال)[٢٢]، بمعنى أنّه عندما نزل إلى الأرض أصبح وجهاً لوجه أمام عقول الرجال التي تتفاعل معه، فهذه العقول ستفهم النصّ على وفق إمكاناتها ورؤاها فضلاً عن أثر انتماءاتها العقدية والفكرية، لا كما هو في ذات الله سبحانه ذو المعاني المطلقة، فإنّ الفهم البشري يُحدّد الإطلاق في المعنى والدلالة وهذا المفهوم والرؤيا للنص يدل عليها العقل، إذ لا يمكن بحال أن يُفهم النصّ كما نزل بمضامينه المطلقة، وهذا الأمر لا يخصّ النصّ القرآني أو النصّ الديني عموماً وإنّما تندرج تحته كلّ النصّوص البشرية الأخرى، فتجد نصاً قد فُهِم بأفهام متعددة حتى أنّ

مؤلف النصّ رُبما يستغرب ممّا قيل في نصه أو ما احتُمِل من معانٍ ودلالات.

وهذا يثير الاستغراب - فعلاً- إلاّ أنّ هذه الاحتمالات الدلالية ما كانت إلاّ عندما ثُوِّرت اللغة فأباحت عن مخزونها الدلالي الذي لا ينضب، لكن مع كلّ هذه الاحتمالات والتأويلات تبقى الصورة الدلالية المنبعثة عن اللغة وحدها صورةً مشوهة للمعنى الذي يُراد من النصّ ويراه واضعه؛ وذلك أنّ الظروف الأخرى التي أحاطت بالنصّ أثناء نزول القرآن الكريم مثلا، أو أثناء تأليف أي نصّ لغوي آخر لها إيحاءاتها الدلالية التي يتضمنها ذلك النصّ اللغوي - بأي حال من الأحوال- لذا عندما يُراد فهم ذلك النصّ يجب فهمه وفق هذه المتغيرات التي أحاطت به، وعند محاكمته علينا أن ننظر لكلّ هذه الظروف أثناء نزوله كقرآن كريم أو أثناء تأليفه كأيّ نصٍّ لغوي، ورُبما تمثل الدلالة المنبعثة عن هذه الظروف - فضلاً عن لغة النصّ- دلالة تمثل المرحلة ذاتها.

لكن عندما نتعامل مع النصّ بعد مرحلة التأليف والتأسيس علينا أن نُبقي تلك الدلالة شاخصة أمامنا مع الإفادة من العلوم والمناهج الحديثة في قراءة النصّ الديني، فإنّ هذه المناهج ستُضفي على القراءة الجديدة معالم أخرى لم تكن موجودة آنذاك، فيُدرس النصّ حينئذ على أنّه عمل إبداعي بعيداً عن مُنشِئه أو مؤلفه فيُعاد تصنيف أدواته إلى مكوناتها الأولى ومعرفة الأسس التي بُنِي عليها وفق قوانين اللغة وأساسياتها، ولا يعني هذا إشغال معول الهدم في البنية المكوّنة للنصّ بقدر ما هو عمل يؤدي إلى فهم الآلية التي بُني عليها ذلك النصّ حتى ظهر على السطح بهذا الشكل والبناء؛ لذا تُعدُ عملية تفكيك النصّ عملية كشف عن أصول ذلك النصّ ومكوناته وطرق تركيبه سواء أكانت تلك العوامل والأصول نابعة من داخل النصّ أم من خارجه، إذ كلاهما مؤثّرٌ في فهم دلالته.

فالعوامل الداخلية المؤلِّفة للنصّ تتمثل في بنيته التي كان للغة التي قيل فيها النصّ أثرٌ فعالٌ لا يمكن الانفكاك من أسرها، فهي أصل تكوين النصّ والممثّلة لكلّ أبعاده الداخلية فضلاً عن كونها العنصر الذي يقود عملية البناء لذلك النصّ على وفق أصولها وقوانينها، غير أنّ اللغة لوحدها - ربما في أغلب الأحيان - تُعطي صورة مشوهة للدلالة المطلوبة من النصّ بسبب من النكوص الذي قد يعتريها في الإفصاح عن تلك الدلالة لعدم قدرتها على توظيف العناصر الخارجية معها وبذاتها لذلك.

لذا يجب على المتلقي أن يستحضر العوامل الخارجية المحيطة بالنصّ سواءٌ أكانت عند وضع النصّ وتأليفه أم عند قراءته في كل عصر من العصور، فإنّ هذه العناصر مسؤولة عن توجيه النصّ اليوم وليس بالأمس، إذ سيكون لكلّ عصر عناصره الخاصة التي تُلهم القارئ تلك المعاني الإضافية للنصّ.

لكن ليس كلّ النصوص ستكون بالمستوى ذاته في التعامل مع العناصر الخارجية، بمعنى وجود تفاوت في نسبة توفر هذه العوامل الخارجية المصاحبة من نصّ إلى آخر.

ولعلّ من أهم العناصر الخارجية التي تؤثر في دلالة النصّ سواء أكانت في عصر تدوينه وتأليفه أم وضعه أم بعد ذلك بزمان قرُب أو بَعُد، فلعلّها هي الظروف التي أوجدت النصّ آنذاك وما تطور عنها فيما بعد، إذ إنّ مؤلف النصّ عندما يضع نصّه سيتأثر بتلك الظروف حتماً، وإنّه لابُد أن يكون قد وضع له تصوراً مستقبلياً طال أم قَصُر تجاه ما سيؤول إليه.

كذلك ينبغي ملاحظة ثقافة العصر ومصطلحاته العلمية والفكرية التي تُمثل الإطار الخارجي الذي يُحيط بتلك النصوص، فضلاً عن ثقافة عصر المتلقي والظروف الاجتماعية والفكرية والعلمية والعقدية وكذلك السياسية، فإنّ هذه

كلّها عوامل مهمة توجّه المتلقي في فهم المعنى على وفق هذه الظروف فضلاً عن العوامل الداخلية التي ذكرناها والمؤلِّفة لبنية النصّ.

إذن، نحن أمام عنصرين مهمين يحاصران فهم النصّ ويوجهان دلالته، عنصر داخلي ثابت، وعنصر خارجي متحرك، بمعنى أنّ فهم النصّ سيقف حياله عنصر ثابت وآخر متحرك، الثابت يُحاول أن يأخذ بيد المتلقي إلى كينونته الداخلية المتمثلة باللغة أسلوباً وتركيباً ونظماً وغيرها، وربّما يقف المتلقي عند أحد هذه العناصر وربّما عند أكثر من ذلك، وهو في كل هذه الحالات ينتج صورةً لا تعبّر بشكل دقيق عن الدلالة المطلوبة، فربما وقع المتلقي بفهم سطحي أو ظاهريّ أو قد يكون مؤوِّلاً للنصّ بشكل أو بآخر، وهو في كل ذلك سيكون أسير عامل واحد، وهو اللغة؛ لذا ستكون هذه القراءة ظاهرية لا تتجاوز حدود اللفظة وتراكيبها ومعانيها في أكثر الأحيان، وهذه القراءة يمكن أن يكون لها طابعها المستمر باستمرار اللغة وبقائها على هذا الشكل الظاهر.

أمّا المتحرك، فإنّ الاكتفاء بما يُفضيه من دلالة لا يفي بكلّ دلالة النصّ، بل سيكون الفهم بحدود المعطيات الخارجية المتمثلة بثقافة العصر وإمكانات المتلقي وغيرها مما أحاط بالنصّ مع إهمال أصل تكوين النصّ وهو اللغة.

إذن، علينا أن نضع نصب أعيننا كلا العنصرين كي تكون صورة النصّ واضحة، وبالتالي يمكن فهمه من أكثر جوانبه المتيسرة.

لكن حتى هذا الأمر سيكون نسبياً؛ إذ إنّ المتلقّي سوف لا يرى كلّ جوانب النصّ مضيئة بذات الدرجة والوضوح والدقة، إذ إنّ قوة العناصر الخارجية وضعفها لدى المتلقي مهمة في كشف الدلالة، فربّما يجد المتلقي وضوحاً في زاوية من زواياه بسبب تمكّنه من ذلك

العنصر، وربّما يرى بوضوح أقلّ من زاوية أخرى بسبب قلّة تمكنه من ذلك، لذا يبقى النظر إلى النصّوص في كلّ الأحوال نظراً نسبياً، وكلٌّ يخضع لمجمل الظروف الداخلية والخارجية للنصّ، وهذا أمرٌ إيجابيّ في كلّ الأحوال؛ كي لا تبقى حقيقة النصّ حبيسة عند فئة دون أخرى فتدّعي امتلاكها للحقيقة دون غيرها، ثم تسكن على ذلك ممّا يخلقُ جموداً وتسكن شهوة البحث عند المتلقين عِنْدَما تجمد عند مَنْ اكتملت لديه الحقيقة وتخبو جذوة التقصي عند مَنْ افتقد سراجَ الوصول إليها ووقع في براثن اليأس منها.

في ضوء ما سبق نجد أنّ النظر إلى النصّ يختلف من رؤية إلى أخرى تبعاً للنهج الذي يتّبعه المتلقي، فهناك مَنْ يكتفِي باللغةِ كوسيلة لفهم النصّ فيقع في براثن الظاهر؛ لأنّه يكتفي بواحدٍ من العناصر التي يتجلّى من خلالها فهم النصّ، ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يتعامل مع النصّوص تعاملاً عقلياً فيفعّل مستلزمات العقل الباحث عن الحقيقة فيعمل على تطويق النصّ كي يفهمه وذلك بإخراجه إلى الوجود من النصّوص وما يحيط بها فيظهر في العقل على شكل فعل دلالي واضح استنباطاً أو تأويلاً، وهذه العملية العقلية تحتاج إلى جهد كبير تتفاوت فيها العقول وتتفاضل الأفهام في إصابة المعنى المطلوب من النصّ.

إذن، سيكون مفسّر النصّ القرآني أمام إشكالية كبرى سواءً في نظره إلى النصّ كلغة محضة أم النظر إليه على وفق فهم عقلي استنباطي أو تأويلي، وكلّ حشّد أدلته ودفاعاته في إثبات رؤيته.

ولعلّ ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) كان ممّن أخذ بظاهر النصّ، وربّما يعود السبب في ذلك إلى أنّه كان يهتم أكثر بمتلقي النصّ ومستوى فهمه له، أي أنّ مشكلة المعنى عنده تكمن في الفهم،

أي فهم متلقي النصّ لا في النصّ ذاته، لذلك انشغل ابن حزم كثيراً بقوانين تفسير الخطاب أي قوانين تلقيه أكثر مما انشغل بشروط إنتاجه[٢٣]، وذلك أنّ من منهجه في فهم الخطاب واستدراج دلالاته عدم الاعتماد على النصّ بشكل مباشر؛ لأنّه كان يرى ألّا تُصرف كلمات النصّ عن ظاهر ما وُضعت له[٢٤]، إلاّ إذا جاءت الشريعة بنقل اسم منها عن موضوعه في اللغة[٢٥]، فالنصّ جامد لا يتحرك عنده لذلك اعتمد على المتلقي في الفهم عبر العصور، بمعنى أنّه يضع القوانين المشكّلة للمعنى عند المتلقي، ومن خلالها يعمل على توجيهه إلى قراءة صالحة لا تعدل عن الصواب أو تأخذ به إلى فوضى دلالية.

هذا التوجه عند ابن حزم يُنشئ متلقياً على وفق قوانينه فيجمد على رؤية واحدة لا يمكنه مغادرتها بسبب الأسيجة المحدِّدة له، وناظراً إلى النصّ كما يُريده هو لا كما يراه المتلقي؛ لأنّ ابن حزم قد جمّده على وفق ما يراه، وهذه مقالة أنوية تَصرَّف فيها ابن حزم تصرُّف الفقيه (لا أُريكم إلّا ما أرى) وفيها يحاول توجيه الناس إلى ما يراه هو لا غيره.

هذا يعني أنّه يريد أن يكون المتلقون نسخةً واحدة لا تعي التغيرات وأثرها على تجديد الدلالة، وكل ذلك لأنّه لا يرى أعمق من ظاهر النصّ المرتبط باللغة حتماً، لأنّ الدين في مفهومه الظاهري هو إطارٌ محددٌ بنصٍ معين وبزمن معين ولا يجوز تطويره أو تشويره أو تعليله أو تأويله بأدوات نصٍّ آخر غير اللغة التي نزل فيها النصّ المحدِّد للدين ولا يقبل بأدوات زمن آخر غير زمنه[٢٦]، وكان يرى أيضاً أنّ الدين الاسلامي تام كامل لا يجوز فيه إحداث اعتماداً منه على قوله سبحانه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[٢٧]، بمعنى أنّه (منع أن يأخذ المسلم إلاّ بسبيل واحد وهو سبيل الكتاب «القرآن» والسنة «الحديث»

وحدهما وبظاهر لفظهما بلا تأويل ولا تعليل ولا رأي ولا قياس)[٢٨]؛ لأنّه يفهم أنّ الإكمال يكون بظاهر لفظ القرآن، فأنكر القيم البلاغية من المجاز وغيرها التي تأخذ بالمفردة عن أصل وضعها إلى معانٍ أخرى يحدّدها السياق الذي وردت فيه المفردة القرآنية.

وكان ابن حزم يُنكر دور العقل؛ لأنّ العقل - بزعمه - لا يُوجِد علاً مُوجبة، فإنّ الحواس التي ترفده بمادة الفهم قد تقصر عن كثير من مدركاتها وقد تضعُف عنها[٢٩]، وهذا ممّا يُضعف دوره في تمييز الأشياء المدركة بالحواس وبالفهم.

لقد كان ركونه إلى الظاهر قد أوقعه في إشكالات كثيرة يأباها المنطق والعرف والذوق، وأورد محمد أبو زهرة قضيةً له بسطها من كتابه (المحلى) مختصراً فيها حول سؤر الكلب والخنزير ونجاسة أحدهما وطهارة الآخر لعدم وجود نصّ فيه[٣٠]، مع أنّ العقل دال على نجاستهما معاً.

إذن، كان ابن حزم الأندلسي في مذهبه الظاهري يرى في المعرفة فهماً يقبض على الأشياء ويمتلكها ويحوزها لتقع تحت سلطة الذات المستحوذة، وهذه فكرة تقوم على فكرة اليقين العقلي في تفسير النصّ بناءً على الأدلة المنبثقة من قوانين المنطق الأرسطي الذي يجد فيه علماء الظاهرية أداةً علمية تجعل المعرفة موضوعية بعيداً عن تدخلات الذات[٣١]، وهذا ممّا يعمل انفصالاً بين النصّ والمتلقي، فالنصّ محكومٌ بقوانينه التي تمنع أي مساس فيه من الخارج، والمتلقي هو الآخر محكومٌ بقوانين تفسير الخطاب، فأنشأ بذلك ثوابت ثابتة لا يمكن تحريكها من مواضعها.

ولعلّ الذي قاد ابن حزم إلى ذلك خشيته من تعدّد الفهم والتأويلات للنص القرآني التي قد تحرفه عن مساره الصحيح في قراءة باطلة - بحسب ما

يـرى- لـذا وضـع القيـود التـي تحـدّد المسار، فضلاً عن ذلك أنّه كان صاحب اتجاه سياسي، إذ عاش في كنف الدولة المروانية في الأندلس، وكان كثيرٌ من أسرة آل حزم في مناصب عليا في الدولة ومنها الوزارة، وهذا الموقع يتيح له بناء فكرٍ لا يرى إلاّ فكر الدولة وقوانينها ولا يرغب عن أنّ يحيد عنها أحد فانطبع كلّ ذلك في ذاكرته وبناء أصول أفكاره، فهو ينطلق من ذاته فيما يرى أو يقرر.

لكنَّ المعرفة -كما يرى جادمير- فهمٌ سبيلها الحوار بين أفق وأفق آخر أوسع منه هو أفق الثقافة الواسع، فالفهم على وفق هذا المعنى جدلٌ بين المفسّر وأفق الثقافة، ومن خلال هذا الحوار سيبوح النصّ بكل معانيه ودلالاته متفاعلة مع الأفق الثقافي العام، بمعنى أنّ هناك أكثر من أفق يعتمل في ذهن المتلقي أو القارئ، ولكلّ أفق منها حدوده وتاريخه وثقافته وتراثه، ولكلٍّ منها أيضاً افتراضاته وانحيازاته وقبلياته، والفهم لا يغادر هذه الآفاق، بل هو كائن في خضم تفاعلاتها، فضلاً عن أنّ انحياز الفرد أو القارئ إلى افتراضاته السابقة، فهي لم تُعد افتراضات شخصية بل هي الحقيقة التاريخية التي تشكّل إطاراً للثقافة العامة، وكذلك لا يمكن الاستغناء بشيء عن حقائق التاريخ المؤلِّف للأمة، بل يجب عمل عرى ارتباط قوية مع الحاضر، وعليه فإنّ الفهم عامة يتأسس من خلال الوجود في الحاضر، وإنّ الحاضر لا ينفصل عن الماضي، لذا يبقى الماضي فاعلاً في الحاضر بتقاليده وتراثه[٣٢].

إذن، إهمال الآفاق المتعددة والقيم المعرفية الكثيرة والإبقاء على أفق واحد يُفضي إلى الجمود وعدم تحريك الذاكرة لمواجهة المتغيرات والبقاء وقوفاً في منطقة معرفية واحدة لا يمكُن تجاوزها إلى منطقة معرفية أخرى جديدة.

حيال الموقف الفكري لابن حزم الظاهري برز اتجاه تفسيري آخر للنص القرآني لم يُولِ لظاهر النصّ أهمية كبرى في الكشف عن دلالة النصّ، وإنما حاول الانفلات من قيود الظاهرية التي حاولت التضييق على عقل المتلقي وتوجيهه باتجاه معين يراه ابن حزم، ولعلّه كان يرغب في عدم وقوع المتلقي في المعنى المنحرف أو الدلالة غير الصحيحة، لذا عزم على تحديد مسارٍ له ينبغي عليه أن لا يحيد عنه ولا يميل، لكن هذا التوجه - كما علمنا - يُحجّم النصّ في أن يبوح بكل مكنوناته ويقيّد المتلقي في استعمال العقل ومحاكاة النصّ القرآني.

ومن خلال ممارسة ذهنية وعقلية في تقليب أوجه النصّ القرآني من حيث لغته وأسلوبه ومفرداته فضلاً عن محاكمة الظروف الحافة به فقد وضع الزمخشري نصب عينيه الاستفادة ممّا جاء به عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في نظرية النظم فصاغ نصوصها تفسيراً وتوجيهاً للنص القرآني في تفسيره (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، بمعنى أنّه جعل من منهج نظرية النظم طريقاً له في محاكاة النصّ لغة وتركيبا وأسلوباً.

المفسّر، ما له وما عليه:

مفسّرو القرآن الكريم منقسمون على أنفسهم وذواتهم حيال النصّ المبارك من حيث فهمه وأثره في سلوكهم التفسيري، وذلك أنّهم لم يكونوا خالين أو متحررين من قيود العقيدة والسلطة المؤثرة فيهم والموجِّهة لفهمهم التفسيري، وهم كذلك تدفعهم رغبتهم لتكوين سلطة خاصة بهم من خلال النصّ المقدس، وهذه كلّها عوامل محبطة عند تكوين فهم تفسيري للنص القرآني فضلاً عن تشتت الفهم له، مع مراعاة مسألة مهمة جداً هي النظر إلى المتلقي لذلك الفهم المنبثق عن النصّ سواءً أكان المفسّر أصولياً أم متكلماً أم

غير ذلك، فيحاول إقناع المتلقي أو إفهامه بأي طريق يراه سالكاً إلى عقله، وعند ذلك سيسلك السبل التي تبحث عن الأسباب المؤدية إلى ذلك الإقناع ومسوِّغاً لها في عملية فكرية أو استدلالية أو تلفيقية وفق أسس ومعايير، وعند ذلك سيكون المفسّر مجبراً لأن ينطلق من فهم محدَّد للنص تفرضه عوامل عديدة منها عوامل ذاتية خاصة بالمفسّر تتمثل في عقيدته ومذهبه الفقهي أو بنيته الفكرية والثقافية التي ترسخت عَبْر الأزمان منذ نشأته وحتى نضوجه، إذ بنى رؤية خاصة به أصبحت جزءاً من مكوناته الثقافية ومتمكّنة في اللاوعي كالبوصلة توجهه نحو المسار الذي وُضِعت له أصلاً.

ومنها أيضاً عوامل سياسية تفرضها السلطة الحاكمة التي عملت مسارات محدَّدة تحاول من خلالها فرض هيمنتها على المواطن لتكوين أتباع لها يؤيدونها فيما ترى، وربما تُختَلق مشاكل لم يكن لها وجود أصلاً لتتحسَّس ردة الفعل الفكرية والثقافية للرعية ورموزهم الذين يتبعونهم، وهنا سيحدث اصطدامٌ فكريٌّ، ثم تقوم السلطة بتصنيف هذه الرموز وتقسيمها بين مؤيّدٍ لها ومعارضٍ، ثم تثير المشكلات قصد الإيقاع بهم، ولعلّ أهم هذه المشاكل التي أُثيرت في عصر تأسيس العقائد والفقه والأصول والتفسير ما كان من قضية خلق القرآن أيام المأمون العباسي (ت٢١٨هـ)، وقد كان لها جذور تمتد إلى الخلافة الأموية في عهد هشام بن عبد الملك (ت١٢٥هـ)، وغيرها من المسائل الأخرى التي تمثل اضطهاداً للفكر حتى أصبح ذلك أمراً شائعاً تمارسه السلطة الأموية والعباسية على حدٍّ سواء[٣٣]، وهذا مما أعطى مسوِّغاً لكثير من الفقهاء والمتكلمين وكذلك المفسّرين إلى ضرورة اتّباع السلطان وإن كان جائراً، بل عملوا على تسويغ أفعاله وأعماله وقنّنوا ذلك بعقائد حاول علماء السلطان أن يجعلوها عقيدة

راسخة في عقول الناس، فضلاً عن ذلك حاولت السلطة الحاكمة أن تؤسس لهم مدارس يعلمون الناس هذه العقائد، وقد شذّ عن هذا الاتجاه قليل من العلماء غير أنّهم لم يسلموا من سطوة السلطة، فقُتِل منَ قُتِل وأُعدم من أُعدم، ومنهم مَن أُتُّهم بالزندقة والمروق عن الدين ومنهم منَ حُرِّقت كتبهم ومؤلفاتهم، وكان بعض هؤلاء من أتباع السلطان فما أن رأى أنّ له مذهباً يخالف مذهبه إلاّ قُضِي عليه أو عاش مهمّشاً لا يُعلَم له أثرٌ أو يُسمع له صوت.

ومن ضحايا القمع الفكري غيلان الدمشقي، وكان عالماً زاهداً، وكان قتْلُه ثأراً سياسياً وهو أحد المقتولين الأربعة، وهم الجعد بن درهم، ومعبد الجهني، وجهم بن صفوان لصلتهم بمقدمات ظهور فكرة مفادها أنّ الإنسان هو مَن يختار أفعاله، تلك الأفكار التي آمنوا بها بدرجات مختلفة من الوعي[٣٤].

هذا العامل السياسي خلق مساراً خاصاً لفهم النصّ تمثل في تكوين أفكار ورؤى ما قبلية توجّه مفسّر النصّ باتجاه معين لا يمكنه تجاوزه، بل كان مجبراً على ذلك، وعليه فقد كان يلجأ إلى «الأسباب» سواءً أكانت أسباب نزول أم غيرها طالباً الدعم والتسويغ للمعنى الذي يريده لذلك (فالذي يستدعي الحديث عن «الأسباب» في التفسير ليس النصّ ذاته وإنما هو المعنى المرضي عنه المُعْطى للنصّ وهو معنى منخرط في منظومة نظرية محددة ما قبلياً)[٣٥]، بمعنى أنّ النصّ القرآني لدى المفسّر دائما ما يكون مهمّشاً، في حين أنّ المعنى المرضيَّ عنه ينحدر عن المنظومة الفكرية الحاكمة على النصّ والمفسّر معاً، فالمعنى المرضي عنه هو معنى ينطلق من مسوغات المنظومة المؤلِّفة له، وإن كان غير مطاوع للنص القرآني الأصل.

لكن المفترض أصلاً أن يكون النصّ القرآني هو صاحب السلطة الموجِّهة

للمعنى والمولّد له من خلال السياق الذي يتألف وتتبيّن معانيه من المفردات والتراكيب والجمل، وهذا السياق له طاقة عظمى في إظهار المعنى وتنوعاته -تأويلاً وظاهراً- ومواءمته جميع المتغيرات الاجتماعية والبيئية من خلال نظمه وتركيبه، لكن أثر المنظومة الخارجة عن النصّ لها توجهاتها الأخرى بما يخدم مصالحها، فربما تكون مخالفة لمعنى النصّ أو أن النصّ يُريد معنى والسلطة تُريد معنى آخر فتفرض حكمها على المفسّر ليسوق المسوِّغات فيلتوي عنق النصّ ليوائم المعنى القبلي ذلك.

هناك مسألة أخرى بذل المفسّر حيالها جهوداً كثيرة تمثلت في أسباب النزول وتشكيلها تشكيلاً مخصوصاً كان الغرض منها - بحسب ما يرى بعضهم- تحقيق هدفين (الأول: هو الحرص الشديد على تبرير فهمه للنصّ واحتكاره للحقيقة في فهمه ذاك، والثاني: هو الحرص على تخليص النصّ وكلّ متعلقاته من الشوائب التاريخية فترتقي المنظومة بمختلف عناصرها إلى بداهة المثالية والأخلاق وتتحول إلى سند قوي لتبرير الاختيارات السائدة)[٣٦]، وهذان الهدفان اللذان يرومهما المفسّر لا يمكن بحال أن يتحققا له وإن تحقّق بعضهما فيكون بنسبة معينة؛ لأنّ امتلاك الحقيقة واحتكارها لا يمكن أن يكون من خلال فهم معين أو تكون لفرد واحد، لأنّ الإنسان مجبول على النقص، ولذا فإنّ محايثة الحقيقة وامتلاكها عملية نسبية، فممكن لبشر ما أن يحقق جزءاً منها لأنّ ظروف الزمان والمكان تحدّد نوع ثقافة العصر؛ لذا فإنّ هذا الامتلاك للحقيقة يكون خاصاً بذلك العصر الذي وضع المفسّر فيه فهمه للنص، ولا يمكن أن يتجاوز إلى العصور التالية له؛ وذلك لظهور رؤى جديدة ومناهج لم يعهدها ذلك المفسّر، وهذه المناهج ربّما تتيح الانفتاح على عناصر فهم جديدة للنصّ

فتبرز معانٍ أخرى لم يدركها المفسّر السابق.

فهكذا تكون الرؤى والمعاني مرهونة بزمانها من حيث الثقافة ونوع المتلقي والظروف السياسية والاجتماعية وغيرها مما له علاقة بتشكيل الفكر.

إذن، سوق الأسباب المشكّلة للنصّ ربما تصلح لزمان معيّن، ولا يمكن في كثير من الأحيان أن تتوافق مع العصور التالية الأخرى حين تشكيلها، فقد تُعدُّ خرافة أو أنّ الاكتشافات الجديدة ربما تُظهر أشياء تفتح آفاقاً جديدة لم تكن متوفرة آنذاك، لهذا لا يمكن الاطمئنان كلّ الاطمئنان لتلك الأسباب فضلاً عن كونها أسباباً - في بعض الأحيان- مشكَّلة تشكيلاً خاصاً ولهدف خاص.

أمّا مسألة تخليص النصّ وكلّ متعلقاته من الشوائب التاريخية فهي موضع جدال بين مؤرّخي السيرة النبوية والمفسّرين، والظاهر أنّ السبب في ذلك عائد إلى أنّ المفسّر يحاول أن يجعل من أسبابه التي شكّلت المعنى تُظهر مظهراً إعجازياً للنصّ، وكان يهدف من وراء ذلك تأسيس قاعدة ينطلق منها ليؤسس المفسّر عليها اختياراته التشريعية في الفقه أو العقيدة في علم الكلام أو غيرها، لذلك لم يسلط المفسّر أضواءً كبيرة على الحدث التاريخي للنصّ؛ لأنّ الحدث يؤسس لفكرة تاريخية فيُحدَّد النصّ بتلك الحادثة، وعند ذلك لا يمكن للنصّ - بحسب ما يرى المفسّر- أن يتجاوز الزمان والمكان الذي نزل فيه النصّ، فيفقد خاصيته الإعجازية كونه نصّاً لكلّ الأزمان، غير أنّه نسِيَ أن طريقة نظم النصّ وتأليفه قد تجاوزت معنى حادثة النزول إلى معانٍ أخرى، فحدّد تبعاً لذلك علماء القرآن مصطلحا «دلالة سبب النزول» و «دلالة ظاهر النصّ» وأشاروا إلى أنّ دلالة ظاهر النصّ أعمّ من دلالة سبب النزول، فالعلاقة بينهما علاقة الخاص بالعام، وعليه فإنّ دلالة سبب النزول لا تُشكل عائقاً أمام فكرة

الإعجاز أو ديمومة صلاحية النصّ القرآني لكلّ الأزمان والعصور.

لكن يجب الحذر الشديد من قضية أسباب النزول وأثرها في تحديد المعنى، إذ يجب التحري والكشف عن السبب الصحيح وعدم الانجرار وراءها كيفما اتفق، فربّما يؤدّي ذلك إلى حقول دلالية غير مرغوب فيها أو قد يقع الباحث في إشكال عدم الاستقرار على سبب واحد عندما تتضارب الأسباب أو تتعدّد بنص معين، فيقع المفسّر في إشكالية التعدّد والتناقض فيها إذا لم تكن الأسباب منسجمة مع المنظومة التفسيرية كلّها ومع التصوّر والمفاهيم النظرية المؤطِّرة لتلك المنظومة[٣٧].

في حين كان كاتب السيرة بفعل منهجه التاريخي للأحداث يحاول أن يسرد كل حدث بدقائقه وتفصيلاته وجزئياته ممّا يخرج عن حدود النصّ القرآني، بمعنى أنّه لم يكن خاضعاً لمعطيات النصّ، فحلّق خارجه جامعاً للأحداث ورابطاً بينها برباط ومعلّلاً لها، وربّما يكون هذا الأسلوب يتعارض مع سبب النزول لحادثة ذُكرت بعضُ تفاصيلها في القرآن الكريم، وهذا مما يأخذ بيد المفسّر إلى رفضها والاكتفاء بأسباب النزول التي اتفق عليها المفسّرون، وهي في الحقيقة غير مستوفية لمجمل الحدث خلاف ما ينقله المفسّر للحدث ذاته، فمن الأحداث التي اختُلِف فيها ما جاء في تفسير سورة الفيل، فالحادثة وقعت قبل البعثة وكانت سبباً في نزول السورة المباركة، واختلف المفسّرون وأصحاب السيرة في ماهية «حجارة السجيل» التي حملتها الطير الأبابيل، فجاء في السيرة أنّ الطير الخطاطيف والبلسان، والحجارة التي تحملها هي أمثال الحمص والعدس، فيما ذكر المؤرخون أنّها ثمار أنواع من النباتات وقد استدلوا بما رُئيَ بأرض العرب مرائر الشجر والحرمل والحنظل والعُشر[٣٨]. في حين نحا المفسّرون نحواً

آخر حين وصفوا الطير بأنّها طير عجيبة لم يعهدها الإنسان من قبل لها خراطيم كخراطيم الطير أو هي طير خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع[٣٩]، ولا يذكرون شيئاً عما تحمله هذه الطير سوى مفعوله العجيب، لتكتمل عنده المعجزة.

تعلّل الدكتورة ناجية الوريمي بوعجيلة هذا التوجّه من المفسّر بحالة الإعجاز حين تقول: (إنّ الذي أخضع بنية تفكير المفسّر لمقومات بنية المعجزة إنّما هو انطلاقه من معطيات نصية فهمها بطريقته واتجه إلى المعطيات التاريخية يشكّلها تشكيلاً مناسباً مبّرراً لفهمه ذاك، في مقابل المفسّر هنا كان راوي السيرة غير خاضع - في المنطق - لمعطيات نصية فقدم الجوانب التاريخية المختلفة، وبعد الإيفاء بها ذكر ما نزل بها فيها، فتحرر الواقع عنده - إلى حدٍّ - من سلطة النصّ، أو بالأحرى من سلطةِ فهمٍ ما للنص)[٤٠].

إنّ سلوك المفسّر تجاه النصّ إنّما ينبعث من ضرورة إضفاء القداسة على النصّ؛ لأنّ الحدث التاريخي يخرج خارج حدود النصّ وربما يُورد أحداثاً لم يكن النصّ اهتم بها أو أنّ التفصيلات الكثيرة لا تتفق مع طبيعة بناء النصّ إذا كانت الإشارة تمثل الإيحاء إلى الدلالة المطلوبة، ثم إنّ القرآن الكريم لم يكن كتاب تاريخ حتى يورد الحادثة بتفاصيلها وإنّما هو يشير إليها بقدر ما يستفاد منها كعبرة؛ لذلك يحاول المفسّر أن يبقى حبيساً بحدود النصّ ولا يمكنه تجاوزها، وهذا ممّا يفرض عليه حدوداً للمعنى الذي يطلبه النصّ، خلافاً لمؤرخ السيرة الذي يجد في الأحداث متسعاً للخروج خارج حدود النصّ ليجمع منها دلالات أخرى غير التي جناها المفسّر.

وهناك أيضاً فرق آخر بين مؤرّخ السيرة والمفسّر في مقاربة النصّ القرآني ومعرفة دلالته فمؤرخ السيرة دائما ما يقترب من الحدث التاريخي ويفعّل

عناصره الواقعية في وصفه ليقترب من دلالة النصّ بالاستعانة بالقرائن الخارجية وبذلك يكون نزوعه نزوعاً واقعياً فيخرج بمعطيات تحرج المفسّر في قداسة فهمه للنص[٤١].

أما المفسّر فهو يجرد النصّ من عناصره الواقعية ويدرسه مجرداً من تاريخيته، وعنده قد ينزاح سبب نزول النصّ عن تاريخيته، وبذلك يصبح الحدث دائراً في فلك النصّ وواقعاً تحت تأثيره بموجب المعاني التي قُرِنَتْ به، وربّما تسوُّغ هذه المعاني أسباباً أخرى لمعالجة النصّ، وهذا ممّا ساعد على تعدد أخبار أسباب النزول وربّما تناقضها.

هذا المنزع الذي ذهب إليه المفسّر يحاول فيه أن يُبعد النصّ عن تاريخيته ويكسبه قدسية كي يطال به كل العصور والأزمان. لذا حاول بعض المفسّرين والمهتمين بدراسة القرآن الكريم في حال ورود روايات متناقضة في سبب نزول آية معيّنة أو سورة أن يؤلّفوا أو يوفّقوا بين هذه الروايات ويسوّغوها لأجل أن تتوافق فيما بينها، وهذه في الحقيقة عملية تحايل على المتناقضات الظاهرة والخفية وراء النصّوص المختلفة.

ولعلّ الذي قادهم إلى ذلك وشجعهم عليه هو أنّهم كانوا يرون أنّ النصّ لغة محضة، أو أنّهم يرون ضرورة مساواة النصّ باللغة وجعلهما كياناً واحداً[٤٢]. وهذا ممّا دعا أكثر المفسّرين إلى الاعتماد بشكل كبير على ظواهر اللغة وصيرورتها في توجيه المعنى للنصّ القرآني، وما عدا ذلك فهي كيانات ثانوية لا تُعدّ - بحسب زعمهم - مؤثرة بشكل مباشر على النصّ ودلالته، وهذا الأمر فيه شيء كبير من عدم الدقة والضبابية؛ لأنّ النصّ القرآني وأي نصّ آخر لم تتحكم اللغة لوحدها في تحديد دلالة مفهومه أبداً، بل هنا ظواهر حافة به لها أثرها في توجيه المعنى وبيان حدوده.

لذا عمل بعضهم تحايلاً على تلك الروايات المتناقضة في أمر معيّن أو مسألة ما، وحاولوا أن يسوّقوا الأعذار لأجل التوفيق بينها من دون أن يقدّموا دليلاً يؤيّد رؤاهم في مثل هذه التسويغات، فربّما كان ذلك بسبب من اعتمادهم على أمرٍ عدّوه رئيساً في أحكامهم وجعلوا ما أحاط بها أموراً ثانوية يمكن التلفيق بينها وأخْذها عنوة نحو ما يرونه في أصل المسائل أو المسألة قيد البحث لديهم، بمعنى أنّ تصوراتهم الأولى هي المعيار في ذلك، ثم يعملوا على تسويغ ما عداه بما يجاريها فيظهروها وكأنّها تساوقت مع أفهامهم الأولى للمسألة.

ملخص البحث:

تختلف رؤية المفسّر عن غيره في النظر إلى النصّ القرآني، وأعني بالمفسّر الذي لا يقف عند حدود لغة النصّ أو عند جزيئة معيّنة منه أو أن يكتفي بظواهر النصّ من دون الغور في أعماقه، كما أنّ عليه أن لا يلتمس أفكاره من شرعةٍ ضيقةٍ أو مشربٍ واحدٍ؛ لأنّ الاطلاع على مجمل الأفكار والآراء سواء أكانت متّفقة مع بعضها أم مختلفة هي مفيدة في معرفة رأي الآخر ذي الثقافة الأخرى والفكر الآخر، وهذا سيوجّه ضوءاً كاشفاً على بعض خبايا النصّ عن طريق منهجه الذي يختلف عن المناهج الأخرى، وعليه فإنّ المفسّر لا يكتفي بظواهر النصّ القرآني تفسيراً وتحليلاً، وإنّما عليه أن يذهب إلى أبعد من هذا التفسير في محاولة للكشف عن المعاني الأخرى التي تعذّر الحصول عليها من خلاله؛ لأنّ التفسير لوحده يدلّ على مجرد التفاصيل التطبيقية والوسائط الجزئية المفضية إلى إدراك الظواهر ويعتمد في كلّ ذلك على أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد وغيرها من علوم القرآن الأخرى التي تهتم بظاهر النصّ أولاً وقبل كلّ شيء، في حين أنّ المخزون الدلالي الآخر الكامن بين سطور آياته وكلماته وحروفه يبقى مقيّداً فيها لعدم إمكان تلك العلوم التطبيقية تحفيزها لأجل حضور المعاني المتضمنة فيها.

المصادر والمراجع:

١. البرهان في علوم القرآن- للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - بيروت - لبنان - المكتبة العصرية - الطبعة الأولى - ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤- ٣١٠هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة.

٣. الرسالة/ للإمام محمد بن إدريس الشافعي - تحقيق د. عبداللطيف الهميّم ود. ماهر ياسين الفحل - بيروت - لبنان - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤. سلطة النص (قراءات في توظيف النص القرآني) - عبد الهادي عبد الرحمن - مؤسسة الانتشار العربي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٨م.

٥. في الائتلاف والاختلاف (ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم) - د. ناجية الوريمي بوعجيلة - المؤسسة العربية للتحديث الفكري - دار المدى للثقافة والنشر - الطبعة الأولى - ٢٠٠٤م.

٦. في شرعية الاختلاف - علي أومليل - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - تشرين الثاني (نوفمبر) - ١٩٩٣م.

٧. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨. المثقف اللامنتمي في التراث الإسلامي (دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر) - د. محسن محمد حسين - دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ٢٠١٦م.

٩. مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ

١٠. معتزلة البصرة وبغداد – د. رشيد الخيون – دار الحكمة لندن – الطبعة الأولى – تشرين الثاني – ١٩٦٧م.

١١. مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، د. نصر حامد أبو زيد، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠١١م.

الهوامش:

(١)سأناقش هذا الأمر في ما بعد من الفصل إن شاء الله تعالى

(٢)ظ: البرهان / الزركشي: ١ / ٢٢، في شرعية الاختلاف / علي أومليل: ٥١

(٣) سورة آل عمران/١٢٨

(٤) سورة النور/٥٤

(٥) سورة آل عمران / الآية ٢٠

(٦) إشكالية النسخ في القرآن الكريم / د. عادل عباس النصّراوي: ٧١

(٧) وهذا ما يراه د. عبد الكريم سروش في مقابلة معه. ظ: الوحي والظاهرة القرآنية/ حيدر حبّ الله: ٦١

(٨) سورة الحشر / الآية ٧

(٩) ظ: الوحي والظاهرة القرآنية / حيدر حبّ الله: ٦١ (من مقابلة مع د. عبد الكريم سرويش)

(١٠) سورة الشورى / الآيتان ٥١ – ٥٢

(١١) سورة البينة / الآية ٢

(١٢) نهج البلاغة: ٢١٣، الخطبة (١٢٥)

(١٣) م. ن: ٤٨٣ (الوصية ٧٧)

(١٤) في شرعية الاختلاف / علي أومليل: ٥٩

(١٥) ظ: م. ن: ٥٧ – ٥٨

(١٦) ظ: النصّ الديني / د. احميدة النيفر: ٩٥

(١٧) ظ: م. ن: ٩٦

(١٨) ظ: م. ن: ٩٧

(١٩) الثابت والمتحوّل / أدونيس: ٣ / ٢٥

(٢٠) ظ: م. ن.

(٢١) نهج البلاغة: ٤٨٣ (الوصية ٧٧)

(٢٢) نهج البلاغة: ٢١٣ (خطبة ١٢٥)

(٢٣) ظ: طوق الخطاب / علي أحمد الديري: ١٤٦

(٢٤) ظ: الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم: ٥ / ١١

(٢٥) ظ: م. ن: ٣ / ١٩١ – ١٩٢

(٢٦) سلطة النصّ / عبد الهادي عبد الرحمن: ٣١٤

(٢٧) سورة المائدة /الآية ٣

(٢٨) ابن حزم الكبير / عمر فروخ: ١٢٥

(٢٩) ظ: التقريب لحد المنطق / ابن حزم: ١٧٦

(٣٠) ظ: ابن حزم حياته وعصره/ محمد أبو زهرة: ٣٩٣

(٣١) ظ: طوق الخطاب / على أحمد الديري: ١٦١

(٣٢) ظ: نظرية التأويل / مصطفى ناصيف: ١٠٣، طوق الخطاب / علي أحمد الديري: ١٦١ – ١٦٢

(٣٣) للمزيد من الاطلاع على الاضطهاد الفكري آنذاك مراجعة كتاب (المثقف اللامنتمي للتراث

الإسلامي – دراسة عن قمع الدولة للفكر الآخر) للدكتور محسن محمد حسين: ٦١ – ٨٣

(٣٤) ظ: معتزلة البصرة وبغداد / رشيد الخيون: ٢٥

(٣٥) في الائتلاف والاختلاف: د. ناجية الوريمي بوعجيلة: ٢٧

(٣٦) م. ن: ١١١

(٣٧) ظ: في الائتلاف والاختلاف / د. ناجية الوريمي بوعجيلة: ٢٨

(٣٨) ظ: تاريخ الطبري / محمد بن جرير الطبري: ٢ / ١٣٨ – ١٣٩

(٣٩) ظ: مجمع البيان /الطبرسي: م ٥ / ٥٤٠ – ٥٤٣، الكشاف /الزمخشري: ٤ / ٨٠٣ – ٨٠٥

(٤٠) ظ: في الائتلاف والاختلاف / د. ناجية الوريمي بوعجيلة: ٣٨

(٤١) ظ: م. ن: ٤٥

(٤٢ ظ: سلطة النصّ / عبد الهادي عبد الرحمن: ٣١٦

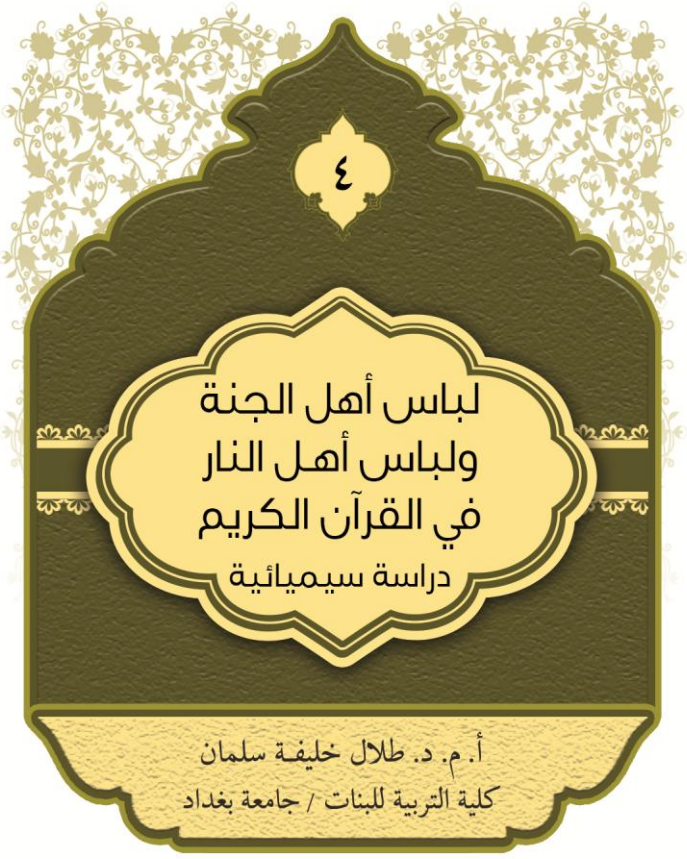
٤
لباس أهل الجنة
ولباس أهل النار
في القرآن الكريم
دراسة سيميائية
أ. م. د. طلال خليفة سلمان
كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

ملخص البحث:

تتلخص فكرة البحث بدراسة التمظهرات اللسانية للباس أهل الجنة، ولباس أهل النار في القرآن الكريم دراسة سيميائية، انطلاقا من آراء رولان بارت في نظام الموضة وإشاريّة اللباس التي وردت في كتابه (نظام الموضة)، فاللباس نظام من العلامات، وله أكثر من وظيفة، وأكثر من إشارة، إذ يبين انتماء من يلبسه، ومنزلته الاجتماعية، وانتماءه الطبقي، وحالته المادية والنفسية، وقد يبتعد في بعض الأحيان عن وظيفته الأساس؛ ليؤدي وظيفة ثانية لا تقل أهمية عن وظيفته الأولى، إن لم تكن أهم منها، وهذا ما ظهر في وصف لباس أهل الجنة، ولباس أهل النار في القرآن الكريم.

انقسم البحث على مقدمة، ومهاد نظري، وقسمين رئيسين، تحدثت في المقدمة عن أهمية اللباس عند الإنسان؛ كونه حاجة إنسانية مهمة وملحّة لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها، وتحدثت عن تطوره وتعدد وظائفه مع تطور البشرية المطّرد. وتكلمت في المهاد النظري على نظام الموضة، وأهمية اللباس - بحسب بارت - في كونه نظاما من العلامات يشكل منظومة إشارية ولغة مفهومة للمتلقي تفصح عن الكثير من المعاني والدلالات.

عني البحث في القسم الأول منه بدراسة الوصف القرآني الدقيق للباس أهل الجنة، وبدراسة علاماته السيميائية التي تحكي النعيم والسعادة والخير والترف الذي يعيش فيه المؤمنون في الجنة، فضلا عن العناية الإلهية الكبيرة بهم؛ مكافأة لهم على أعمالهم الصالحة. أما القسم الثاني منه فقد درست فيه الوصف القرآني للباس أهل النار وعلاماته السيميائية التي تبين أجواء الخوف والعذاب والكآبة، والعاقبة السيئة، والمصير الأسود الذي سينتهي

إليه الكافرون؛ عقابا لهم وجزاء على أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا، ثم أنهيت البحث بخاتمة دونت فيها النتائج التي توصل إليها.

المقدمة:

تتعدد حاجات الإنسان وتتكاثر بتعدد أسبابها وموجباتها؛ وبسبب التطور المطرد لحياة البشر على كرور السنين ودوران الزمن، وقد تكون هذه الحاجات بسيطة في بداية الأمر إلّا أنها تتطور وتزداد تفاصيلها وتتعدد مسمياتها وأصنافها مع تطور الحياة المستمر دون توقف. ويمثل اللباس حاجة إنسانية مهمة لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها، من لدن أبينا آدم إلى يوم الناس هذا، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن آدم وحواء عليهما السلام اتخذا من ورق الجنة لباسا؛ ليسترهما ويغطي بدنيهما، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾[1]، وهذه هي الحاجة الأولى للّباس عند الإنسان، قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا**﴾[2]، ثم تعددت الحاجات لتشمل الوقاية من حرارة الجو وبرودته، ومن المخاطر البيئية والمخاطر التي تسببها الصراعات بين البشر، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ**﴾[3]، ثم تطور اللباس بعد ذلك؛ ليشكل هوية تميز الإنسان وتبين انتماءه وعرقه وقوميته وعقيدته ودينه وحضارته وثقافته ومهنته وحالته المعيشية من حيث الغنى والفقر والحالة المتوسطة فيما بينهما، فضلا عن وظيفته في بيان الحالة النفسية التي يحس بها من يلبسه، كما أنه يشكل وسيلة مهمة للتأثير في الآخرين ولفت أنظارهم وجذب انتباههم، سواء أكان هذا الجذب إيجابيا أم سلبيا، فكم من الناس يحكم على شخص ما عند رؤيته، من ملبسه وطبيعة هذا الملبس وطريقة تشكيله وألوانه، فاللباس يشكل علامة أو علامات تبعث الكثير من الإشارات للمتلقي، فبين تمظهراته المكتوبة بوساطة الوصف اللساني له،

وتمظهراته الواقعية التي تتحقق برؤيته ولمسه، وتمظهراته الإيقونية المتحققة بتصويره أو رسمه، يمكن لهذا المتلقي، عن طريق فك شفراته وتأويلها، أن يتوصل إلى انتماء من يلبس هذا اللباس، ووضعه المعاشي وحالته النفسية وغير ذلك من أمور كثيرة يكشف عنها؛ لذلك نرى الاهتمام كبيرا باللباس وبأنواعه وألوانه وموديلاته في الحياة العامة وفي المناسبات والمحافل وفي المسرح والسينما والشعر والسرد؛ لأنه من أول الأشياء التي يراها الإنسان وتقع عليها عينه ويترجم إشاراتها عقله، قبل أن تسمع أذنه، أو تلمس يده، أو يتحدث لسانه؛ ليكشف هوية الآخر وطبيعته وثقافته.

إن مجالات السيميائيات متعددة وكثيرة، فهي العلم الذي يدرس العلامات داخل الحياة الاجتماعية بتعريف سوسير، أو هي العلم الذي يدرس كل شيء حتى الأكل والموضة واللباس والإشهار والرياضيات وغير ذلك اعتمادا على تصور بيرس[٤]، وكل شيء لن يكون علامة إلّا في حال تأويله بعدّه علامة على شيء من لدن مؤول، كما يرى أمبرتو إيكو، اعتمادا على رأي موريس[٥]. إن هذا الشيء المؤوّل قد تكون له أكثر من وظيفة، «وفي بعض الحالات تأخذ الوظيفة الثانية أهمية تتجاوز تلك التي تقدمها الوظيفة الأولى، وقد تلغيها، ونفس الشيء يصدق على اللباس والسيارات وكل موضوعات الاستعمال اليومي، فثوب الراهب له وظيفة أولية، إنه يغطي الجسم ويقيه البرد، إلّا أن استعماله في المراسيم الدينية يمنحه وظائف ثانية، فهو يمكّننا من التمييز بين راهب دومينيكي وآخر بنيدكتي»[٦]، ومن كلام إيكو هذا، ومن قبله رولان بارت يتبين لنا أن اللباس نظام من العلامات، له وظائف عدة، ويوحي بالكثير من الإشارات، فهو يحكي في صمته، ويعطي الكثير من

الدلالات للمتلقي، وقد عنيت به سيمياء الدلالة، إذ جاء اتجاه سيمياء الدلالة ردّ فعل «على أصحاب سيميولوجيا التواصل، ولعل الرائد الأول له هو رولان بارت، الذي قلب المقولة السوسيرية التي ترى أن اللسانيات ماهي إلّا جزء من علم العلامات العام ليؤكد في كتابه (درس السيميولوجيا) أن السيميولوجيا نفسها استمدت مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات»[٧].

كان من ضمن اهتمامات بارت الكثيرة والمتشعبة، اهتمامه بالموضة والأزياء واللباس، وقد جسّد هذا الاهتمام وهذه العناية في كتابه (نظام الموضة) الصادر عام ١٩٦٧م، الذي يعد الكتاب الأول في هذا الموضوع، وقد حاول «التسلح باللسانيات؛ لمقاربة الظواهر السيميولوجية، كأنظمة الموضة والأساطير والإشهار... إلخ. ويعني هذا أن رولان بارت عندما يدرس الموضة - مثلا - يطبق عليها المقاربة اللسانية تفكيكا وتركيبا، وذلك من خلال استقراء معاني الموضة، وتحديد دلالات الأزياء، وتعيين وحداتها الدالة، ورصد مقصديتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية»[٨]. إنه يرى أن الملابس -فضلا عن الجانب النفعي الذي تتوافر عليه- هي منظومة إشارية أيضا (لغة)، فهي تعني شيئا ما سواء أكانت منفردة أم مركبة[٩]، ويشير إلى تأسيس الموضة نظاما صارما ودقيقا من العلامات التي يمكن تأويلها، وتبعا لهذا النظام فإن الأشياء الاعتباطية تتخذ طابع المعقولية، إذ يقول: «في الوقت الذي تؤسس فيه الموضة نظاما صارما من العلامات، فإنها تعمل على إضفاء طابع المعقولية على تلك العلامات»[١٠]، وهذا يشير إلى كون الموضة دلالة أو علامة فضلا عن كونها وظيفة، ووفقا لذلك فإن اللباس قد يبتعد عن وظيفته الأساس ليضطلع بوظيفة ثانية مهمة، إذ تنطوي الموضة واللباس - بحسب بارت - على

بلاغة، وعلى إشارة قوية، وعلى قدرة على الدلالة تقترن غالبا بالتميز الاجتماعي أو بالحرص على التفرد والتميز[١١].

عندما درس بارت نظام الموضة واللباس فإنه تعامل مع الكلام المكتوب، أي مع التمظهرات اللسانية لهما، ففي حديثه عن ثنائية اللغة والكلام يقول: «وهكذا فإن الكلام واللغة عنصران لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، وهذه الجدلية... يمكن أن ننقلها في علم الأدلة إلى أنساق دلالية أخرى، كنظام اللباس، ونظام الطعام»[١٢]، ثم يعطي أمثلة على كلامه، ومن أمثلته عن اللباس قوله: «لا وجود للكلام في اللباس المكتوب الذي تصفه صحيفة من صحف الأزياء بواسطة المتمفصلة، ولا يتوافق هذا اللباس الموصوف مع أي تنفيذ أو تأدية فردية لقواعد الموضة، بل هو مجموعة منتظمة من الأدلة والقواعد»[١٣]، ويعلق أحد الباحثين على كلام بارت قائلا: «وإذا ما أردنا أن ننقل هذا المثال الذي أورده بارت، شارحا به نظام اللباس، إلى المفهوم اللساني لثنائية اللغة والكلام، فإننا نقول: إن هذا اللباس الموصوف من قبل هذه الصحيفة يعد لغة؛ لأنه يحمل صفة الجماعية والاتفاق، في حين أن اللباس هذا لو جسد من طرف الأفراد لفظا وارتداء يعد كلاما»[١٤]. إن بارت يعتمد بذلك على رأيه الذي قلب بموجبه مقولة سوسير، إذ يرى أن السيمياء هي الجزء في حين تمثل اللسانيات الكل، وهذا الرأي البارتي يفضي إلى أن السيمياء عند دراستها للأنظمة غير اللغوية كالموضة والأزياء والإشهار وغيرها تعتمد على عناصر اللسانيات في دراستها وتفكيكها[١٥]، وانطلاقا من هذا الرأي وهذا الفهم لرولان بارت فإني سأسعى في هذا البحث إلى دراسة التمظهرات اللسانية للباس أهل الجنة ولباس أهل النار في القرآن الكريم دراسة سيميائية،

وبيان دلالات الوصف القرآني الدقيق لهذا اللباس بشكل يجعل القارئ يحس بالنعيم الذي يعيشه المؤمنون في الجنة الذين يلبسون لباس الحرير والسندس والإستبرق بلونه الأخضر الزاهي، ويجعله يحس بالعذاب الذي يعيشه الكافرون في جهنم الذين يلبسون سرابيل القطران وثياب النار، وسأقسم البحث على قسمين، يتمحور القسم الأول حول دراسة لباس أهل الجنة، فيما يختص القسم الثاني بدراسة لباس أهل النار.

١- الوحدات السيميائية الدالة على لباس أهل الجنة:

إن المتأمل في نصوص الترغيب ونصوص مشاهد الآخرة في القرآن الكريم يجد مجموعة من النصوص تصف نعيم المؤمنين في الآخرة، وقد تنوع هذا النعيم وتعددت مظاهره من طعام، وشراب، ولباس، وحور عين، وأجواء جميلة لا يرى فيها أصحاب الجنة شمسا ولا زمهريرا، إلى غير ذلك من أنواع النعيم الكثيرة. إن مظهرا من مظاهر النعيم الجميلة التي تجعل المتلقي يتحسس هذا النعيم، ويشعر به، ومن ثم يسعى إلى الحصول عليه هو وصف القرآن لملابس أهل الجنة الجميلة والفاخرة التي توحي بحبورهم وسعادتهم وراحتهم النفسية، ومنزلتهم الكبيرة التي يحظون بها، فقد ورد وصف لباسهم في ستة نصوص، كان أولها ورودا في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا * أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾[١٦]، فالنص في معرض وصف أجر الذين أحسنوا عملا بالإيمان وعمل الصالحات، وهو جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، ثم يصف

بعضا من النعيم الذي سيحوزونه فيها، وأول تمظهر من تمظهرات هذا النعيم هو حليهم التي سيلبسونها في الجنة، فهي من العلامات الملبسية الواضحة والمهمة التي تعطي للمتلقي إشارات جلية، فالعلامات الملبسية لا تخص اللباس العام الذي يغطي الجسد فحسب، بل تخص كل شيء يلبسه الإنسان على أجزاء جسده سواء أكان قبعة أم قلنسوة، أو أي غطاء للرأس، أو حليّا غرضها التزيين عند ارتدائها من لدن الشخص في يديه أو قدميه، أو تعليقها في عنقه أو على صدره أو حملها في يديه، فهذه العلامات - بحسب بارت- «ذات أهمية كبيرة من الناحية التأويلية والدلالية»[١٧]، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ**﴾، إذ ابتدأ النص بالفعل المضارع المبني للمجهول (يحلون) الذي يشير إلى الحلية التي يتجمل بها أصحاب الجنة. إن هناك إشارات حلوة يبعثها هذا الفعل فهو من «حلا الشيء يحلو حلاوة، فهو حلو والأنثى حلوة، وحلا لي الشيء إذا لذّ لك واستحليته رأيته حلوا والحُلوان بالضم العطاء... وحَلِيَ الشيء بعيني وبصدري يحلى، من باب تعب، حلاوة حسن عندي وأعجبني... وحلية السيف زينته»[١٨]، فمن إشاراته الحلاوة واللذة والجمال والزينة، ويشير أيضا إلى عطاء الله تعالى لأصحاب الجنة، فضلا عن إشارته إلى إعجابهم بما يحلون به من حلي وتأثيرها في نفوسهم أثرا حسنا وجميلا، وهي هنا أساور من ذهب «والأساور: جمع سِوار على غير قياس. وقيل: أصله جمع أسورة الذي هو جمع سوار، فصيغة جمع الجمع؛ للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلون به منها»[١٩]، وإلى كثرة أنواع وموديلات هذه الأساور المصنوعة من أثمن المعادن، وهو الذهب، فقد أشارت (من) الثانية إلى نوع المعدن، وهنا يحيلنا الذهب إلى اللون الذهبي الذي يحمل عدة دلالات

سيميائية منها القوة والوهج والبريق والغنى والنماء والإشراق والتميز والجودة والرقي والفرح والفوز[٢٠]، وهي صفات يتمتع بها أصحاب الجنة الذين ينعمون بنعيمها الأبدي.

بعد أن ذكر النص حليهم فإنه يذكر ثيابهم التي يلبسون، إذ يقول تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وأول ما يلفت النظر أن الآية تشير إلى لون الثياب قبل الإشارة إلى نوعها، وتخصّها باللون الأخضر دون بقية الألوان، فما سبب ذلك؟ وللإجابة على سبب تقديم اللون أقول: إن اللون يجذب المتلقي ويثيره أكثر من نوع الثياب، فكثيرا ما نختار الملابس ونلبسها بسبب ألوانها التي تجذبنا قبل أن يجذبنا نوع خامتها، وكثيرا ما نتنازل عن نوعية القماش في قبال لونه الذي يجعلنا نقبل عليه ونختاره دون غيره. أما سبب اختيار اللون الأخضر؛ فلأنه يشير إلى الكثير من الدلالات السيميائية، منها الخصب والنماء والحياة والحركة والتفاؤل والسرور والأمل والأمان، وهو لون النباتات والأشجار والحدائق والطبيعة الجميلة التي سينعم بها المؤمنون في الجنة، وهو في الفكر الديني رمز الهدوء والإيمان والخير الوفير، والعاقبة الحسنة، وأي عاقبة أفضل من العاقبة التي أشارت إليها الآية الكريمة؟.

وبعد الإشارة إلى لون الثياب يشير النص إلى نوعيها، وهما السندس والإستبرق، أما السندس فهو «ضرب من رقيق الديباج»[٢١]، وأما الإستبرق فهو «الديباج الغليظ»[٢٢]، فهما نوعان من الحرير الغالي والثمين والمرغوب، أولهما رقيق خفيف جميل يوحي برقة العيش وجماله وسلاسته في الجنة، وقد أشار إلى هذه الرقة حرف السين الذي تكرر في كلمة (سندس) فمن صفاته الهمس والرخاوة والاستفال والصفير[٢٣]، وثانيهما غليظ سميك جميل يوحي بالفخامة والأبهة والعظمة والعلو، وقد

أشار إلى هذه الصفات حرف القاف الذي ختمت به كلمة (إستبرق)، فمن صفاته الاستعلاء والشدة والقلقلة[٢٤]، كما أن كلمة (إستبرق) فيها إشارة سيميائية إلى بريق هذا النوع من الديباج، «قال الزجاج: إنما قيل له: إستبرق؛ لشدة بريقه»[٢٥]. وربّ سائل يسأل، كيف يمكن لأهل الجنة لبس هذين النوعين من الحرير؟ ألا يصيبهم البرد عند لبس السندس الخفيف، أو الحر عند لبس الإستبرق السميك؟ إن جو الجنة معتدل، فلا هو بارد زمهرير ولا هو حار قائظ؛ لذلك فإن ساكنيها سوف ينعمون بهذه الأجواء الجميلة والمريحة، وستمكّنهم هذه الأجواء من لبس نوعي الديباج دون الشعور بالبرد أو الحر. قال تعالى: ﴿**وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا**﴾[٢٦]. وبعد أن أشار النص إلى حليهم وملابسهم الفاخرة التي تحكي نعيمهم وسعادتهم، فإنه يشير إلى طريقة جلوسهم المريحة التي تبين حال الراحة التي يحسونها في الجنة، قال تعالى: ﴿**مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾، فقد عبرت لفظة (متكئين) التي وقعت حالا من الفاعل في قوله (يلبسون) عن حالة الهدوء والراحة والسكينة، ثم يمدح القرآن هذا الثواب الكبير المتجسد بجنات عدن تجري مياه الأنهار من تحتها، والمؤشر إليه بلبس الحلي والثياب الفاخرة، والجلسة المريحة بوساطة (نعم) التي مدحت عظيم ثوابهم وروعة عاقبتهم.

وفي سورة الحج يرغب الله تعالى المؤمنين في قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾[٢٧]، فبعد أن ذكر النص دخولهم جنات تجري من تحتها مياه الأنهار، فإنه يذكر حليهم، في

قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهب ولؤلؤا**﴾، إذ نجد تكرارا تركيبيا غير تام بين هذا النص والنص السابق من سورة الكهف، إذ يتكرر قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهب**﴾، إلّا أننا نجد نص سورة الحج يضيف كلمة (لؤلؤا)؛ للإشارة إلى الشيء الثمين الثاني الذي تتشكل منه حلي أهل الجنة، وهو اللؤلؤ، وهو من الأحجار الكريمة والثمينة التي تتكون داخل المحار والرخويات، ويكون ذا شكل كروي في أغلب الأحيان، أو قد يتخذ أشكالا أخرى، ويكون في الغالب ذا لون أبيض أو مائل إلى الزهري أو الأصفر، ونادرا ما يكون بألوان أخرى كالأسود والأخضر والأزرق، ويتميز ببريقه الرائع الذي يجذب الأبصار؛ بسبب انكسار الضوء عليه، وهذا ما يجعله من أجمل أنواع الحلي وأثمنها[٢٨]، فاللون الغالب لهذا الحجر هو الأبيض الذي يشير سيميائيا إلى دلالات عدة، فهو يشير إلى السلام والطهارة والصفاء والنقاء والفرح والسعادة والعاقبة الحسنة، ومن ثم فهو يشير إلى صفات الصالحين الذين سيلبسونه، وإلى عاقبتهم الحسنة في الجنة، فضلا عن أن لمعان الذهب ولونه الجذاب المختلط مع بريق اللؤلؤ ولونه البهي، الذي ترصّع به أساور الذهب سيشكل لوحة لونية جميلة تجذب الأبصار، وتوحي بمقدار النعيم والجمال والإشراق والبهاء الذي يعيش فيه المؤمنون في الجنة.

تذكر الآية الكريمة بعد ذلك نوع لباسهم في قوله تعالى: ﴿**ولباسُهم فيها حرير**﴾، فبعد أن ذكر نص سورة الكهف لون ملابسهم الأخضر الزاهي، ونوعيها من السندس والإستبرق، فإنه يذكر هنا أصل السندس والإستبرق وهو الحرير، عبر جملة خبرية حدث فيها انزياح أسلوبي، إذ تقدم الجار والمجرور (فيها) على الخبر (حرير)؛ للاختصاص،

مشيرا إلى اختصاص المؤمنين بالجنة ونعيمها، ومن ألوان نعيمها لبس ملابس الحرير، «والحرير يطلق على ما نسج من خيوط الحرير، وأصل اسم الحرير اسم لخيوط تفرزها من لعابها دودة مخصوصة... ومن تلك الخيوط تُنسج ثياب تكون بالغة في اللين واللمعان، وثياب الحرير أجود الثياب في الدنيا قديما وحديثا»[٢٩]، وبذلك يؤشر لبس الحرير سيميائيا إلى نعيمهم، ومنزلتهم العالية، والاهتمام الكبير والعناية الفائقة بهم من الله تعالى، ويشير لينه إلى ترفهم ورقة العيش الذي يعيشون، في حين يشير لمعانه المتساوق مع لمعان الذهب واللؤلؤ الذي يظهر ويبرق من حليهم إلى جمال الحياة الأخروية التي يعيشونها ورونقها وبريقها الذي يخلب العقول والقلوب، ويلفت الأنظار، وربّ معترض يعترض هنا ويقول: كيف يلبس الرجال الذهب والحرير في الجنة، وقد حُرّما عليهم في الدنيا؟ ثم ألا يعدّ هذا تشبّها بالنساء؟ وأجيب بأن التحلية بالأساور، ولبس الحرير يمثل ثوابا ومكافأة وجزاء وهدية ثمينة لهم من الله عز وجل على التزامهم وإيمانهم في الحياة الدنيا، يظهر أثرها في الآخرة وفي الجنة، إذ «يهبهم أفخر الملابس التي حرموا منها في الدنيا، ويجملهم بزينة الأساور التي منعوا عنها في الحياة الأولى؛ لأنها كانت تؤدي إلى إصابتهم بالغرور والغفلة، وتكون سببا لحرمان الآخرين وفقرهم. أما في الجنة فينتهي هذا المنع ويباح للمؤمنين لباس الحرير والحلي وغيرها، وبالطبع ستكون للحياة الأخروية مفاهيم أسمى مما نفكر به في هذه الدنيا الدنية؛ لأن مبادئ الحياة ومدلولها يختلفان في الدنيا عما هي في الآخرة»[٣٠]، فضلا عن أن نظام الحياة في الآخرة ومتطلباتها يختلف عن نظام الحياة الدنيا ومتطلباتها، والله أعلم.

ويرد ذكر لباس أهل الجنة مرة ثالثة في القرآن الكريم في سورة فاطر، قال

تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣١]، فالآية الثالثة والثلاثون بصدد بيان فضل الله الكبير على عباده الذين اصطفاهم، وقد تجسد هذا الفضل بالجزاء الأخروي لهم، وهو جنات عدن واستقرار وبقاء أبدي في نعيمها الذي لا ينقضي ولا يزول، ومن أنواع هذا النعيم ما ورد في الآية الكريمة: ﴿**يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤا ولباسُهُم فيها حرير**﴾، ومما يلفت النظر في هذا النص أنه تكرار تركيبي تام لنص سورة الحج الذي سبق ذكره، إذ شكل خاتمة للآية الثالثة والعشرين من سورة الحج، وللآية الثالثة والثلاثين من سورة فاطر، فما سبب هذا التكرار التركيبي؟ إن للتكرار أهدافا وفوائد كثيرة، ومن فوائده تقرير الكلام في ذهن المتلقي؛ لأن الكلام إذا تكرر تقرر، وتوكيده، وبيان أهمية الشيء المكرر؛ لتنبيه المتلقي عليه، وتعظيمه[٣٢]، ولعل هذا الجزاء الأخروي الجميل، وهذه العاقبة الحسنة، المتجسدة بتحلية الصالحين بأساور من معدن الذهب البرّاق والثمين، وباللؤلؤ الذي يسحر العيون ببريقه وجماله، مما يستحق التكرار في أكثر من نص في القرآن الكريم؛ تقريرا، وتوكيدا، وتنبيها للمتلقي، وتعظيما لهذه الهدايا الثمينة، وترغيبا بالعاقبة الحسنة التي أعدها الله تعالى لعباده المصطفين، وبعد هذه المكافآت الرائعة نجدهم يحمدون الله عليها، وعلى إذهاب الحزن عنهم، فأصبحوا في حالة من الفرح والسرور الذي ملأ قلوبهم؛ لما يرون من نعيم كبير انعدم نظيره في حياتهم الدنيا التي عاشوها، ويبين القرآن حالهم هذه

في قوله تعالى: ﴿**وقالوا الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عنّا الحَزَنَ**﴾.

ويرغب الله جلّ شأنه المتقين في سورة الدخان، إذ يقول تعالى: ﴿**إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مقامٍ أمينٍ * في جنّاتٍ وعيونٍ * يلبسونَ من سندسٍ وإستبرقٍ متقابِلِينَ**﴾[٣٣]، إذ يؤكد النص عاقبتهم الحسنة بوساطة (إن) الحرف المشبه بالفعل الذي يفيد التوكيد، وهي كونهم في مقام أمين، أمنوا فيه من الحوادث والمشاكل والأحزان، كما أمنوا فيه من الشيطان وغوايته ووسوسته ومكره[٣٤]، وقد عبر المجاز العقلي عن هذا المعنى، إذ أسند الأمن إلى المكان، وإنما يؤمن فيه، ويكون هذا الأمان متحققا في جنات وبساتين جميلة، وعيون ماء عذب منتشرة في كل مكان، ومما يصور نعيمهم وهناءهم وسعادتهم ملابسهم التي يلبسون، والتي يصفها قوله تعالى: «يلبسونَ من سُندُس وإستَبرق متقابلين»، فقد أشار الفعل المضارع (يلبسون) إلى التجدد والتغيير المستمر في لباسهم، مما يدل على ترفهم وراحتهم النفسية، إذ يلبسون أرقى أنواع الديباج والحرير من السندس والإستبرق، ويجلسون في راحة كبيرة، وفي قبال بعض، وهذه الحالة الجميلة عبرت عنها الحال المنصوبة (متقابلين)، فهي تشير إلى حالة التقابل في جلوسهم، وتشير إلى الاحترام المتبادل والمحبة والصفاء والتوادّ الكبير بينهم، فلا يعطي أحدهم ظهره أو قفاه للآخر، بل يعطيه وجهه ويتحدث معه بمحبة واحترام كبيرين. إن الحال (متقابلين) في هذا النص كأنها تتساوق مع الحال (متّكِئين) في نص سورة الكهف السابق ذكره، وبذلك تكتمل أجزاء الصورة الأخروية الجميلة والمعبرة بدقة عن نعيمهم الذي أشارت إليه جلستهم، فهم في حالتي اتكاء وتقابل توحيان براحتهم النفسية الكبيرة.

ويرد ذكر لباس أهل الجنة في موضعين من سورة الإنسان، أولهما قوله

تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[٣٥]، فمن تجليات النعيم الأخروي الذي سيتنعم به الأبرار أن الله تعالى سيقيهم شر يوم القيامة وأهواله، وسيعطيهم نضارة وجمالا في الوجوه، وسرورا وفرحا غامرا في القلوب[٣٦]، وسيجزيهم بسبب صبرهم جنة عرضها السماوات والأرض، ولباسا منسوجا من خيوط الحرير الناعم والثمين الذي يشير إلى رغد العيش ونعومته وسلاسته، وإلى المنزلة الكبيرة التي حصلوا عليها من الله سبحانه، فقد «كان الجزاء برفاهية العيش إذ جعلهم في أحسن المساكن وهو الجنة، وكساهم أحسن الملابس وهو الحرير الذي لا يلبسه إلا أهل فرط اليسار، فجمع لهم حسن الظرف الخارج، وحسن الظرف المباشر وهو اللباس»[٣٧]، ثم يبين قوله: (متكئين) الذي وقع حالا منصوبة من الضمير (هم) في قوله: (جزاهم)، حالة الاتكاء على أرائك الجنة، وهي حالة توحي بالارتياح الكبير الذي يؤشر الحالة النفسية الجيدة وترف العيش وهدوءه، فالاتكاء «جلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس إلى مرفقه وجنبه، ويمدّ رجليه، وهي جلسة ارتياح، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ»[٣٨]، وبذلك يبين القرآن الكريم مقدار الجوائز الإلهية الكبيرة والعظيمة للأبرار في يوم القيامة؛ تقديرا لإيمانهم، ومكافأة على صبرهم الذي تحمّلوه في الدنيا، فحصدوا نتائجه الباهرة والثمينة في الآخرة، ومن نتائجه لباس الحرير البهي والناعم والفاخر الذي عوّضهم به الباري عزّ ذكره عن الملابس البسيطة والمتواضعة التي كانوا يلبسونها في الدنيا، وهو تعويض رائع وجميل على ما عانوه في رحلة الدنيا الشاقة.

وتستمر سورة الإنسان في بيان النعيم الذي سيحصل عليه الأبرار في الآخرة،

إذ قال تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾[٣٩]، إذ يبين النص نعيم الأبرار وملكهم الكبير الذي سيحوزونه في حياتهم الأخروية، ومن تجليات هذا النعيم أنهم سيلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق، وسيحلّون بأساور من فضة، وسيسقيهم ربهم شرابا طهورا، وقد ورد فعلا التحلية والسقي بصيغة الماضي؛ للإشارة إلى تحققهما في الآخرة دون أدنى شك أو ريب، ومما يلفت نظر المتلقي في هذا النص قوله: ﴿**عَالِيَهُم ثيابُ سندسٍ خُضرٌ وإستبرق**﴾، فلم يقل: «ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق»، كما ورد في نص سورة الكهف، ولم يقل: «ولباسهم فيها حرير»، كما ورد في نصي سورة الحج وسورة فاطر، ولم يقل: «يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين»، كما ورد في سورة الدخان، بل إنه لم يشر إلى فعل اللبس مطلقا، وإنما قال: «عاليهم» الذي يحتمل وجهين إعرابيين «أحدهما: أنه ظرف مكان؛ لأنه بمعنى فوقهم... والوجه الثاني: وهو الذي جرى عليه الأكثرون أنه حال»[٤٠]. والسؤال الذي يلحّ عليّ في هذا السياق هو: لماذا لم يشر هذا النص إلى فعل اللبس، كما النصوص السابقة واكتفى بلفظة (عاليهم)؟ إن فعل اللبس تكرر في النصوص السابقة أكثر من مرّة، فضلا عن أن التأمل السيميائي في لفظة (عاليهم) يحيل إلى العلو والارتفاع، فـ«العلو ضد السُفل، والعلوي والسُفلي المنسوب إليهما، والعلو الارتفاع وقد علا يعلو علوا وهو عالٍ، وعَلِيَ يعلي علا فهو عَليٌ، فعَلا بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثر. قال: ﴿**عاليهم ثياب سندس**﴾(الإنسان/٢١)»[٤١]، ولأن سياق النص سياق ذكر للنعيم والملك الكبير والدرجات العليا التي سيحظى بها الأبرار

في الحياة الأخروية، فقد جاءت لفظة (عاليهم) متساوقة مع هذه المعاني، ومندكّة فيها، ومعبرة عن المعنى العام للنص بأبهى بيان وأجمل صورة، ومبينة أن ثياب السندس والإستبرق ستعلو أجسامهم، وتكون فوقها وتغطيها، فضلا عن إشارتها إلى منزلتهم العالية ورفعة شأنهم، والله أعلم.

تحدثنا فيما تقدم من البحث عن نوعي لباس أهل الجنة من السندس والإستبرق، وعن لونه وهو الأخضر، ولا نريد تكرار الحديث هنا، إلا أننا نودّ الإشارة إلى أن تمظهر اللون الأخضر لم يقتصر على لباس أهل الجنة، بل شمل فراشهم ووسائدهم وما يجلسون عليه في الجنة، قال تعالى: ﴿**متّكئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعبقَرِيٍ حِسانٍ**﴾[٤٢]، ومن معاني الرفرف «فرش مرتفعة، عن الجبائي. وقيل: الرفرف رياض الجنة، والواحدة رفرفة، عن سعيد بن جبير. وقيل: هي المجالس، عن ابن عباس وقتادة والضحاك. وقيل: هي المرافق، يعني الوسائد، عن الحسن»[٤٣]، وبذلك يظهر لنا أن اللون الأخضر، بإشاراته الكثيرة والجميلة التي تقدم الكلام عليها، سيحيط بهم من كل جانب، فأشجار الجنة ونباتاتها في الأغلب الأعم ذات لون أخضر، وفرشها ووسائدها ومجالسها لونها أخضر، ولباس أهلها بلون أخضر، وبذلك يكون اللون الأخضر لونا مهيمنا في الجنة، وحاكيا بوساطة إشاراته السيميائية، نعيم أهل الجنة، وسعادتهم، وراحتهم النفسية التي ينعمون بها في أجواء الجنة الرائعة والجميلة، ومشكّلا مع الألوان الأخرى لوحة لونية بهية توحي بالهناء الكبير الذي يعيشه المؤمنون؛ جزاء لهم وتعويضا عمّا عانوه في الحياة الدنيا.

بعد أن أشار النص إلى ملابس أهل الجنة، فإنه يشير إلى حليّهم في قوله تعالى: ﴿**وحُلّوا أساوِرَ من فضّةٍ**﴾، ومما يميز هذا النص أنه النص الوحيد

الذي يذكر أن أساور أهل الجنة تتشكل من معدن الفضة، فقد ذكر نص سورة الكهف أنهم يحلّون بأساور من ذهب، قال تعالى: ﴿**يحلّونَ فيها من أساورَ من ذهب**﴾[٤٤]، وذكر نصّا سورة الحج وسورة فاطر أنهم يحلوّن بأساور من ذهب ولؤلؤ، قال تعالى: ﴿**يحلّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤا**﴾[٤٥]، وبهذا تتعاضد المعادن الثمينة والأحجار النفيسة؛ لتشكل حلي أهل الجنة، ولترسم لوحة تنبض بالجمال والروعة مع ملابسهم، ولتشير إلى سعادتهم الأبدية، ومنزلتهم الكبيرة، وعاقبتهم الحسنة. لكن يبقى نص سورة الإنسان يبعث على التساؤل عن سبب اقتصاره على ذكر الفضة فقط دون الذهب أو اللؤلؤ، وبالرجوع إلى سياق النص يمكننا أن نرصد دقّة هذه اللوحة القرآنية وفرادتها، فهي لوحة جميلة تذكر نعيم الأبرار في الجنة، ومن أنواع هذا النعيم ما ورد في النص الذي سبق ذكر أساور أهل الجنة المكونة من الفضة إذ قال تعالى: ﴿**ويُطافُ عليهم بآنِيَةٍ من فضّةٍ وأكوابٍ كانت قواريرًا * قواريرَ من فضّةٍ قدّروها تقديرًا**﴾[٤٦]، فقد ذُكر معدن الفضة مرتين هنا، ولكي تكتمل لوحة نعيم أهل الجنة المتميزة بلونها الفضي البرّاق والجميل، جاء ذكر حليهم الفضية التي تزينهم، فقال تعالى في الآية الحادية والعشرين: ﴿**وحلّوا أساورَ من فضّةٍ**﴾، وبهذه الهيمنة للّون الفضي تصبح الصورة القرآنية المتشكلة بوساطة هذا النص صورة جميلة تنبض بالبريق واللمعان والقوة التي هي من أهم الإشارات التي يبعثها اللون الفضي، فضلا عن إشارته إلى الاستقرار الذي يحس به أهل الجنة، والأناقة في ملبسهم، والحكمة في تصرفاتهم، والتبجيل والاحترام والتواضع والتوازن[٤٧]. وبهذا التشكيل اللوني الدقيق لمشهد النعيم الأخروي هذا نرى دقة التعبير القرآني، ودقة تشكيل

الصورة القرآنية المتناسقة التي تبعث المتلقي على التأمل فيها وفي تعبيريتها الدقيقة ومشهديتها المعبرة.

٢- الوحدات السيميائية الدالة على لباس أهل النار..

يذكر القرآن الكريم لباس أهل النار في نصين، الأول منهما في سورة إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[٤٨]، إذ يبين النص عاقبة المجرمين السيئة يوم القيامة، المتمثلة بقرنهم في الأصفاد، فقد عبرت الحال المنصوبة بالياء (مقرّنين) عن حالتهم المأساوية، ومن معانيها: «مجمعين في الأغلال، قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم. وقيل: يقرن بعضهم إلى بعض، عن الجبائي. وقيل: مشدودين في قرَن، أي: حبل من الأصفاد والقيود، عن أبي مسلم. وقيل: يقرن كل كافر مع شيطان كان يضله في غل من حديد، عن ابن عباس والحسن»[٤٩]، فالمعاني كلها تشير إلى الذل والإهانة التي سيتعرض لها الكافرون المجرمون يوم القيامة، كما أن التأمل السيميائي في لفظة (مقرّنين) يوحي بشدّة التقييد لهم، وهذا ما أشارت إليه بنية الكلمة، والتشديد الظاهر على حرف الراء الذي من صفاته التكرار، إذ تعاضدت الشدّة، وصفة التكرار في حرف الراء على بيان هذا المعنى، فكان من الممكن أن يقول: (مقرونين) مثلا، لكنها لا تؤدي معنى الشدة والإهانة للمجرمين، كما أدته لفظة (مقرّنين)، ثم يأتي حرف الجر (في)؛ ليبين معنى دقيقا، فهو يشير إلى الظرفية، فكأن المجرمين غدوا داخل هذه الأصفاد، وهي تحيط بأجسامهم من كل جانب، حتى أنها أصبحت ظرفا لأجسامهم، كما نقول: زيد في القاعة، فبهذا المعنى تكون القاعة ظرفا، ويكون زيد داخلا فيه، وهي تحيط به من كل جانب، فضلا عن أن التعبير القرآني وظف لفظة

(الأصفاد)، وهي بمعنى الأغلال، وهي جمع (صفَد)، فلم يكتف في طريقة تعذيبهم أن يقيّدهم بغلّ واحد، بل يقيّدهم بمجموعة من الأغلال؛ لتشمل أجسامهم كلها وتحيط بها من كل جانب، وبذلك يشير النص إلى شدّة التقييد وشموليته لأجسادهم، وهنا قد يعترض معترض فيقول: لماذا هذه الشدة والشمول في طريقة تقييد المجرمين؟ هل هناك احتمال لهربهم مثلا يوم القيامة؛ لكي يقيّدوا بهذه الطريقة؟ وجوابا أقول: إن السؤال منطقي، ولا احتمال لهربهم من ساحة العدل والحساب الإلهي، لكن هذه الطريقة في التقييد تبعث إشارات دقيقة على الشدة والمبالغة في إهانة الكافرين المجرمين؛ بسبب ما قاموا به من أعمال دنيئة وجرائم في الحياة الدنيا، والله أعلم.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين الآيات التي ذكرت لباس أهل الجنة وحليّهم، وبين هذه الآية، فإننا سنجد مقابلة بين صورتي نعيم المؤمنين في الجنة، وعذاب الكافرين في جهنم، فقد وصفت آيات لباس أهل الجنة، حليّهم التي يلبسونها ويتجمّلون بها في أجواء الجنة المفعمة بالسعادة والراحة النفسية، فهم يلبسون أساور من ذهب ومن فضة، ولؤلؤا، وتحيط هذه المعادن الثمينة والأحجار الكريمة بأجسامهم؛ لتصورهم أجمل تصوير، وهم في أتم نعمة، فهذه الحلي تبعث إشارات سيميائية على كونهم من المنعّمين، بل الغارقين في نعيم الجنة، في حين وصفت هذه الآية أصفاد الكافرين التي ستقيّدهم وتحيط بأجسامهم من كل جانب؛ لتصوّر عذابهم ومعاناتهم في جهنم؛ جزاء على إجرامهم في الدنيا، فهذه الأصفاد تبعث إشارات سيميائية على كونهم من المعذبين في جهنم عذابا شديدا في ذلك اليوم المشهود، وبذلك تكون أصفاد الكافرين المجرمين التي يعذبون بها في قبال حليّ المؤمنين التي يتنعمون بها،

وهذه مقابلة رائعة ودقيقة بين صورتي النعيم والعذاب يوم القيامة، تبعث المتلقي على التأمل فيهما، والسعي الجاد لكي يكون من ضمن صورة النعيم الجميلة والمبهجة، ولا يكون ضمن صورة العذاب المرعبة والمحزنة.

يذكر النص بعد ذلك لباس المجرمين في جهنم في قوله تعالى: «سرابيلهم من قطِران»، والسرابيل جمع سربال، وهو «القميص من أي جنس كان»[٥٠]، وهو فيما يبدو كناية عن مطلق اللباس، ويأتي حرف الجر (من)؛ ليبين جنس قماش هذه السرابيل، وهنا تبدو المفارقة التي تفاجئ المتلقي، وهي كون قماش لباسهم الذي يرتدون في جهنم ليس من جنس الأقمشة التي تعوّد الناس على لبسها، وإنما هو من القطران، وهو «دهن من تركيب كيمياوي قديم عند البشر»[٥١]، وهذا الدهن مما «يطلى به الإبل، شيء أسود لزج منتن، يطلون به فيصير كالقميص عليهم، ثم يرسل النار فيهم؛ لتكون أسرع إليهم، وأبلغ في الاشتعال، وأشد في العذاب، عن الحسن والزجاج. وقيل نحاس أو صفر مذاب قد انتهى حرّه، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وجوّز الجبائي على القراءتين أن يسربلوا سربالين، أحدهما من القطران والآخر من القطْر»[٥٢]، والقطران هو «ما يتحلب من شجر يسمى الأُبهل، فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع في اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون، منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار، حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل، وهي القمص؛ ليجتمع عليهم لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح»[٥٣]، وبالتأمل في هذه النصوص يظهر لنا نوع لباس أهل النار، وصفاته التي تميزه، فالرأي الأشهر أنه دهن أسود تطلى به أجسام الكافرين في جهنم، ومما يميّز

هذا الدهن - فضلا عن لونه الأسود - رائحته النتنة الكريهة، وحرارته الشديدة، وحدّته، وسرعة اشتعاله، ولزوجته؛ وبسبب لزوجته يثبت على أجساد المعذّبين في جهنم، كما يثبت القميص على لابسه. ويحمل لونه الأسود عدّة إشارات سيميائية، إذ يشير إلى القلق والكآبة والسوداوية والحزن، ومصير الإنسان المأساوي الفاجع، ويحيل إلى الصمت المرتبط بسكون الليل والموت[٥٤]، فلون سرابيل الكافرين الأسود يحكي نهايتهم الفاجعة وحزنهم الكبير، وقلقهم، وخوفهم، واسوداد الأفق أمامهم، وذلّهم وإهانتهم يوم القيامة، بحيث أنهم يطلون بالقطران كما تطلى الإبل الجربى، ويحذر المتلقي من المصير المأساوي للكافرين، كما تحكي رائحته النتنة التي لا تطاق، وحرارته الشديدة التي لا تحتمل، وسرعة اشتعاله، ولزوجته المقرفة على أجسادهم شدّة العذاب المسلط على الكافرين المجرمين الذين أجرموا بحقّ أنفسهم وبحقّ الناس.

ومما يلفت النظر في علاقة اللون الأسود بعذاب الكافرين أنه لا يشمل لباسهم فقط، ولا يغطي أجسامهم فقط، بل يشمل وجوههم، إذ تسودّ هذه الوجوه، ويعلوها اللون الأسود؛ لتظهر ذلّهم وافتضاحهم وهوانهم يوم القيامة؛ ولتبين ما يلقونه من خزي وترقب وفزع وخوف شديد من العذاب[٥٥]، قال تعالى: ﴿**يومَ تبيَضُّ وجوهٌ وتسوَدُّ وجوهٌ فأمّا الذينَ اسودّتْ وجوهُهُم أكَفرتُم بعد إيمانكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون**﴾[٥٦]. وبهذا فإن اللون الأسود سيغطيهم من رؤوسهم إلى أقدامهم، حاكيا نهايتهم المأساوية ومصيرهم الفاجع الأسود.

الرأي الثاني في معنى القطران هو أنه نحاس أو أي معدن مذاب شديد الحرارة؛ لأن المعادن بحاجة إلى درجات عالية جدا من الحرارة كي

تنصهر وتذوب، إذ تشير المختبرات الكيمياوية إلى أن درجة انصهار النحاس تبلغ ١٠٨٣،٤ درجة مئوية، في حين تبلغ درجة غليانه ٢٥٦٧ درجة مئوية[٥٧]، ولنا أن نتصوّر ما تفعله درجة الانصهار، أو درجة الغليان لهذا المعدن إذا ما تمّ صبّه على الكافر في نار جهنّم، ثم إن هذا المعدن بعد أن يتم صبّه على جسد الكافر فإنه سيجف ويتماسك على أجزاء جسده وسيشكل رداء لهذا الإنسان وملبسا له في جهنم، ولكنه ملبس العذاب الشديد، وهذه صورة معبرة ومخيفة أشد الخوف تبين لباس الكافرين في جهنم، وتصور عذابهم الشديد. ولا مانع -بحسب رأي الجبائي- أن يُسربل الكافر المجرم سربالين ونوعين من اللباس في جهنم، أحدهما: القطران الأسود والثاني: النحاس المذاب؛ مبالغة في شدّة عذابه؛ نتيجة لما عمله من جرائم وموبقات في الدنيا.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين لباس المؤمنين في الجنة، ولباس الكافرين الوارد وصفه في هذا النص سنجد أن المؤمنين يلبسون ثياب الحرير والديباج والسندس والإستبرق والحلي؛ تعظيما لشأنهم، وتقديرا ومكافأة لأعمالهم الحسنة التي قدموها في الدنيا، وهم مخيّرون في لبس أي نوع من اللباس يشاؤون ويحبّون، وفي لبس أي نوع من الحلي يرغبون، فضلا عن أن لبسهم له للتزين، في حين سنجد الكافرين يتم تقييدهم بالأصفاد، ويتم إلباسهم سرابيل القطران؛ لتعذيبهم على أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا، وهم غير مخيرين في لبس الأصفاد وسرابيل القطران، بل يتم إجبارهم على لبسها؛ مبالغة في إهانتهم وتعذيبهم أشد العذاب، وهاتان صورتان متقابلتان يرسمهما القرآن الكريم بدقة وعناية، فيهما الكثير من الإشارات السيميائية والدلالات المعبرة التي تحث المتلقي على التأمل الدقيق والواعي في أجزائهما الجميلة والمرغّبة

من جانب، وغير الجميلة والمرهّبة من الجانب الآخر؛ ليسعى جاهدا وكادحا ليكون ضمن الصورة الجميلة الموحية بنعيم الجنة الذي لا زوال له ولا انتهاء، ولا يكون ضمن الصورة المرعبة والمخيفة الموحية بعذاب النار التي لا تبقي ولا تذر، وهذه الصور المتقابلة من خصوصيات القرآن الكريم الذي يبعث بوساطتها إشارات مهمة للمتلقي، ويخيّره في اختيار أيٍّ منهما، على أن يتحمل نتيجة اختياره، مع ترغيبه وتحفيزه على اختيار صور النعيم وترك صور العذاب، قال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيلَ إمّا شاكرًا وإمّا كَفورًا**﴾[٥٨]، وقال: ﴿**ونَفْسٍ وما سوّاها * فألهَمَها فجورَها وتقواها * قد أفلحَ من زكّاها * وقد خاب من دسّاها**﴾[٥٩].

النص الثاني الذي يرد فيه ذكر لباس الكافرين في جهنم قوله تعالى: ﴿**هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**﴾[٦٠]، فالنص يبين عاقبة الكافرين التي سينتهون إليها، ويصور طرق عذابهم في جهنم، وهي صور مرعبة وصادمة، على الإنسان أن يتأملها بدقة؛ لكي لا يكون جزءا منها يوم القيامة، إذ تصور الصورة الأولى ثيابهم في جهنم، وتصور الثانية صبّ الحميم فوق رؤوسهم، وتبين الثالثة انصهار ما في بطونهم وجلودهم؛ بسبب صبّ الحميم الحار جدا على رؤوسهم، فيما تصور الصورة الرابعة مقامع الحديد التي سيعذّبون بها، وبهذه الصور المخيفة والمتساوقة بعضها اثر الأخرى تتشكل أجزاء لوحة العذاب هذه التي يرسمها القرآن بدقة كبيرة؛ محفزا الإنسان الذي يشاهد تفاصيلها الدقيقة على تجنبها ما أمكنه إلى ذلك سبيلا، ومما يثير انتباه المتلقي أن الصورة الأولى من صور العذاب هذه تختص بتصوير ثياب

الكافرين في جهنم بوساطة الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿**قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نار**﴾، إذ يعلّق الشريف الرضي عليها بقوله: «أولا تجد هذه الثياب من النار موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم، فقد خلقت الثياب يتّقي بها اللابس الحر والقر، فماذا يكون الحال إذا قدّت الثياب من النيران؟»[٦١]، وهذه مفارقة تبين شدة العذاب الذي سيقع على الكافرين في جهنم، إذ تحيط بهم النار من الجوانب والاتجاهات كلها، فقد «رسمها المقطع ثوبا يلبسه الكافر، وأهمية هذه الصورة - وهي منتخبة من أشد الظواهر ألفة عند الناس - تتمثل في كونها تجعل الثياب دون غيرها رمزا لشدّة عذاب النار، بصفة أن الثياب هي المظهر المألوف لتغطية الجسم من جانب، وبصفتها - من جانب آخر - تلتصق بالجسم، وحينئذ فإن مباشرة النار لجسم الكافر تظل - من خلال رمز الثوب - أشدّ الرموز حيوية وصدقا في التعبير عن شدائد العذاب»[٦٢]، وفي التعبير عمّا يقاسيه الكافر يوم القيامة.

إن تحليل الجملة الخبرية: (فالذين كفروا قُطّعتْ لهم ثيابٌ من نارٍ) يفضي إلى منظومة لغوية دقيقة تبعث بالإشارات السيميائية المعبرة عن أكثر من معنى، إذ تشير الآية إلى الكافرين بالفعل الماضي (كفروا)، ومن خصائص الفعل الماضي أنه يشير إلى التحقق والثبوت، بمعنى أن هذا العذاب سيقع على الذين تحقق منهم الكفر في الحياة الدنيا، وثبتوا على كفرهم، ولم ينتقلوا منه إلى الإيمان، ثم يشير الفعل الماضي المبني للمجهول: (قُطّعت) إلى تقطيع وتفصيل ملابس أهل النار على مقاسات أجسامهم، كما يفعل الخياط حينما يفصّل القماش على قياس صاحبه؛ ليكون ملبسا ملائما له ومناسبا لجسمه، وقد بين الفعل الماضي أن فعل تقطيع الثياب هذا متحقق لا محالة يوم القيامة،

مع أن موعده لم يحِنْ بعد، كما أشارت الشدّة الظاهرة فوق الفعل إلى شدة عملية التقطيع هذه على الكافرين، وأشار تقديم الجار والمجرور (لهم) على نائب الفاعل (ثياب) إلى اختصاص الكافرين بهذا النوع من الثياب، فهي ثياب مختصة بهم وليس بغيرهم، ثم يأتي الجار والمجرور (من نار)؛ ليحقق المفاجأة عند المتلقي، وليكسر أفق التوقع عنده، فالمتسالم بين الناس أن الثياب من قماش، لكن ثياب أهل النار -بحسب الآية- ستكون من نار، فقد بين حرف الجر (من) جنس ثيابهم، وهنا تتحقق هذه الصورة الترهيبية المرعبة والمفاجئة للمتلقي في آن معا؛ لتصور نهاية الكافرين، فكيف يتعامل الكافر مع هذه النهاية الفاجعة؟ هل سيسلم نفسه وجسمه الذي أحاطه بأنواع العناية في الدنيا إلى هذا المصير المأساوي أو عليه التدارك؛ لكي ينجو؟ أنا متأكد أن الجميع سيجيب بأنّ على الإنسان التدارك؛ لكي ينجو من هذه النهاية الخطيرة، والقرآن الكريم يدعو الإنسان في الكثير من نصوصه إلى التدارك، فهل من مدّكر، وهل من متدارك؟.

وإذا ما سعينا إلى المقارنة بين نص سورة إبراهيم الذي وصف ثياب أهل النار، وهذا النص سنجد أن ثمة إشارات سيميائية دقيقة يبعثها النصان، ومن هذه الإشارات التصاق ثياب أهل النار بأجسامهم؛ لكي يكون عذابهم شديدا ومؤلما، فقد أشار نص سورة إبراهيم إلى أن (سرابيلهم من قطِرانٍ)، ومن المعلوم -كما بينا سابقا- أن القطران يكون لزجا وقابلا للاشتعال وملتصقا بجسم الكافر؛ ليكون عذابه أشد، وكذلك الثياب المفصّلة بدقة تكون ثابتة على جسم الإنسان وملتصقة به، إلّا أن ثياب أهل النار الثابتة على أجسامهم والملتصقة بها ستكون من نار؛ ليكون عذابهم أشد. وكما أن القطران يحيل إلى اللون الأسود، كذلك توحي النار التي فصّلت

ثياب الكافرين منها إلى اللون الأسود؛ لأن نار جهنم سوداء اللون بحسب الأحاديث الشريفة، وبذلك سيشير اللون الأسود للباس أهل النار إلى مصيرهم الأسود، وعاقبتهم السيئة، ونهايتهم الفاجعة، وأجواء الحزن والكآبة والسوداوية التي سيعيشونها في جهنم. فضلا عما تقدم فإن العذاب -بحسب النصين- لا يشمل أجسامهم فقط، بل سيشمل وجوههم ورؤوسهم، ومن ثم فإن الجسم بأجمعه سيكون مشمولا بالعذاب، من رأس إلى قدم، وهذا ما ظهر جليا في نص سورة إبراهيم، إذ قال تعالى: ﴿**سرابيلهم من قطِرانٍ وتغشى وجوهَهُم النار**﴾، وفي نص سورة الحج، إذ قال سبحانه: ﴿**فالذين كفروا قُطّعتْ لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبّ من فوقِ رؤوسِهِمُ الحميم**﴾، وبسبب هذا العذاب ستكون وجوه الكافرين ورؤوسهم ذات لون أسود، وبذلك سيشملهم ويحيط بهم السواد من كل جانب؛ ليوحي بمصيرهم المؤلم.

وإذا رجعنا إلى سورة الحج فإننا سنجد أن نص الترهيب المتمثل بلوحة العذاب ذات المشاهد الأربعة، ومن ضمنها مشهد لباس الكافرين، متبوع بنص ترغيب ذي مشاهد أربعة أيضا يصور نعيم المؤمنين في الجنان، إذ قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾[٦٣]، وقد تحدثتُ عن حلي أهل الجنة ولباسهم في القسم الأول من البحث، إلّا أن الذي أودّ الإشارة إليه هنا هو هذه المقابلة الدقيقة والمؤثرة بين مشهدي العذاب والنعيم، وهذا التقابل في وصف لباس أهل الجنة، ولباس أهل النار بين المشهدين القرآنيين اللذين يسعيان إلى بيان الفرق الكبير بين اللباسين. إن هذه الصور المتقابلة وهذا التضاد بينهما يصور للمتلقي صورتين

متضادتين، الأولى تصور عذاب أهل النار ولباسهم الذي سيكون سببا من أسباب عذابهم الشديد، والثانية تصور نعيم أهل الجنة وحليهم الثمينة ولباسهم الجميل والناعم والغالي الذي سيكون سببا من أسباب نعيمهم الكبير. إن هذين المشهدين المتضادين والمتعاكسين يحفزان متلقي النص القرآني على التأمل الواعي والدقيق في صورهما، ومن ثم عليه السعي والعمل؛ ليكون ضمن مشهد النعيم الجميل، ولا يكون ضمن مشهد العذاب المخيف، وبهذا الأمر فإن القرآن الكريم سيعطي دافعية كبيرة للإنسان نحو الإقبال على العمل الصالح والابتعاد عن العمل السيء الذي لا يحصد منه إلّا السوء والندم.

الخاتمة:

بعد هذه القراءة السيميائية للتمظهرات اللسانية للباس أهل الجنة، ولباس أهل النار في القرآن الكريم، خرجنا ببعض النتائج، وهي كما يأتي:

١- اللباس نظام من العلامات، له وظائف عدّة، ويوحي بالكثير من الإشارات، ويبين انتماء لابسه ومنزلته الاجتماعية، وحالته النفسية والمعاشية والمادية.

٢- إن الموضة -بحسب رولان بارت- علامة، فضلا عن كونها وظيفة، وعلى وفق ذلك، فإن اللباس منظومة إشارية (لغة)، وقد يبتعد عن وظيفته الأساس؛ ليضطلع بوظيفة ثانية لا تقل أهمية عن وظيفته الأولى، إذ تنطوي الموضة واللباس على بلاغة وعلى إشارات قوية، وقدرة على الدلالة والتعبير والتمييز قد لا تمتلكها الكلمات.

٣- اضطلع لباس أهل الجنة، فضلا عن وظيفته الأولى، بوظيفة ثانية أراها لا تقل أهمية عن وظيفته الأولى، إن لم تكن أهم منها، وهي الإشارة إلى الخير والنعيم والترف والسعادة، والراحة النفسية، والمنزلة العالية التي حصلوا عليها، والعناية الكبيرة بهم من الله تعالى؛ مكافأة لهم وجزاء لما عملوه من أعمال صالحة في حياتهم الدنيا.

٤- أشار لباس أهل النار إلى العذاب الذي يحيط بالكافرين من كل جانب، وبيّن عذابهم الشديد، وعاقبتهم السيئة، ونهايتهم المأساوية، وأجواء الحزن والأسى والكآبة التي يعانونها؛ جزاء لهم وعقابا على أعمالهم السيئة التي عملوها في حياتهم الدنيا.

٥- ورد وصف لباس أهل الجنة في ستة نصوص في القرآن الكريم، وانماز لباسهم بأنه من الحرير والسندس والإستبرق، وهذه أرقى أنواع القماش وأفضلها وأثمنها، وقد تميز بلونه الأخضر الزاهي الجميل الذي يشير إلى الهدوء والإيمان والخير، والعاقبة

الحسنة، وهو رمز الخصب والنماء والحياة والحركة والتفاؤل والسرور والأمان والسعادة.

٦- انمازت حلي أهل الجنة -وهي من العلامات الملبسية المهمة من الناحية التأويلية والدلالية بحسب بارت- بجمالها وتنوّعها من أساور من ذهب، وأساور من فضة، ولؤلؤ، وقد أوحت ألوانها الجميلة والبراقة إلى القوة والوهج والبريق والإشراق والغنى والتميز والجودة والرقي والفرح والفوز والعاقبة الحسنة، والتبجيل والاحترام والأناقة، ومن ثم فقد شكلت هذه الحلي مع ملابس أهل الجنة لوحة جميلة ذات ألوان زاهية وجميلة وبرّاقة توحي بالنعيم الذي حصل عليه المؤمنون في الجنة.

٧- ذكر القرآن الكريم لباس أهل النار في نصّين، وقد انمازت ثيابهم بأنها من قطران، وفصّلت من النار، إذ اجتمعت فيها صفتا الالتصاق على أجسام الكافرين، والحرارة الشديدة؛ لتكون أشد التصاقا وأشد حرقة وعذابا وألما لهم، كما انمازت بلونها الأسود الذي يحمل عدّة دلالات سيميائية، منها الحزن والقلق والكآبة والسوداوية، والعاقبة السيئة، والمصير المأساوي الفاجع الذي انتهى إليه الكافرون، وأظهرت الأصفاد التي قرّنوا فيها شدّة تقييدهم، وذلّهم وهوانهم وعذابهم الشديد.

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم.

١ـ إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، د. ت.

٣ـ التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، مؤسسة الطبع التابعة للعتبة الرضوية المقدسة، مشهد، ط١، ١٤٣٣هـ

٤ـ تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٩٨٤م.

٥ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

٦ـ دروس في علم التجويد، مضر الصحاف، مطبعة الأنباري، بغداد، د. ط، د. ت.

٧ـ السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، د. جميل حمداوي، مؤسسة الوراق للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١١م.

٨ـ الشعر التونسي وأشكال الكتابة، أعمال ندوة محمد البقلوطي، تونس، د. ط، ٢٠٠٦م.

٩ـ العلامة - تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢،٢٠١٠م.

١٠ـ مبادئ علم الأدلة، رولان بارت، ترجمة محمد البكري، منشورات كلية الآداب، مراكش، الدار البيضاء، د. ط،١٩٨٦م.

١١ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، دار القارئ للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٣٠-٢٠٠٩م.

١٢ـ مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، د. ط، ١٩٨٣م.

١٣ـ المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث للنشر، القاهرة، د. ط، ١٤٣٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٤ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت.

١٥- معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م.

١٦ـ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

الدوريات:

١- سيميائية البنى السردية في رواية نساء العتبات، د. طلال خليفة سلمان، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، مجلد٢١ (٤)، ٢٠١٠م.

٢ـ علامات الوجوه في المشهد الأخروي في القرآن الكريم، د. طلال خليفة سلمان، مجلة الآداب، ع١٠٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م.

٣- الفرح والسرور في القرآن الكريم - دراسة سيميائية، د. طلال خليفة سلمان، مجلة الأستاذ، ع١٥٠، ٢٠١١ م - ١٤٣٣هـ

مواقع الانترنت:

١- باريس مختبر الحداثة وعاصمة الجمال، مجلة نزوى، على الرابط الآتي: www.nizwa.com بتاريخ ٢٠١٧/٧/٢٩م.

٢- الجسد المعرفي وتاريخ الجمال، عائشة الدرمكي، شرق غرب، العدد الثاني، اكتوبر ٢٠١٤، على الرابط الآتي: sharqgharb.net بتاريخ ٢٠١٧/٧/٢٨م.

٣- سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة، د. جميل حمداوي، منتدى معمري للعلوم، على الرابط الآتي ilm2010 maamri بتاريخ ٢٠١٧/٨/١م.

٤- علم النفس اللوني، موسوعة الويكيبيديا، على الرابط الآتي: Wikipedia.org بتاريخ ٢٠١٧/٨/٢٨م.

٥- كيف يتكون اللؤلؤ، موقع موضوع، على الرابط الآتي: mawdoo3.com، بتاريخ ٢٠١٧/٨/٩م.

٦- كيف يذوب النحاس، موقع موضوع، على الرابط الآتي: mawdoo3.com، بتاريخ ٢٠١٧/٨/٣٠م.

الهوامش:

(١) الأعراف، ٢٢، وينظر: طه، ١٢١.

(٢) الأعراف، ٢٦.

(٣) النحل، ٨١

(٤) ينظر: معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ١٠٢.

(٥) ينظر: العلامة - تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢،٢٠١٠م، ٦٥.

(٦) العلامة، ٧١ - ٧٢.

(٧) معجم السيميائيات، ٩١.

(٨) السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، د. جميل حمداوي، مؤسسة الوراق للنشر، عمّان، ط١، ٢٠١١م، ٧٤.

(٩) ينظر: مقال: الجسد المعرفي وتاريخ الجمال، عائشة الدرمكي، شرق غرب، العدد الثاني، اكتوبر ٢٠١٤، على الرابط الآتي: sharqgharb.net بتاريخ ٢٠١٧/٧/٢٨م.

(١٠) Systeme de la mode , Roland Barthes , Ed Seuil ,1967 , page 265،

نقلا عن مقال: باريس مختبر الحداثة وعاصمة الجمال، مجلة نزوى، على الرابط الآتي: www.nizwa.com بتاريخ ٢٠١٧/٧/٢٩م.

(١١) ينظر: باريس مختبر الحداثة وعاصمة الجمال.

(١٢) معجم السيميائيات، ٩٣.

(١٣) مبادئ علم الأدلة، رولان بارت، ترجمة محمد البكري، منشورات كلية الآداب، مراكش، الدار البيضاء، د.ط، ١٩٨٦م، ٥٠.

(١٤) معجم السيميائيات، ٩٣.

(١٥) ينظر: بحث: سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة، د. جميل حمداوي، منتدى معمري للعلوم، على الرابط الآتي - maamri ilm2010. بتاريخ ٢٠١٧/٨/١م.

(١٦) الكهف، ٣٠ - ٣١.

(١٧) مقال: الجسد المعرفي وتاريخ الجمال.

(١٨) المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث للنشر، القاهرة، د.ط، ١٤٣٤هـ - ٢٠٠٣ م، ٩٢، مادة حلا.

(١٩) تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١، ١٩٨٤م، ٣١٢/١٥.

(٢٠) ينظر: بحث: سيميائية البنى السردية في رواية نساء العتبات، د. طلال خليفة سلمان، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، مجلد ٢١ (٤)، ٢٠١٠م، ٨٤٨

(٢١) مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، د.ط، ١٩٨٣م، ٣١٢، مادة سندس.

(٢٢) مختار القاموس، ٢٠، مادة استبرق.

(٢٣) ينظر: دروس في علم التجويد، مضر الصحاف، مطبعة الأنباري، بغداد، د.ط، د. ت، ٥٥.

(٢٤) ينظر: دروس في علم التجويد، ٥٦.

(٢٥) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي، دار القارئ للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٣٠-٢٠٠٩م، ٩٦/٩.

(٢٦) الإنسان، ١٢ – ١٣.

(٢٧) الحج، ٢٣.

(٢٨) ينظر: كيف يتكون اللؤلؤ، موقع موضوع، على الرابط الآتي: mawdoo3.com، بتاريخ ٢٠١٧/٨/٩م.

(٢٩) تفسير التحرير والتنوير، ٢٣٣/١٧ – ٢٣٤.

(٣٠) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، د. ت، ٢١٧/١٠.

(٣١) فاطر، ٣٢ – ٣٤.

(٣٢) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، د. ط، د. ت، ٣٤١/١.

(٣٣) الدخان، ٥١ – ٥٣.

(٣٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٩٧/٩.

(٣٥) الإنسان، ١١– ١٣.

(٣٦) ينظر: بحث: الفرح والسرور في القرآن الكريم –دراسة سيميائية، د. طلال خليفة سلمان، مجلة الأستاذ، ع ١٥٠، ٢٠١١م – ١٤٣٣هـ ٢٨.

(٣٧) تفسير التحرير والتنوير، ٣٨٨/٢٩.

(٣٨) تفسير التحرير والتنوير، ٣٨٨/٢٩.

(٣٩) الإنسان ٢٠ – ٢١.

(٤٠) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١١، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، ١٧٠/٨ – ١٧١.

(٤١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م، ٣٥٨، مادة علا.

(٤٢) الرحمن، ٧٦.

(٤٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٢٩٧/٩.

(٤٤) الكهف، ٣١.

(٤٥) الحج، ٢٣، فاطر، ٣٣.

(٤٦) الإنسان، ١٥ – ١٦.

(٤٧) ينظر: علم النفس اللوني، موسوعة الويكيبيديا، على الرابط الآتي: Wikipedia.org بتاريخ ٢٠١٧/٨/٢٨م.

(٤٨) إبراهيم، ٤٩ – ٥٠.

(٤٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٨٠/٦

(٥٠) المفردات في غريب القرآن، ٢٣٧، مادة سربل.

(٥١) تفسير التحرير والتنوير، ٢٥٣/١٣.

(٥٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٨٠/٦

(٥٣) إعراب الفرآن الكريم وبيانه، ١٦٤/٤.

(٥٤) ينظر: الشعر التونسي وأشكال الكتابة، أعمال ندوة محمد البقلوطي، بحث: الإيقاع والتحديث، عبد الله البهلول، تونس، د. ط، ٢٠٠٦م، ٩٠.

(٥٥) ينظر: بحث: علامات الوجوه في المشهد الأخروي في القرآن الكريم، د. طلال خليفة سلمان، مجلة الآداب، ع١٠٢، ١٤٣٢هـ – ٢٠١٢م، ٢٧٩.

(٥٦) آل عمران، ١٠٦، وينظر: الزمر، ٦٠.

(٥٧) ينظر: كيف يذوب النحاس، موقع موضوع، على الرابط الآتي: mawdoo3.com، بتاريخ ٢٠١٧/٨/٣٠م.

(٥٨) الإنسان، ٣.

(٥٩) الشمس ٧ – ١٠.

(٦٠) الحج، ١٩ – ٢١.

(٦١) تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م، ٢٣٨.

(٦٢) التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، مؤسسة الطبع التابعة للعتبة الرضوية المقدسة، مشهد، ط١، ١٤٣٣هـ ٣/ ١٨٣.

(٦٣) الحج، ٢٣.

٥

موقف الأئمة عليهم السلام في مواجهة البدع والانحرافات العقائدية

الإمام العسكري عليه السلام مثالا

أ.م. د. بشرى حنون محسن / أ. د. أنوار سعيد جواد
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

ملخّص:

الحمد لله رب، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد نبي الرحمة وآله وصحبه من والاه إلى يوم الدين.

وبعد:

من سنن الباري عز وجل أن أقام الحجة على الأمة في جميع عصور الإنسانية وأزمنتها؛ حفاظا على الهوية الرسالية التي بعثها للإنسانية جمعاء، وهذا ما يوضحه قوله عز من قائل: ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾[1]

ومن هنا يتضح لنا أثر الأئمة عليهم السلام في قيادتهم للأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وحفظهم للشريعة الإسلامية السمحاء مما جابهته من مظاهر الانحرافات والبدع سواء على الصعيد الاجتماعي أم السياسي وحتى العقائدي والفكري.

والإمام الحسن العسكري عليه السلام كآبائه وأجداده كان حريصا على حفظ الرسالة السماوية والشريعة الإسلامية من مظاهر الانحرافات والتحريف والبدع التي كانت سائدة قبل إمامته عليه السلام؛ والتي ظهرت في عصره بسبب بعض الأوضاع السياسية السائدة آنذاك، وبسبب تراكمات فكرية كانت سائدة قبل عصره الممتد من سنة (٢٥٤هـ إلى ٢٦٠هـ)، أي إن مواقفه وآراءه هي امتداد لمواقف آبائه عليهم السلام وآرائهم الذين يمثلون الخط القرآني، أو هم (عِدل القرآن)، كما هو الحال في موقفه من الصوفية وغيرها.

وسيحاول هذا البحث الوقوف عند أهم المواقف وأبرزها، والآراء والأقوال التي تصدى بها الإمام العسكري عليه السلام لمظاهر الانحرافات والبدع؛ منها: موقفه من الفرقة الواقفية، والثنوية، والمفوضة، هذا إلى جانب موقفه مما طرحه الكندي أو حاول ذلك، ورده الفتنة التي أوشك أن يوقعها الجاثليق النصراني في معتقدات الإسلام.

مدخل:

رصد الإمام الحسن العسكري عليه السلام كل الحالات والتحركات الفكرية التي من شأنها أن تحرف العقيدة الإسلامية أو تطعن بها مما يولد انحرافا عنها أو شكًّا فيها، وقد جابه الإمام عليه السلام ذلك كله بأسلوب علمي رصين يرفده فكر متوقد، وعلم واسع، وحكمة عالية، بعيدا عن التعصب أو الانحياز، مما يشكل درسا بليغا للمسلمين كافة على مر الأجيال والعصور في كيفية مواجهة مثل هذه التحديات والمواقف التي ترسم صورة الانحراف الذي تتعرض له الرسالة الإسلامية منذ وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا.

المبحث الأول:

الانحراف الفكري والعقائدي:

موقف الإمام العسكري عليه السلام من الصوفية:

الصوفية من الفرق التي ظهرت على الساحة الإسلامية في القرن الثاني الهجري على يد أبي هاشم الكوفي، وقد وردت في حقهم والرَّد على آرائهم الباطلة والمنحرفة نصوص عديدة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنها ما روي عن الإمام علي الهادي عليه السلام في وصفهم، حيث قال: «إنَّهم خلفاء الشياطين، ومخربوا قواعد الدين، يتزهدون لراحة الأجسام، ويتجهَّدون لتقييد الأنام، أورادهم الرقص والتصدية، وأذكارهم الترنم والتغنية...»[٢].

فهذه الفرقة التي يرى بعض الدارسين والباحثين أن جذورها تمتد إلى زمن الرسول صلى الله عليه وآله بسبب الخوف الزائد وغير المتوازن مع الرجاء[٣]، كانت تمارس شعائرَ وطقوسا خارجة عن أصل الدين،

«وغالبا ما كانوا يبتغون من وراء ذلك خداع العامة وكسب ودِّهم... وكانوا يلبسون الصوف والخشن من الثياب كشعارٍ لهم ورياءً أمام العامة»(٤).

وقد وصفهم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بأنهم أعداء الإسلام، وذلك عندما سأله أحدهم قائلا: «قد ظهر في هذا الزمان قومٌ يُقال لهم الصوفية، فما تقول فيهم؟ قال عليه السلام: إنَّهم أعداؤنا فمَنْ مال إليهم فهو منهم، ويُحشر معهم»(٥).

أما كيف تعامل الإمام الحسن العسكري عليه السلام مع هذه الفِرقة الضالة والمنحرفة، ودوره في مواجهة فساد معتقداتها فإنه يتضح من خلال بيانه لآرائهم ومعتقداتهم، وكيفية تعاملهم مع الناس، وأساليبهم وعلاقاتهم معهم، فضلا عمَّا يتحلون به من خصائص وصفات، كل ذلك حاول الإمام عليه السلام أن يوضحه من خلال رسمه لصورة توضح لنا طبيعة مثل هذه الفِرقة المنحرفة عن الدين، وذلك في حديثه مع أبي هاشم الجعفري عندما قال له: «يا أبا هاشم! سيأتي زمان على الناس وجوههم ضاحكة مستبشرة، وقلوبهم مظلمة منكدرة، السُّنة فيهم بدعة، والبدعة فيهم سنّة، المؤمن بينهم محقَّر، والفاسق بينهم موقر، أُمراؤهم جاهلون جائرون، وعلماؤهم في أبواب الظلمة سائرون، أغنياؤهم يسرقون زاد الفقراء، وأصاغرهم يتقدمون على الكبراء، وكل جاهل عندهم خبير، وكل محيل عندهم فقير، لا يتميَّزون بين المخلص والمرتاب، ولا يعرفون الضأن من الذئاب، علماؤهم شرار خلق الله على وجه الأرض، لأنهم يميلون إلى الفلسفة والتصوف، وأيم الله إنَّهم من أهل العدول والتحرف، يبالغون في حبِّ مخالفينا ويضلّون شيعتنا وموالينا، فإن نالوا منصبا لم يشبعوا من الرشاء، وإن خُذِلُوا عَبَدوا الله على الرياء، ألا إنَّهم قطّاع طريق المؤمنين والدعاة إلى نِحْلَة الملحدين، فَمَنْ أدركهم فليحذرهم

وليصن دينه وإيمانه. ثُم قال: يا أبا هاشم! هذا ما حدثني به أبي عن آبائه عن جعفر بن محمد عليه السلام، وهو من أسرارنا فاكتمه إلا عن أهله»[٦].

والقارئ لهذا النص بتمعن يجد الوصف الدقيق لهذه الفرقة المنحرفة، فالإمام في الوقت الذي يرسم فيه الملامح الخارجية لهم، نراه يكشف لنا عمَّا تخبئ سرائرهم من العدول والانحراف والزيغ عن الدين الإسلامي، فهم يبالغون في حب مخالفي أهل البيت عليهم السلام ومبغضيهم، ويعملون على إضلال الشيعة والموالين لأهل البيت عليهم السلام. وهذا هو مبدأ النفاق الذي التزمته هذه الفرقة، حتى شبههم الإمام عليه السلام بقطاع الطرق؛ لما يبثونه من أفكار ومعتقدات تخالف الدين الإسلامي، وبذلك يمنعون الطريق أمام المسلمين لمعرفة الصواب في دينهم؛ لذا كان الإمام عليه السلام حريصا في تحذير الأمة الإسلامية من مخاطرهم ومن ضررهم على المسلمين عامة، وذلك في قوله: «فمن أدركهم فليحذرهم وليصن دينه وإيمانه»، مؤكدا في الوقت ذاته أنَّ ما ذكره كان قد سبقه إليه آباؤه عليهم السلام.

موقف الإمام العسكري عليه السلام من الواقفة:

الفرقة الواقفة هي واحدة من الفرق الضالة التي انحرفت عن المسيرة الإسلامية؛ بسبب أطماع مادية دنيوية، والغريب في الأمر أن مؤسسي هذه الفرقة هم من أصحاب الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام، غير أن مطامعهم - فيما يبدو - وحبهم للدنيا وزينتها وأموالها غلبت قوة إيمانهم بدور الأئمة عليهم السلام في حفظ الرسالة السماوية السمحاء، فكان أن اجتهد أصحاب هذه الفرقة بآرائهم، مما سبب انحرافا فكريا وعقائديا. وقد كان للإمام الحسن العسكري عليه السلام الدور الواضح والبارز في مواجهة هذا الانحراف الذي واجهه من قبل آباؤه وأجداده عليهم السلام، إذ يعود زمن هذا

الانحراف إلى عهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، حيث إن بعض أصحابه ومنهم زياد بن مروان وعلي بن أبي حمزة وعثمان بن سعيد كان عندهم بعض الأموال للإمام عليه السلام، وعندما استشهد الإمام طمع هؤلاء بالأموال وقالوا بالوقف؛ ولأجل ذلك فقد أنكروا إمامة الرضا عليه السلام مدَّعين بأنَّ الإمام الكاظم عليه السلام حيٌّ لم يمت، ومَنْ ذكر أنه مات فهو مُبطل[٧]، وهذا يكشف لنا الانحراف الفكري الذي وقعت به هذه الفرقة، فهم يقفون بالاعتقاد بإمامة الأئمة السبعة المتقدمين، وينكرون إمامة الإمام الثامن الرضا عليه السلام.

وقد وردت في ذمهم أحاديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، والإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، والإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام، والإمام الحسن العسكري عليه السلام - موضوع بحثنا -، فقد روي عنه عليه السلام أنَّ أحدا من أهل الجبل سأله عمَّن وقف على أبي الحسن موسى عليه السلام: أتولاهم أم أتبرأ منهم؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «أ تترحَّمُ على عمِّك؟ لا رحم الله عمَّك، وتبرَّءْ منه أنا إلى الله منهم بريء، فلا تتوالاهم، ولا تَعُدْ مرضاهم، ولا تشهد جنائزهم، ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا، سواء مَنْ جحد منهم أماما من الله أو زاد إماما ليست إمامته من الله، وجحد أو قال: ثالث ثلاثة، إنَّ الجاحد أمر آخرنا جاحد أمر أوّلنا، والزائد فينا كالناقص الجاحد أمرنا. وكان هذا السائل لم يعلم أنَّ عمَّه كان منهم، فأعلمه ذلك»[٨].

والقارئ لهذا النص يلحظ مدى الانحراف الذي سببته هذه الحركة أو الفرقة في الاتجاه الفكري والعقائدي لدى الأمة الإسلامية، مما دفع الإمام العسكري عليه السلام أن يرد بهذا الرد على السائل، فهو يطلب منه القطيعة التامة مع مَنْ يتمثلون هذه الأفكار وهذه المعتقدات التي تريد أن تأخذ من الإسلام ومن الرسالة السماوية ما يتناسب

وطبيعة مصالحها الشخصية أو الذاتية، وتترك ما عداها، على حين إن الرسالة السماوية تمثل جزءا واحدا لا يتجزأ، يبدأ من الباري عز وجل بقرآنه المنزل على نبي الرحمة صلى الله عليه وآله ومن ثمَّ إلى الإمام علي عليه السلام ويتدرج الأمر من بعده إلى الأئمة الاثني عشر الذين نص على ولايتهم وإمامتهم النبي صلى الله عليه وآله، فأي محاولة لتجزئة هذه الوحدة مرفوضة من الأئمة عليهم السلام، ومنهم الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذي رسم لنا صورة هذه الوحدة التي لا تقبل الزيادة وترفض النقصان، فما كان من الإمام العسكري عليه السلام إلا أن طلب من السائل أن يقطع التواصل الاجتماعي بينه وبين أصحاب هذه الفرقة حتى وإن كان بعضهم ذا رحم، كما في (عم السائل) الذي طلب منه الإمام عليه السلام أن يتبرَّأ منه، مؤكدا في الوقت ذاته على ضرورة التمسك بولاية الأئمة الاثني عشر الذين نص على ولايتهم وإمامتهم الباري عزوجل، وهذا ما يوضحه قوله عليه السلام: «سواء مَنْ جَحِدَ إماما من الله أو زاد إماما ليست إمامته من الله»[٩].

فالإمامة - في ضوء ما تقدم- تكليف من الباري عز وجل، وليس لأحد أن يؤمن ببعض ويترك بعضا؛ لأن «الزائد فينا كالناقص الجاحد أمرنا»[١٠] على حد تعبير الإمام عليه السلام.

وبهذا يتضح لنا موقف الإمام عليه السلام الموافق لموقف آبائه عليهم السلام في الوقوف ضد انحرافات هذه الفرقة الضالة المبتدعة في الدين، وبراءته منهم؛ لأن هذه البراءة تمثل براءة الباري عز وجل؛ ذلك أن كل قول وكل فعل يصدر عن الأئمة عليهم السلام يمثل موقف الشريعة الإسلامية التي بعثها الباري عز وجل للإنسانية جمعاء، فدور الأئمة جميعا دور مترابط يكمل بعضه بعضا، ويهدف إلى الحفاظ على هذا التراث من مثل هذه التيارات الفكرية والعقائدية المنحرفة.

موقف الإمام العسكري عليه السلام من الثنوية:

فرقة كانت في عصر الإمام العسكري عليه السلام وقبل عصره، وهي من أثبتَ أن مع القديم قديما غيره، وهم المجوس يثبتون مع مبدأ الخير مبدأ للشر، وهما النور والظلمة، وهذا ما يوضحه صاحب مجمع البحرين، حيث يقول: «والثنوية: من يثبت مع القديم قديما غيره، قيل: وهم فرق المجوس، يثبتون مبدأين، مبدأ للخير، ومبدأ للشر، وهما النور والظلمة، ويقولون بنبوة إبراهيم عليه السلام. وقيل: هم طائفة يقولون: إن كل مخلوقٍ مخلوقٌ للخلق الأول. وقد شهد ببطلان قولهم قوله عليه السلام في وصف الحق تعالى: لا من شيء كان، ولا من شيء خُلِق»[11].

لقد تصدى الإمام العسكري عليه السلام لمثل هذه الفرق ذات الانحرافات العقائدية «بإرادة سليمة لا تلين، وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع»[12]، معززة بعلم من الباري عز وجل بما يدور في خلد الناس وما يجول في خواطرهم، وما ذلك إلّا بتوفيق منه عز وجل لحفظ الشريعة من الانحرافات وما قد تتعرض له من موارد الشبهة والظن، وهنا تكمن عظمة الأئمة عليهم السلام ودورهم البارز في الحفاظ على الرسالة الإسلامية بتكليف من الباري. فقد روي عن إسحاق قال: «أخبرني محمد بن الربيع الشائي قال: ناظرت رجلاً من الثنوية بالأهواز ثم قدمت سرّ مَنْ رأى، وقد علق بقلبي شيء من مقالته، فإني لجالس على باب أحمد بن الخضيب، إذ أقبل أبو محمد عليه السلام من دار العامة يوم الموكب، فنظر إليَّ، وأشار بسبابته أحد، أحد، فرد. فسقطت مغشيا عليَّ»[13].

وهذا النص إن دلّ على شيء فإنما يدل على عِلم الإمام العسكري عليه السلام بما في ضمائر الناس وما قد يعترضها من أفكار ومعتقدات منحرفة، ومن ثم تقويمها وهي في بدايات تكوينها قبل

أن تنمو في نفوس بعض الأشخاص ممن لا يمتلكون القدرة على الثبات على العقيدة أو تعوزهم الثقافة اللازمة والإيمان الراسخ العميق بالرسالة السماوية العظيمة.

وفي نص آخر يبين لنا انحراف هذه الفرقة عن جادة الإسلام وابتعادها عنه عندما كتب أحدهم للإمام «يسأل الدعاء لوالديه، وكانت الأُم مؤمنة والأب ثنويا. فكتب عليه السلام: رحم الله والدتك. والتاء منقوطة من فوق»[١٤]، فالرحمة تشمل الوالدة؛ لأنها مؤمنة متمسكة بالتعاليم الإسلامية، وهذا يكشف لنا دور الإمام عليه السلام وتأكيده رفض مثل هذه الانحرافات وتصديه لها بشكل واضح وجلي.

موقف الإمام العسكري عليه السلام من المفوّضة:

فرقة تعتقد أن الله عز وجل خلق محمداً صلى الله عليه وآله وفوَّض إليه خلق الدنيا، فهو الخلّاق لما فيها، وقيل فوض ذلك إلى علي عليه السلام، وعلى هذا يعدّ المفوضة كفارا «بالله جلَّ اسمه، وأنهم شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلة»[١٥]، وكان للإمام عليه السلام دور فعّال في مواجهة هذه الفرقة الضالة المبتدعة الخارجة عن حدود الدين الإسلامي، مستندا في ردِّه على الأفكار والعقائد التي طرحها القرآن الكريم بما يتلاءم «مع الفطرة الإنسانية السليمة»[١٦] ومنسجما معها.

ويمكن توضيح ذلك من خلال النصوص التي وردت عن الإمام المعصوم عليه السلام في «أساليب الاحتجاج والمناقشة للأفكار الأخرى»[١٧]، مناقشة تلك الأفكار التي لا تستند إلى منهج صحيح وإدراك سليم؛ لأنها تتعارض مع العقل البشري والفطرة الإنسانية، وهذا ما نستطيع أن نلمسه في ردِّه على مَنْ التبس عليه بعض هذه الأفكار والعقائد المنحرفة، فهذا إدريس بن زياد الذي

كان من الفرقة المفوضة يقول: «خرجت إلى العسكر للقاء أبي محمد عليه السلام، فقدمتُ وعليَّ أثر السفر ووعثاؤه، فألقيت نفسي على دكان حمام، فذهب بي النوم، فما انتبهت إلّا بمقرعة أبي محمد عليه السلام قد قرعني بها حتى استيقظت، فعرفته صلى الله عليه فقمت قائما أُقبل قدمه وفخذه، وهو راكب، والغلمان من حوله. فكان أول ما تلقاني به أن قال: يا إدريس ﴿**بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾[18]، فقلت: حسبي يا مولاي وإنَّما جئت أسألك عن هذا... فتركني ومضى»[19].

يتضح من هذا النص عِلم الإمام عليه السلام واطلاعه على ما يدور في خلد الآخرين ونفوسهم، وبذلك يستطيع الدخول إليهم من أسهل الطرق ويأخذ عليهم جميع الجهات؛ «لذا غالبا ما تنتهي المناظرات بإيمان هؤلاء بالإسلام وبالإمامة»[20].

وفي نص آخر نجد أن الإمام عليه السلام يرد على أحد المنحرفين عقائديا، وربما يكون هذا الانحراف بحسن نية منهم إلّا أنَّ عِلم الإمام عليه السلام وإدراكه لما ستؤول إليه مثل هذه الأفكار المنحرفة كان السبب في الردِّ عليهم وتفنيد ما جاءوا به حفاظا على الشريعة الإسلامية والرسالة السماوية من مثل هذه الأفكار والمعتقدات التي لو تُركت لأدت إلى ضياع الدين، وهنا تكمن مسؤولية أئمة أهل البيت عليهم السلام في حماية الأمة من الوقوع في الشبهات العقائدية والفكرية. فهذا كامل بن إبراهيم المدني الذي ذهب إلى الإمام العسكري عليه السلام ليسأله عن قول المفوضة، فيجيبه الإمام عليه السلام بأنهم: «كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشية الله عز وجل، فإذا شاء الله تعالى شئنا، والله يقول ﴿**وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله**﴾[21][22]».

ويتضح لنا من خلال ذلك تمسك الإمام العسكري عليه السلام بالدليل القرآني في الردِّ على مثل هذه الأفكار والعقائد

المنحرفة، مؤكدا في الوقت ذاته أنَّ الإمام عبد من عباد الله اختاره الباري لمهمة الدفاع والحفاظ على وحدة الدين الإسلامي وبقائه ضد كل محاولات الهدم التي تسعى لها بعض الجهات المنحرفة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر تكشف لنا هذه النصوص عن أهمية وجود الأئمة عليهم السلام في حياة الأمة ودورهم الفعّال في مواجهة كل التحديات التي تتعرض لها المسيرة الرسالية، ففي الوقت الذي يعجز فيه الآخرون ممن يدعون بأنهم حكامٌ وساسة عن التصدي لمثل هذه الانحرافات، نجد كيف أن الإمام عليه السلام يتصدى لمثل تلك الاتجاهات من خلال الرد على الاستفسارات التي كان يوجهها إليه بعض المشككين في العقيدة، أو بعض مَنْ كانوا يحاولون النيل من الشريعة الإسلامية السمحاء أو محاولة إضعافها، سواء أكان ذلك بحسن نية كما في المفوضة التي كان سبب انحرافها حبّها لعلي عليه السلام أو لأسباب ذاتية أو سياسية.

المبحث الثاني:

الشبهات والفتن:

دور الإمام العسكري عليه السلام في إبطال شبهة الكندي:

لم يقف دور الإمام الحسن العسكري عليه السلام في الردّ على الانحرافات العقائدية والفكرية وفي تصديه للبدع فحسب، وإنما تصدى كذلك للشبهات التي كان بعضهم يحاول أن يوقع فيها الأمة الإسلامية، فما كان من علم الإمام الواسع إلّا أن يتحرك للرد على هذه الشبهات في بداياتها الأولى وإجهاضه لها؛ إدراكا منه لخطورتها وتقديرا منه لمضاعفاتها إذا ما ظهرت مثل هذه المحاولات، فما كان منه عليه السلام إلّا أن خطط للقضاء عليها من قبل أن تظهر للوجود ويعظم شأنها، وهذا ما يتضح من اهتمام الإمام عليه السلام وهو في المدينة

وعلمه بأحوال المسلمين في البلدان الأخرى، ومنها العراق الذي كان فيه أحد الفلاسفة وهو إسحاق الكندي الذي راودته شبهة حول القرآن الكريم، وأن فيه تناقضا بين آياته، فأجهد نفسه على جمع هذه الآيات المتشابهة التي يبدو للناظر فيها أنها تنطوي على نوع من التناقض، ومن ثم نشرها، فما كان من الإمام عليه السلام إلّا أن التقى ببعض تلامذة الكندي وقال له: «أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عمّا أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا، أو في غيره؟ فقال أبو محمد عليه السلام: أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟ قال: نعم، قال: فصر إليه وتلّطف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في ذلك فقل: قد حضرتني مسألة أسألك عنها، فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك: إنه من الجائز؛ لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعلَّه قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعا لغير معانيه؟. فصار الرجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة، فقال له: أعد عليّ، فأعاد عليه، فتفكر في نفسه ورأى ذلك محتملا في اللغة وسائغا في النظر، فقال: أقسمت عليك إلّا أخبرتني من أين لك؟ فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك، فقال: كلّا، ما مثلك مَنْ اهتدى إلى هذا ولا مَنْ بلغ هذه المنزلة، فعرّفْني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد عليه السلام، فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلّا من ذلك البيت. ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألَّفه»[٢٣].

يتضح لنا من خلال هذه الحادثة كيفية ردّ الإمام عليه السلام بأسلوب علمي هادئ وحكيم في وأد مثل هذه

المحاولات في بداياتها الأولى؛ إدراكا لخطورة مثل هذه المحاولات أو الشبهات وتأثيرها السلبي على الأمة الإسلامية، ولاسيما عامة المسلمين الذين ليس لهم تعمق وتخصص في فهم النص القرآني. هذا من جانب، ومن جانب آخر ما تؤديه مثل هذه الشبهات من قوة بيد أعداء الإسلام ممن يتربصون به للنيل منه ومن رسالته السمحاء. ومن جانب ثالث تكشف لنا هذه الحادثة عن علم الإمام عليه السلام العميق ورصده لكل النشاطات العلمية والفكرية التي تظهر على الساحة الإسلامية، وردّه لتلك التي تحمل بين طياتها شبهات تمس الرسالة الإسلامية وتؤثر بشكل أو بآخر على معتقدات المسلمين سواء في عصره عليه السلام أو بعده.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على ما للإمام المعصوم عليه السلام من أهمية في الحفاظ على الشريعة الإسلامية من كل ما تتعرض له من انحرافات فكرية، وتوجهات عقائدية قد يكون لها تأثير سلبي على مستقبل هذه الشريعة، فهو يعد بمثابة صمام الأمان لكل خطر قد تتعرض له المسيرة الإسلامية منذ وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وهذا قد ينعكس أيضا على وقتنا الحاضر في ضرورة الالتزام بمرجعية أهل البيت عليهم السلام من خلال من خولهم الباري عز وجل لقيادة هذه الأمة لما تتعرض له من محاولات عديدة للنيل منها وإضعافها من خلال الطعن في رسالتها وتشويه صورة نبيها صلى الله عليه وآله ورمزها.

دور الإمام العسكري عليه السلام في مواجهة الجاثليق النصراني

واحدة من الحوادث التي ظهرت في عصر الإمام العسكري عليه السلام، وربما كان لها تأثير على عقيدة المسلمين من خلال التشكيك في قوة هذه العقيدة أمام العقائد الأخرى هو ما حدث مع هذا النصراني، غير أن الإمام عليه السلام قد استطاع

كشف النقاب عن شعوذته التي أراد من خلالها أن يشكك المسلمين في دينهم ويضلل عقيدتهم، وذلك عندما أصاب الناس قحط شديد في سر مَنْ رأى، «فأمر المعتمد العباسي بالخروج إلى الاستسقاء ثلاثة أيام فخرجوا ولم يغاثوا بالمطر، وخرج النصارى ومعهم راهب كلما مدَّ يده إلى السماء هطلت، وفعل ذلك مكررا فشك بعض الجهلة في دينهم، وارتد البعض الآخر، وشقَّ ذلك على المعتمد، ففزع إلى الإمام أبي محمد عليه السلام، وكان في سجنه، فقال له: أدرك أُمة جدِّك رسول صلى الله عليه وآله قبل أن يهلكوا، فقال له الإمام: يخرجون غدا، وأنا أُزيل الشك إن شاء الله، وأخرجه المعتمد من السجن، وطلب منه أن يطلق سراح أصحابه من السجن فاستجاب له، وأخرجهم، وفي اليوم الثاني خرج الناس للاستسقاء، فرفع الراهب يده إلى السماء، فغيمت ومطرت، فأمر الإمام بإلقاء القبض على يده، وأخذ ما فيها، وإذا فيها عظم آدمي فأخذه منه، وأمره بالاستسقاء، فرفع يده إلى السماء، فزال ما فيها من غيم، وطلعت الشمس، فعجب الناس من ذلك، وبادر المعتمدُ قائلا: ما هذا يا أبا محمد؟ فقال الإمام عليه السلام: هذا عظم نبي ظفر به هذا الراهب من بعض القبور، وما كشف عظم نبي تحت السماء إلّا هطلت بالمطر. وتفحص المعتمد عن ذلك، فكان كما أخبر الإمام عليه السلام فزالت الشبهة، وانتفى الشك»[٢٤].

هذه الحادثة تحمل أكثر من دلالة، ففي الوقت الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية في مأزق قد يعرض كيانها إلى الشك والضعف نرى ساستها وخلفاءها يتجهون صوب الإمام عليه السلام ليخرجهم من هذا المأزق؛ إيمانا منهم واعترافا بقيادته الحكيمة والراشدة التي توصلهم إلى بر الأمان. هذا أولا.

أما ثانيا فإن الإمام عليه السلام هو الوحيد القادر على أن يدافع عن أمة جدِّه صلى الله عليه وآله

حين تقع في موضع الشك والريبة مما يعتريها. وهذا يكشف لنا عن أهمية دور الأئمة عليهم السلام في «حياة الأمة وهي إعادة الثقة بنفسها ودينها وقادتها الحقيقيين بعد أن اهتزت وضعفت»[٢٥] بمحاولات بعضهم، وقد أفلح الأئمة عليهم السلام على مدى تاريخهم في التصدي لمثل هذه البدع والفتن، والإمام العسكري عليه السلام كآبائه وأجداده كان له دور إيجابي وفعّال في إنقاذ الكيان الإسلامي والأمة الإسلامية من الوقوع في مثل هذه الفتن والبدع التي رافقت مسيرتها على مدى تاريخها الطويل وإلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن عصر الإمام كان -كعصر آبائه وأجداده- حافلا بظهور التيارات الفكرية والعقائدية المنحرفة، ولما كان الإمام يمثل القائد لهذه الأمة في هذه الحِقبة التاريخية - أي مدة إمامته عليه السلام الممتدة بين عامي ٢٥٤هـ- ٢٦ هـ- وعلى الرغم من قصر هذه الحقبة إلّا أن الإمام عليه السلام استطاع أن يثبت للأمة جدارة قيادته لها وتصديه لكل مظاهر الانحرافات والبدع والفتن المختلفة التي عاصرها الإمام عليه السلام، وقد أخذ دوره في الرد عليها ورفضها وبيان زيف ادعاءاتها أشكالا مختلفة تتباين تبعا لخطورة هذا التيار وهذه الفرقة، فنراه:

يرسم لنا صورة توضح لنا أبعاد هذا التيار وخطورته على أبناء المسلمين، مستخدما أسلوب التشبيه في تصوير كيد هذا التيار ورياءه في إظهار عكس ما يُبطن، وتحذيره للمسلمين بغية الابتعاد عنه والحذر منه، كما في ردِّه على الصوفية.

وفي موضع آخر نراه يطلب من أتباعه وسائليه الابتعاد عن هذا التيار العقائدي المنحرف وعدم التواصل معه حتى في القضايا الاجتماعية، والحذر من الاقتراب منه كما في الفرقة الواقفية.

أما الثنوية فقد بيّن لأحد أتباعهم خطأه في الاعتقاد، كما أبعدهم عن رحمة الباري عز وجل في نص آخر.

أما المفوضة فقد وضح الإمام عليه السلام خروجهم عن الدين الإسلامي وكفرهم مستندا في ذلك إلى آيات من القرآن الحكيم.

ولم يقف دور الإمام عليه السلام في مواجهة الانحرافات العقائدية والفكرية، وإنما حارب أيضا الشبهات في مهادها وقبل أن تولد؛ لعلمه المسبق بمدى خطورتها على عامة المسلمين، وعدم إعطاء الفرصة بيد أعداء الإسلام للطعن فيه كما حصل ذلك مع إسحاق الكندي.

أما النصراني الذي حاول تضليل معتقدات الناس والتشكيك في دينهم فقد كشف الإمام عليه السلام عن خداعه وتضليله بأسلوب عملي رصين أثبت من خلاله كذب الجاثليق النصراني وأحقية الإمام عليه السلام في قيادة الأمة والحفاظ على رسالة جدِّه صلى الله عليه وآله.

ومن الله التوفيق..

المصادر والمراجع:

١ القرآن الكريم.

٢- أعلام الهدى، الإمام الحسن العسكري، مكتبة التاريخ والسيرة الإسلامية.

٣- بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي، المكتبة الإسلامية.

٤- حديقة الشيعة، الشيخ أحمد الأردبيلي، المكتبة العلمية الإسلامية.

٥- حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام دراسة تحليلية تاريخية علمية لحياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، الشيخ محمد جواد الطبسي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ

٦- حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، انتشارات الاعتصام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٧- دور الأئمة في الحياة الإسلامية، شرح وتوسيع وتعليق على بحث بنفس العنوان للشهيد السعيد محمد باقر الصدر، الشيخ محمد اليعقوبي، علَّق عليه السيد الشهيد محمد الصدر، دار أنوار الهدى، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٨- دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، آية الله السيد محمد باقر الحكيم، دار الحكمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ

٩- ذرائع البيان في عوارض اللسان، محمد رضا الطبسي، مطبعة الآداب.

١٠- سفينة البحار، الشيخ عباس القمي، منشورات مكتبة سنائي.

١١- الغيبة، محمد بن الحسن الطوسي، مكتبة بصيرتي.

١٢- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار صعب.

١٣- كشف الغمة، علي بن عيسى الأربلي، دار الكتاب الإسلامي.

١٤- مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، منشورات المصطفوي.

الهوامش:

(١) سورة النساء: ١٦٥.

(٢) ذرائع البيان في عوارض اللسان، محمد رضا الطبسي، مطبعة الآداب: ج٣٧/٢.

(٣) يُنظر: دور الأئمة في الحياة الإسلامية، شرح وتوسيع وتعليق على بحث بنفس العنوان للشهيد السعيد محمد باقر الصدر، الشيخ محمد اليعقوبي، علَّق عليه السيد الشهيد محمد الصدر، دار أنوار الهدى، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ ص: ١٤١ – ١٤٢.

(٤) دور الأئمة في الحياة الإسلامية: ١٣١.

(٥) سفينة البحار، الشيخ عباس القمي، منشورات مكتبة سنائي: ج٥٧/٢.

(٦) حديقة الشيعة، الشيخ أحمد الأردبيلي، المكتبة العلمية الإسلامية: ٢٩٥.

(٧) الغيبة، محمد بن الحسن الطوسي، مكتبة بصيرتي: ٤٣.

(٨) بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي، المكتبة الإسلامية: ج٢٧٤/٥٠.

(٩) بحار الأنوار: ج٢٧٤/٥٠.

(١٠) م. ن.

(١١) مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، منشورات المصطفوي: ج٧٨/١.

(١٢) أعلام الهدى، الإمام الحسن العسكري، مكتبة التاريخ والسيرة الإسلامية: ١٤٤.

(١٣) الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار صعب: ج٥١١/١.

(١٤) كشف الغمة، علي بن عيسى الأربلي، دار الكتاب الإسلامي: ج٢٢١/٣، بحار الأنوار: ج٢٩٤/٥٠.

(١٥) حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، دراسة تحليلية تاريخية علمية لحياة الإمام العسكري عليه السلام، الشيخ محمد جواد الطبسي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ ص:٢٩٢، نقلا من الصدوق في الاعتقادات، شرح الباب الحادي عشر. ص: ٩٩، بحار الأنوار: ج٣٤٢/٢٥.

(١٦) دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة، آية الله السيد محمد باقر الحكيم، دار الحكمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ: ج٨٥/١

(١٧) م. ن.

(١٨) سورة الأنبياء: ٢٦.

(١٩) بحار الأنوار: ج٢٨٣/٥٠.

(٢٠) دور الأئمة في الحياة الإسلامية: ٨٩.

(٢١) سورة الإنسان: ٣٠.

(٢٢) الغيبة: ١٤٨.

(٢٣) مناقب ابن شهر آشوب: ج٤/٤٢٤ . نقلا من حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ٢٩٣ – ٢٩٤.

(٢٤) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، انتشارات الاعتصام، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م. ص: ٢٢١- ٢٢٢. نقلا من: جوهرة الكلام: ١٥٤، وأخبار الدول: ١١٧.

(٢٥) دور الأئمة في الحياة الإسلامية: ١٠٣.

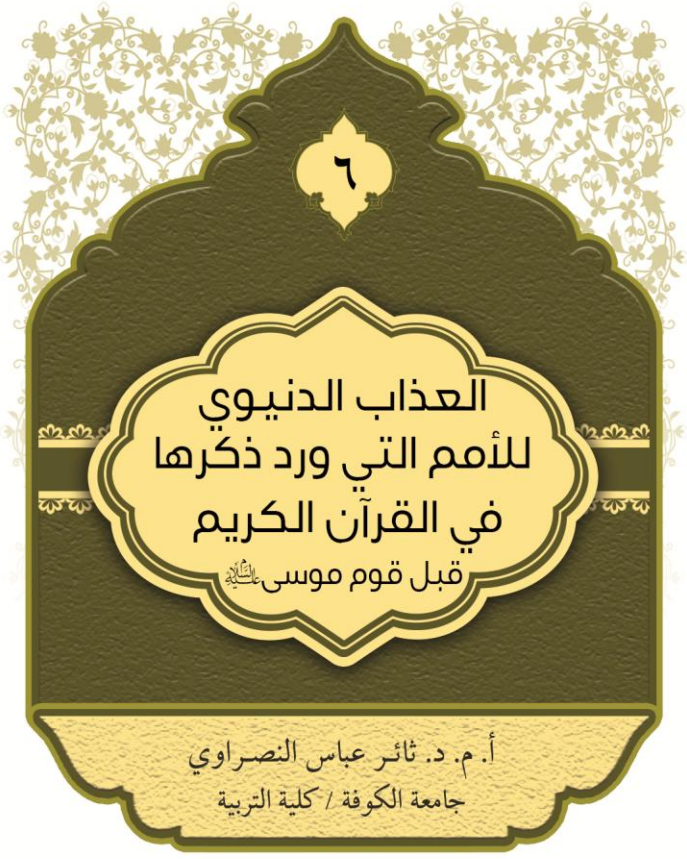
٦
العذاب الدنيوي
للأمم التي ورد ذكرها
في القرآن الكريم
قبل قوم موسى عليه السلام
أ. م. د. ثائر عباس النصراوي
جامعة الكوفة / كلية التربية

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على حبيب قلوبنا وشفيع ذنوبنا المصطفى الأمجد أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الله تعالى خلق الإنسان وكرمه ومنحه العقل وميزه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، تفضل جلّ وعلا فخلق آدم أبا البشرية بيديه، وأسجد له الملائكة وأسكنه الجنة يأكل منها هو وزوجه رغدا حيث شاءا، وقد اختبر الله آدم وزوجه فأباح لهما الأكل من أشجار الجنة إلا شجرة واحدة حذرهما من القرب منها، فوسوس لهما عدوهما اللدود إبليس اللعين، فأكلا من الشجرة فهبطا من الجنة إلى هذه الأرض لتبدأ المسيرة الطويلة للبشرية، مسيرة الصراع بين الحق والباطل، الصراع الذي لم تخمد ناره في أي فترة من فترات التأريخ، ولن تخمد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو إما بين الشيطان وبني آدم، وإما بين متبعي النهج الإلهي ونهج الشيطان، والفصل النهائي في الصراع إنما يكون يوم الحساب والجزاء حيث توفى كل نفس ما كسبت وتكون العاقبة لأهل الحق.

ومع أن الله سبحانه وتعالى قضى بجعل الحساب والجزاء في يوم القيامة فقد جرت سنته بالفصل بين أهل الحق وأهل الباطل في مواقف معينة لحكمة ربانية عالية، وذلك بإهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين في صراع بين الرسل وأعدائهم، دارت فيه الدوائر على أهل الشقاوة، فمنهم من أغرقه الله، ومنهم من أهلكه بالريح أو الصيحة أو الرجفة، ومنهم من خسف به الأرض... إلخ، وهذا الهلاك الذي حل بأولئك الظالمين إنما هو نكال للهالكين ونصرة للمؤمنين

وعبرة للآخرين.

وقد أورد لنا القرآن الكريم نماذج كثيرة من قصص الأمم الهالكة مع التركيز على مواطن العبر فيها، وهو الموضوع الذي اخترته لكتابة هذا البحث تحت عنوان (العذاب الدنيوي للأمم في القرآن الكريم)، لذا قام عملنا في البحث على الخطوات الآتية:

أولا: أسباب اختيار الموضوع:

١. كون هذا الموضوع متعلقا بكتاب الله (عز وجل) ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تنقضي عجائبه، فصّلَ الله فيه كل شيء.

٢. البحث في هذا الموضوع ليس مجرد بحث عن ظواهر منقضية في حقب تاريخية غابرة، بل هو بحث عن ظواهر في تلك الحقب لا تزال تتكرر على مدى العصور والأزمان، وهذه الظواهر كانت سبباً لنزول الهلاك بالأمم الغابرة، فينبغي أن تدرس وتعرف حتى تتجنبها الأمة وتجتنب عقوبة الله تعالى.

٣. اهتم القرآن بسرد قصص الأمم السالفة في كثير من السور وهذا شجعني على اختيار هذا الموضوع بسبب هذه الغزارة العلمية.

٤. بالرغم من هذه الأهمية لهذا الموضوع لم أجد - حسب اطلاعي- كتاباً أو بحثاً استوفاه بالدراسة بجمع أطرافه في موضوع واحد، وإنما تذكر مسائل متفرقة في ثنايا كتب التفسير والقصص القرآني؛ لذلك أردت اختيار هذا الموضوع لبحثي مستعيناً بالله.

ثانيا: منهجي في كتابة هذا البحث:

١. قمت بتتبع وجمع الآيات التي تتحدث عن (عذاب الأمم السابقة) في القرآن الكريم لاستخلاص أنواع العذاب وعذاب كل قوم من الأقوام السالفة.

٢. فسرت الآيات التي أوردتها في بيان (أنواع العذاب الدنيوي) لتلك الأقوام واعتمدته كمصدر رئيس لسرد

قصص عذاب كل قوم.

٣. تجنبت الروايات الإسرائيلية وما أكثرها في قصص السابقين.

٤. كتبت الآيات الخاصة بموضوعي مع وضعها بين قوسين والإشارة إلى سورها وأرقامها في الهوامش.

٥. اتبعت المنهج الوصفي للأحداث من خلال ذكر نوع العذاب كما ورد في القرآن الكريم من غير تحليل أو نقد للآراء، وإنما مجرد ذكر آراء العلماء في المسألة أو مجرد توضيح للمعنى فقط.

ثالثا: خطة البحث تتكون من مقدمة وستة مباحث وخاتمة وكما يأتي:

المبحث الأول: وكان على ثلاثة مطالب، اهتم المطلب الأول بالعذاب لغة واصطلاحاً، أما المطلب الثاني فقد اهتم بفلسفة العذاب وأنواعه، وأما المطلب الثالث فجاء تحت عنوان الاستعمال القرآني للعذاب.

المبحث الثاني: عذاب قوم النبي نوح عليه السلام الذي كان بالغرق.

المبحث الثالث: عذاب قوم النبي هود عليه السلام والذي كان بالصيحة والريح العقيم.

المبحث الرابع: عذاب قوم النبي صالح عليه السلام بالرجفة.

المبحث الخامس: كان عن النبي لوط عليه السلام ومدينة سدوم وعذاب قومه الذي كان بالقلب وطمس الأعين وحجارة السجيل.

المبحث السادس: كان عن حياة النبي شعيب عليه السلام وقومه (مدين، أصحاب الأيكة) وعذابهم الذي كان بالرجفة والصيحة.

ثم جاءت الخاتمة التي تضمنت أهم نتائج البحث، وبعدها قائمة بالمصادر والمراجع.

وقد استعنت في بحثي هذا بعدد من المصادر والمراجع، ومنها على سبيل المثال كتب التفاسير ككتاب الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي، ومفاتيح الغيب للرازي، وغيرها من كتب التفسير، فضلا

عن قصص الأنبياء مثل كتاب النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين للجزائري، وقصص الأنبياء للراوندي، وغيرها. فضلاً عن المعاجم اللغوية وكتب ودراسات قرآنية متعددة. وأخيرا أسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذا العمل بقبول حسن، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

العذاب: تعريفه، أنواعه، فلسفته، استعماله في القرآن الكريم

المطلب الأول:

العذاب لغة واصطلاحاً

١. العذاب (لغة):

لكلمة العذاب معانٍ في اللغة يمكن إجمالها بالآتي:

النكال والعقوبة: يقال عذبته تعذيباً وعذاباً، كما في قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[١].

جاء في معجم مقاييس اللغة (عذاب) العين والذال والباء أصل صحيح لكن كلماته لا تكاد تقاس ولا يمكن جمعها إلى شيء واحد، فمن الباب (عذب الماء) يعذب عذوبة فهو عذب طيب، وباب آخر لا يشبه الذي قبله يقال عذب الحمار يعذب عذباً عذوباً فهو عاذب وعذوب لا يأكل من شدة العطش[٢].

كل مؤلم للنفس إذا كان جزاء على سوء، واشتقاقه من عذاب الشيء إذا استمر وجرى، وإذا لم يستمر في النفس ويتغلغل فيها، وقيل: العذاب الإيلام لا أخبار فيه، وقيل: أصله عند العرب الضرب ثم استعمل في عقوبة مؤلمة واستُعير للأمور الشاقة فقيل: السفر قطعة من العذاب[٣].

٢. العذاب (اصطلاحاً):

وهو الألم الذي يزيل حلاوة العيش سواء بالضرب أو الحبس أو غيرهما، وغرضه صلاح الحياة وصلاح المكلفين[٤].

المطلب الثاني:

فلسفة العذاب وأنواعه

١. فلسفة العذاب:

لكي لا يترك الإنسان إلى أخيه الإنسان، ولكي لا تترك الحياة بلا دستور ينظم العلاقة بين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومجتمعه، والفرد وخالقه؛ أوجب الله (عزوجل) وهو المربي والسيد والمالك لها نظاماً يتعهد به الإنسان إلى

أن يبلغ الكمال المرجو له، ومَن يتخطَّ هذا النظام أو يتجاوز عليه فإنه سيحاسب إما في الدنيا وإما في الآخرة، وذلك بأشكال مختلفة وحسب ما قرر لكل عقوبة، فالذي ينظر في عرض القرآن والسنة النبوية لصور العذاب يلخّص لنفسه من تلك الصور أنها بلاء مسلط على الإنسان ونقمة واقعة به وشر عظيم ينتظر الإنسان ويرتبط به، وهذا البلاء وتلك النقمة من رب رحيم خلق الإنسان وصوره فأحسن صوره ونفخ فيه من روحه، وخصَّه بمنصب الخلافة على هذه الأرض وما فيها من عوالم الموجودات، فالمخلوقات كلها في عافية من هذا البلاء إلا الإنسان، فإنه ابتلي بهذا العذاب الذي لا تبلغ العقول وصفه ولا تدرك مداه؛ لأن الله (عزوجل) رتب الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط، أي كالربح والخسارة والمعلول والعلة والمسبب والسبب.

وفي القرآن الكريم كثيرٌ من ذلك، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا**﴾[٧]، فإن العذاب ضرورة قُصد بها صلاح الحياة وصلاح المكلفين[٨].

٢. أنواع العذاب:

ينقسم العذاب على نوعين:

أ -عذاب الدنيا.

ب -عذاب الآخرة.

إن عذاب الدنيا قد ينتهي بعفو الله وكشفه عن المُعذب أو ينتهي بهلاكه وقومه، أما عذاب الآخرة فهو العذاب الأبدي الذي يلازم صاحبه في الحياة الآخرة، وهذا العذاب لا يُخفف ولا يُؤجل ولا مهرب منه، قال تعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[٩]،

فالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا والعذاب الأكبر المقصود به عذاب الآخرة، أي نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يتوبون عن الكفر أو لعلهم يرجعون الرجوع ويطلبونه[١٠]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا﴾[١١]، يقول: يراد بـ(النار) نار جهنم[١٢]. فالعذاب الأخروي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا الأمر حدانا إلى أن نقتصر في بحثنا على العذاب الدنيوي الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

المطلب الثالث:

الاستعمال القرآني للعذاب

١. كلمة العذاب في القرآن الكريم:

وردت مادة العذاب في القرآن الكريم كاسم في أكثر من ثلاثمائة موضع منها قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[١٣]، ووردت كفعل في ستة وعشرين موضعا منها قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[١٤].

وقد جاء وصف العذاب في القرآن الكريم بأنه (أليم) في ثلاثين موضعاً تقريبا منها قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٥]، وبأنه (شديد) في نحو خمسة عشر موضعاً منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[١٦]، وبأنه (عظيم) في خمسة عشر موضعاً منها قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١٧]. ووردت كاسم فاعل في ثمانية مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[١٨][١٩].

٢. أوجه العذاب في القرآن الكريم:

إن العذاب في القرآن الكريم جاء على تسعة أوجه:[٢٠]

أ -العقوبة في الآخرة: وهذا الوجه الأكثر استعمالا في القرآن والأغلب، ومنه قوله تعالى في وصف جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[٢١]، أي أن عقوبتها، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[٢٢]، أي أن عقوبة

الآخرة أشد من عقوبة الدنيا.

ب -العقوبة في الدنيا: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[٢٣]، كما فعل بقوم لوط حيث قلب عليهم القرية التي كانوا يسكنون فيها وجعل عاليها سافلها، وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، كما فعل بقارون حيث خسف به وبداره الأرض.

ت -حد الزنى: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٤]، يعني حدهما، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾[٢٥]، أي الحد.

ث -المسخ: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[٢٦]، أي مسخناهم.

ج -الاستئصال والقتل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[٢٧]، أي عذاب القتل المُهين بأيدي المسلمين يوم بدر، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾[٢٨]، ويعني لقتلوا بالسيف.

ح -الجوع والمجاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾[٢٩]، أي ابتليناهم في الدنيا بالجوع والقحط، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾[٣٠]، أي الجوع.

خ -سلب المال وإهلاكه: ومنه قوله تعالى في أصحاب البستان الذين منعوا الزكاة: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾[٣١].

د -نتف الريش وقص الجناح: وهو قوله تعالى في هدهد النبي سليمان عليه السلام: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾[٣٢]، أي لأنتفن ريشه.

ذ -عذاب القبر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى﴾[٣٣]، أي عذاب القبر.

المبحث الثاني:

عذاب قوم نبي الله نوح عليه السلام بالطوفان

كان نوح عليه السلام رسول الله وأحد أنبياء أولي العزم عالماً عارفاً بمقام ربه بصيراً بموقف نفسه في العبودية، ذكر اسمه عليه السلام في القرآن الكريم في بعض وأربعين موضعاً، يُشار فيها إلى شيء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً، وقد فُصلت قصته في ستٍّ من السور القرآنية وهي: الأعراف وسورة هود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح، وأكثرها تفصيلاً هي سورة هود[٣٤].

شاع في زمن النبي نوح عليه السلام الفساد في الأرض وإعراض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي، وأقبلوا على عبادة الأصنام، وقد سمّى الله منها (ودا - سواعا - يغوث - يعوق - نسرا)، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾[٣٥]، وتباعدت الطبقات وصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء، والجبابرة يستضعفون من دونهم، وهم يحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم، فبعث الله نوحاً عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب والشريعة يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والمساواة فيما بينهم، ولبث في قومه عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاماً كما في قوله تعالى: ﴿**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً**﴾[٣٦]، كان يدعوهم إلى الله سبحانه لم يجيبوه إلا بالهزء والسخرية ورميه بالجنون[٣٧].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: بقي نوح في قومه ثلاثمائة سنة يدعوهم إلى الله فهمَّ أن يدعو عليهم عند طلوع الشمس فوافاه أثنا عشر ألف قبيل من ملائكة سماء الدنيا وهم العظماء من الملائكة قالوا له: نسألك أن لا تدعو على قومك، قال نوح: قد أجلتهم ثلاثمائة سنة، فلما أتى عليهم ستمائة سنة ولم يؤمنوا همَّ أن

يدعو عليهم فوافاه أثنا عشر ألف قبيل من ملائكة السماء الثانية فقالوا: نسألك أن لا تدعو على قومك، فقال نوح: قد أجلتهم ثلاثمائة سنة، فلما أتى عليهم تسعمائة سنة ولم يؤمنوا همَّ أن يدعو عليهم فأنزل الله عز وجل[٣٨]: ﴿**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ**﴾[٣٩]، فقال نوح عليه السلام: ﴿**رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾[٤٠].

ونتيجة لذلك أمره الله بصناعة الفلك، قال تعالى: ﴿**وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾[٤١]، وكانوا يمرون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء[٤٢]، قال تعالى: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾[٤٣]. حتى إذا تمَّ صنعه وجاء أمر الله وفار التنور أوحى الله إليه أن يحمل في السفينة من كل زوج اثنين وأن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول الإلهي بالغرق مثل ابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة وامرأته الخائنة، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ**﴾[٤٤]، وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: (صنعها في مائة سنة ثم أمر أن يحمل فيها من كل حيوان زوجين اثنين)[٤٥].

فلما حملهم وركبوا جميعا فتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدر، قال تعالى: ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**﴾[٤٦]، علا الماء وارتفعت السفينة عليه وهي في موج كالجبال[٤٧]، قال تعالى: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ**﴾[٤٨]، فأخذ الناس الطوفان، قال تعالى: ﴿**فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾[٤٩].

والطوفان هو الماء الذي يغشى كل مكان، وقيل: المطر الغالب الذي يغرق من كثرته، وقيل: الموت العظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الطوفان الموت)، وقيل: الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً محيطاً مطيفاً بالجماعة كلها الذي يشمل المدن الكبيرة والقتل الذريع والموت الجارف يقال له طوفان[٥٠].

فدارت السفينة وضربتها الأمواج وبقي الماء ينصب من السماء أربعين صباحا ومن الأرض حتى ارتفعت السفينة ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبلع ماءها واستوت السفينة على جبل الجودي وهو جبل عظيم ونزل نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿**يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٥١]، فنزل نوح السفينة مع الثمانين وبنوا مدينة الثمانين[٥٢].

ظهر قوس في السماء بعد غرق قوم نوح عليه السلام وكان القوس فيه سهم و وتر فنزع الله السهم والوتر جعله أمانا لعباده من الغرق، جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: (أن هذا القوس ظهر في السماء بعد الغرق أمانا منه لمن بقي إلى يوم القيامة، وقال عليه السلام: لا تقولوا قوس قزح فإنه اسم الشيطان ولكن قولوا قوس الله)[٥٣]، ولبث نوح في السفينة حتى نضب الماء فخرجوا منها سبعة أيام بلياليها[٥٤].

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال حول عذاب قوم نوح عليه السلام: إن الله أغرق الدنيا كلها في زمن النبي نوح عليه السلام وفيهم أطفال وهم ليس لهم ذنب؟.

للرد على هذا السؤال نستشهد بحديث للإمام علي عليه السلام قال فيه: (لما أراد الله إهلاك قوم نوح عليه السلام عقم أرحام النساء أربعين سنة لم يُولد فيها مولود)[٥٥]، وكذلك عن الإمام الرضا عليه السلام قال: قلت لأي علة أغرق الله عز وجل الدنيا كلها في زمن نوح عليه السلام وفيهم أطفال ومن لا ذنب له؟ فقال: ما كان فيهم أطفال لأن

الله أعقم أصلاب قوم نوح عليه السلام وأرحام النساء أربعين عاما فانقطع نسلهم وغرقوا ولا طفل فيهم[٥٦].

وفي النهاية نلاحظ أن قوم نوح عليه السلام أول الأمم الهالكة التي وردت قصتها في القرآن الكريم، وكانوا سكان الأرض في تلك الفترة الزمنية قبل انتشار الناس لقرب العهد بآدم عليه السلام أبي البشر، وقد أرسل الله نوحا عليه السلام ودعاهم إلى توحيد الله وعبادة الله وحده ونبذ الأصنام، لكن العناد تمكن من القوم فلم يزدادوا إلا كفراً وتكذيباً بالرغم من طول الفترة التي قضاها نوح عليه السلام فيهم، ولما يئس نوح عليه السلام من استجابة قومه، وجاءه الوحي من ربه بأن قومه لن يؤمنوا، وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجراً كافراً فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان، قال تعالى: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**﴾[٥٧]، فأغرقهم الله جميعا وطهر الأرض من دنسهم وبعد هلاكهم عاد كل شيء كما كان بأمر الله تعالى.

المبحث الثالث:

عذاب قوم نبي الله هود عليه السلام بالصيحة والريح

هود عليه السلام هو أول نبي يذكره الله تعالى في كتابه بعد نوح عليه السلام ويشكر مسعاه في إقامة الدعوة الحقة والانتهاض على الوثنية، ويعقب ذكر قوم نوح ذكر قوم هود[٥٨]، وهو هود بن شاح بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، ويقال: إنه أول من تكلم بالعربية[٥٩]، وإنه أول رسول بعث إلى قوم افتتنوا بقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟ وهم قوم عاد، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾[٦٠].

وأما قومه (عاد) فهم أول الأمم الذين

عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾[٦١]، وينتسب قوم عاد إلى عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام[٦٢]. نزل عاد وولده في الأحقاف، وقيل: الأحقاف وادٍ بين عمان وأرض مهرة، وقيل: عمان إلى حضرموت[٦٣]، بعد عاد جاء من ولده من يعبد الأصنام فأقام في قومه ثلاثة أصنام عبدوها من دون الله وهي: (صمود، صداء، الهباء)[٦٤]، فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، قال لهم: يا قوم أطيعوا الله دون الآلهة والأصنام فإن العبادة لا تنبغي للآلهة أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم شيئا دونه وهو لا إله لكم سواه؟[٦٥].

وقد كان لقوم عاد أجسام طويلة وكانوا ذوي بسطة في الخلق، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٦٦]، وكانوا أولي بطش شديد، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٦٧]، وكانت بلادهم في البادية، وكان لهم زرع ونخيل كثير، ولهم أعمار طويلة وأرض خصبة ذات جنات، وناهيك في رقيهم وعظيم مدينتهم[٦٨]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾[٦٩]. وهذه الأشياء - كما هو معروف- تستوجب شكر الله عليها، ولكن عاد فُتنتْ بقوتها وسارت في قافلة الكفر مبهورة بشبابها وشيدت الدور والأبنية على الأعمدة العالية أو فوق قمم الجبال وعلى أي مرتفع من الأرض، وأقامت عاد أول حضارة لها على الأعمدة، وكان هود عليه السلام تجمعه مع قومه صلة قرابة، وهذه تجعل الدعوة تسير بسهولة ويسر؛ لأن القوم يعرفون أمانته وصدق المبعوث إليهم، إلا أن عاد وقفت من هود عليه السلام موقف الضد، حيث

كان يدعوهم بكلمة المودة والتعاطف (يا قوم) فيواجهونه بالشر الجسيم والتمرد العظيم والجرأة الغليظة، وهود عليه السلام كان يدعوهم إلى عبادة الله ويذكرهم بنعم الله عليهم من أموال وبنين وجنات وعيون ودعاهم إلى الرجوع إلى الله لأن عدم الرجوع إليه والتوبة والعمل الصالح يترتب عليه عذاب عظيم[٧٠]، قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[٧١].

وإن قوم عاد لم يؤمنوا بهود عليه السلام وآذوه، فكف الله سبحانه عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا، وطلب منهم هود أن يدعوا الله ويستغفروه: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾[٧٢]، فأبوا إلا تماديا ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾[٧٣]، لقد بغوا وعصوا، ولأنهم ابتلوا بشدة تركيبهم وقواهم اعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ومع عقيدة كهذه وثقافة كهذه وتحت فقه الغطرسة التي دونته عاد يكون السب والطعن وشتى الإهانات من نصيب كل من يحمل بين جنباته فطرة سليمة نقية، فعاد شيدت الحصون على الأرض وفوق المرتفعات وفقا لفقه (من أشد منا قوة؟) الذي دونه الفقهاء الذين كانوا يجحدون

بآيات الله، انطلقت عاد وراء الخلود خوفا من الموت، وأعلام الخلود والأماني العريضة التي يحملها الشيطان أن عالم عاد عالم الكفران للنعمة وكفران المنعم الذي يُستهان فيه بالقتل وانعدام الفضيلة، وعاد أمسكت بذيل كفار قوم نوح عندما رفضوا بشرية النبي ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[٧٤]، ورفض البشر الرسول[٧٥]، فاستحقوا غضب الله وعذابه فقد تحدث سبحانه في القرآن في أكثر من موضع منه عنها:

١. وقع عليهم رجس وغضب كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنتَظِرِينَ﴾[٧٦].

٢. أخذهم بالصيحة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٧٧].

٣. إهلاكهم بالريح كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[٧٨].

والريح العقيم هي الريح التي عقمت وامتنعت من أن تأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الريح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء، كما قيل إنما أثرها الإهلاك كما تشير الآية الآتية: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[٧٩]، (ما تذر) تعني ما تترك، و(الرميم) الشيء الهالك البالي السحيق[٨٠]. قال الزمخشري: (الريح العقيم) التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي ريح الهلاك، واختلف فيها فعن الإمام علي عليه السلام: النكباء، وعن ابن عباس: الدبور، وعن ابن المسيب: الجنوب[٨١].

وذكر القرآن وصفا آخر لهذه الريح

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[٨٢]، و(الريح الصرصر) هي الريح الشديدة العصوف في البرد التي لصوتها صرير[٨٣]، وقيل: الريح الشديدة الهبوب[٨٤].

جلس قوم عاد تحت السماء التي تمسك عنهم المطر ولم يرفعوا أكفهم إلى السماء حتى يرفع الله عنهم العقاب، إنما انطلقوا في يوم عيدهم الأكبر إلى أكبر أصنامهم وتجمعوا حوله يسألونه الماء، هذا العيد يوافق يوم الأربعاء، خرج الجبابرة وخدامهم من الفقهاء والجنود ومن حولهم الغوغاء والرعاع أصحاب العيون أمام الصنم الأكبر ووقفوا يبتهلون ويتضرعون بالآباء تحت لهيب الشمس المحرقة، ولم تكن هناك رياح تسري في الحدائق ولم يكن للنسيم الرقيق وجود بينهم يوم زحامهم على الأصنام، كان الحر شديدا وقطرة الماء أمل للإنسان والحضارة العريضة التي تتربع عليها عاد، وبينما هم ينظرون في الأفق شاهدوا سحابا ثقيلا يستقبل أوديتهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾[٨٥]، فقد حكموا على العارض بما يعلمون، ولكن الحقيقة لا يعلمها إلا الله، فما كل سحاب يأتي بالماء، وما كل رياح تحمل الخير، شاهدوا العارض فقالوا: إنه ممطر؛ لأن علمهم وقف عند الحد الذي يقول بأن السحاب لا يحمل إلا الماء، ولكن في الحقيقة كانت خلاف ذلك ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[٨٦]، فبين الله سبحانه أولا أنه العذاب الذي استعجلوه حين قالوا لهود: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾[٨٧]، وزاد سبحانه في البيان

ثانيا بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٨٨]، تهلك ما مرّت عليه من إنسان ودواب[٨٩].

وفي موضع آخر ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[٩٠]، أي الريح الشديدة العصوف التي لصوتها الصرير في يوم شر، وقد أول ذلك آخرون بمعنى شديد[٩١]، وقيل: أرسلها في يوم متلبس بالنحوسة والشآمة بالنسبة إليهم، المستمر عليهم لا يرجى فيه لهم خير ولا نجاة[٩٢]، سخرها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾[٩٣]، ولقد طحنت الرياح قصورهم وحصونهم ومدائنهم فأصبحوا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[٩٤]، أي تنزع الناس من الأرض، وأعجاز النخل أسافله والمنقعر المقلوب من أصله، والمعنى ظاهر وفي الآية إشعار ببسطة القوم أجساما[٩٥]، وقيل: تقلع الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتندق رقابهم وتبين من أجسامهم[٩٦]، وبذلك قهرت الريح الذين فشوا في الأرض وقهروا أهلها تحت شعار (من أشد منا قوة؟)[٩٧].

أما هود عليه السلام وأتباعه فروي أنه عليه السلام اعتزل ومن معه من المؤمنين في حضيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين الجلود وتلذ الأنفس، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[٩٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٩٩]. وهنا ملاحظة أود أن أذكرها فمن خلال تتبع الآيات السابقة نجد استخدام كلمة (ريح) بدلا من (رياح)؟ إذ نجد أن (الريح) تستعمل للعذاب كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾[100]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[101].

أما كلمة (رياح) فهي تستعمل للخير والرحمة قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[102]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[103][104].

والخلاصة:

أن إهلاك الله تعالى لقوم عاد بالصيحة والريح العقيم هو بسبب طغيانهم وقوتهم وشدتهم وبسطة الخلق والأجساد الطويلة ومقولتهم الشهيرة والشنيعة: (من أشد منا قوة؟)، وبسبب سوء عماد بيوتهم وقصورهم الذي هو كناية عن طول أجسامهم ووفرة أموالهم وتوافر القوة عندهم، فأخذهم بالريح وهي أرق وألطف ما يكون مما لم يتوقعون منه أية مضرة وشدة﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[105]، فبالرغم من قوتهم وقدرتهم التي أعطاها الله لهم ولكن الريح قامت بقلعهم وحملهم إلى عنان السماء ثم تلقيهم على رؤوسهم فتتركهم أجسادا بلا رؤوس ممددة على الأرض.

المبحث الرابع:

عذاب قوم صالح عليه السلام بالرجفة

صالح عليه السلام من الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد ضد الوثنية، وهو صالح بن حاثر بن ثمود بن حاثر بن سام بن نوح عليه السلام[106]، وقد أثنى الله تعالى عليه بما أثنى على أنبيائه ورسله، وذكر صالحا عليه السلام في القرآن تسع مرات في (الأعراف، وهود، الشعراء)، بعثه الله وكان ابن الست عشرة سنة إلى ثمود فلبث فيهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى حتى بلغ العشرين ومائة سنة[107].

أما قومه فيعرفون بـ(ثمود) وهم قبيلة مشهورة، سموا باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك[١٠٨]، وهم أمة قديمة من العرب من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئا يسيرا من أخبارهم الذي يقصه كتاب الله (عز وجل)، وجدوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدينة، يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصورا وينحتون من الجبال بيوتا آمنين، إذ قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾، ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنات والنخيل والحرث[١٠٩]، ﴿**فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ**﴾[١١٠].

عبدت ثمود الأصنام كعاد، وكان لهم ما يقارب الأربعين صنما، جعلوا لها بيوتا يدفعون الناس إليها ليقدموا لها القرابين التي كانت تؤمن لهم زيادة أموالهم وتنمية ثرواتهم، وكان أكبر الأصنام هو (ود، هبل، الات)، وعمرت ثمود وادي القرى تماما كما فعلت عاد قبلهم، وقد وهبهم الله بسطة في الأجسام وطولا في الأعمار، ولكنهم كانوا شرسي الطباع قساة القلوب خصوصا بعد أن كثرت أموالهم واتسعت سلطتهم، إذ أصابهم البطش والغرور كما أصاب قوم عاد فأفسدوا في الأرض وبطشوا بالناس وجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم[١١١]، وشيدوا القصور وفتحوا الطرقات وغرسوا الحدائق والبساتين ونحتوا من الجبال حصونا؛ ليأمنوا غوائل الدهر ونوائب الحدثان، وكان رزقهم يأتيهم رغدا من كل مكان، ولم يشكروا ولم يحمدوا، بل عتوا في الأرض مفسدين واستكبروا وظنوا أنهم في

النعيم خالدون[١١٢]، ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[١١٣]، وكان لثمود ملك ظالم اسمه (جندع بن عمرو) سيء الطباع قاسي القلب مثلهم جبار، جاء إليه جماعة ممن نجاهم الله من بقايا عاد وراحوا يعضونه ويذكرون ما حل بقومهم، ولكن جندع قال لهم بصلف وغرور أكبر: إنما أهلك قوم عاد لأنهم لم يكونوا يحسنون بناء البيوت كما نفعل نحن فقد كانوا يجعلونها على الرمال ونحن نبني بيوتنا في الجبال وكانوا لا يحسنون عبادة أصنامهم والاهتمام بها ونحن نعبد أصنامنا كما يجب، كما أننا أشد قوة من عاد لذلك لا يمكن أن تهلكنا ريح صرصر عاتية، واستخف الملك قومه فتابعوه في غيه وغروره وأصروا على فسادهم وكفرهم، فبعث الله فيهم نبيا منهم وهو صالح عليه السلام[١١٤]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١١٥].

وما كان الله ليعذب قوما حتى يبعث فيهم رسولا فبعث الله إليهم صالحا عليه السلام مِنْ أشرفهم أصلا وأوسعهم حلما وأصفاهم عقلا، فدعاهم إلى عبادة الله وحضهم على التوحيد وطلب منهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه مما اقترفوا من ذنب واجترحوا من إثم، والله لمن دعاه قريب ولمن سأله من المؤمنين مجيب، فصمّتْ الآذان وأغلقت القلوب وعميت الأبصار فأنكروا عليه نبوته وهزئوا بدعوته، حذرهم صالح عليه السلام من مخالفته وخوّفهم بأس الله وبطشه وبيّن لهم أنه لا يقصد من وراء دعوته نفعا ماديا ولا يطلب جزاء على النصيحة ولا يتطلع إلى الرياسة، إنما أجره على الله تعالى فآمن به بعض المستضعفين وكفر الملأ الذين استكبروا مصرين على عنادهم متمادين في طغيانهم[١١٦].

وبعد أن أصروا على طغيانهم عرض صالح عليه السلام عليهم أمرين حتى يؤمنوا به، فقال: إني أعرض عليكم أمرين: إن

شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم فيما تسألون، وإن شئتم سألت إلهكم فإن أجابني خرجت منكم فقد كرهت أعمالكم أكثر مما كرهتموني. فقالوا: يا صالح سل، وسأل صالح آلهتهم فلم يجيبوه، قال: لا أرى آلهتكم تجيبني فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم الساعة، فقالوا: يا صالح أخرجْ لنا من هذه الصخرة (ناقة عشراء، جوفاء، براء) فإن فعلت صدقناك وآمنا بك، فدعا صالح ربه وسأله ما طُلِبَ إليه فانصدعت الصخرة صدعا كادت عقولهم تطير منه ثم اضطربت كالمرأة يأخذها الطلق وخرجت من بطنها ناقة عشراء جوفاء براء كما وصفوها وهم ينظرون مذهولين فلم يؤمن منهم إلا نفر قليل بينما ظل غالبهم على ظلالهم[117].

كما أنه تعالى اشترط عليهم شروطا إن خالفوها أخذهم بالعذاب الأليم فقال تعالى: ﴿**هَـذِهِ نَاقَةُ اللَّـهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّـهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ**﴾[118]، إشارة إلى أن ناقة الله إليكم آية وإشارة إلى ناقته التي جعلها الله معجزة؛ لأن الله تعالى قد أخرجها من جوف صخرة وهم يشهدون على تلك الصفة، وخرجت وهي حامل كما طلبوا[119]، وكان لوجود الناقة بينهم حكمة حيث إن الناقة وهيئتها هي الجزء المادي من المعجزة وأفعالها هي الحجة على الجميع من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني كانت حجة على الذي سمع ورأى والذي لم يسمع ولم يرَ من ثمود، وإن ناقة الله بهيئتها هي معجزة تقود إلى الله الحق، لقد كان عمل الناقة الوحيد أن تشرب يوما ولا يحضر إلى شرابها غيرها وأن يشرب القوم ولا يحضر شربهم غيرهم، وكانت الناقة في يوم شربها تتوجه إلى المرعى فتأكل ما تشاء ولا يجوز لأحد منعها أو معارضتها ثم تعود إلى حيث تبيت دون أن تضر

أحدا في نفسه أو زرعه أو شجره، وأما في يوم شرب القوم فإنها لا تقترب ولا تزاحمهم هكذا من نفسها، وكانت تعود إلى مبيتها ويحلبونها فلا يبقى في بلدهم صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها في ذلك اليوم، وهكذا جرت الأيام، وإن فقدان الماء في يوم وخاصة في عالم الصحراء وبالأخص في عالم ثمود الذي يقوم فيه العمال والجنود بنحت الصخور يكون أمرا شاقا على سير التجارة وانتقال القوافل من هنا إلى هناك؛ لأن نقطة بدء الرحلة يتحدد يومها وفقا للقسمة بين الناقة والقوم كي تتزود القوافل بالماء، وباختصار كان فقدان الماء ليوم واحد فقط خطورة عظيمة تهدد أركان ثمود[120]، وبذلك اتخذت ثمود أخطر قراراتها ألا وهو (قتل الناقة).

أما قصة قتلها فيقال: كانت امرأة جميلة يقال لها (صدوف) ذات مال وإبل وغنم، وكانت أشد عداوة لصالح، فدعت رجلا من ثمود يقال له (مصدع بن مهرج) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة، وامرأة تدعى (عنيزة) دعت قدار بن سالف وكان أحمر أزرق قصيرا وكان ابن زنا، فانطلقا فاتبعهما سبعة نفر من القوم واجتمعوا على عقر الناقة[121]، ويبين الأزهري أن (العقر) عند العرب قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا؛ لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره[122]، فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها قدار حتى شربت وأقبلت راجعة، فقعد لها في طريقها وضربها بالسيف فلم تعمل شيئا فضربها ضربة أخرى قتلها وخرت على الأرض على جنينها، وهرب فصيلها حتى صعد الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء، وعندما بلغ الخبر صالحا عليه السلام جاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿**فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾[123]، أوحى الله تعالى إلى صالح أني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة

أيام فإن تابوا ورجعوا قبلت توبتهم، فلما أبلغهم صالح عليه السلام الذي أوحاه الله إليه اشتدوا وعتوا وتمردوا[١٢٤] ﴿وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾[١٢٥].

وعند رفض القوم الاستغفار والتوبة بعد قتل الناقة توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب، وعندما أعلن صالح عليه السلام عليهم هذا كان بالمدينة تسعة رهط وهم التسعة الذين أخبر الله عنهم في كتابه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[١٢٦]، يقول ابن كثير: كانوا كبراء ثمود ورؤساءهم فهؤلاء أصدروا قرارا بقتل صالح حتى يستطيعوا العيش كما يريدون دون أن ينغص عليهم العيش، وأقسم الرهط المفسدون بالله لنقتلنَّ صالحا وأهله بالليل (لنبيتنه وأهله)، فالتبييت القصد بالسوء ليلا، بعدها أتوه ليلا فحالت الملائكة بينهم وبينه وأمطرتهم بالحجارة ومنعه الله منهم، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدهم (أي أصحابهم) منشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم همّوا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاثة أيام فإن كان صادقا فلا تزيدوا ربكم غضبا، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم[١٢٧].

هكذا حق قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[١٢٨]، فجزاهم بأفعالهم خصوصا عندما تجاوزوا الحد في الفساد والمعصية، إذ قالوا: ﴿يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب على قتل الناقة فقد قتلناها ﴿إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾[١٢٩]، ثم أخبر الله سبحانه بالعذاب في القرآن[١٣٠]، وقد استخدم الله تعالى ألفاظا متباينة في تسمية العذاب الذي حل بهم:

الأول: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[١٣١].

الثاني: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[١٣٢].

الثالث: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[١٣٣].

الرابع: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[١٣٤].

فأما تعريف (الرجفة) فهي الاضطراب والاهتزاز الشديد كما يحدث في زلزلة الأرض وتلاطم البحر، وعندما ضربتهم الرجفة أصبحوا في بيوتهم جاثمين، و(الجثوم) في الإنسان كالبروك في الإبل، لقد برك الجبابرة وأتباعهم كل داخل دياره وعلى أبدانهم أكفانهم ليذوقوا الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد[١٣٥]. وأما (الصيحة) فهي الصوت العظيم من الحيوان، وقال الجبائي: لا تكون الصيحة إلا حدوث صوت في فم حيوان، وقيل: جبرائيل عليه السلام صاح بهم، ويجوز أن يكون الله أحدث الصيحة في حلق حيوان ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، معناه أنه لما أتتهم الصيحة ليلا أصبحوا في ديارهم خامدين على هذه الصفة[١٣٦].

وأما لفظة (الصاعقة) فقد قال تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾[١٣٧]، فيقول الرازي: إن (الصاعقة) فيها وجهان:

١. الواقعة.

٢. الصوت الشديد[١٣٨].

أما لفظة (الطاغية) ففيها أقوال:

١. وهي الصيحة المجاورة في القوة والشدة للصيحات، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[١٣٩]، وقال بعضهم: إنها الرجفة، وقال آخرون: الصاعقة.

٢. الطاغية ها هنا الطغيان: أي أهلكوا بطغيانهم على الله إذ كذبوا رسله وكفروا به.

٣. بالطاغية أي بالفرقة التي طغت من ثمود فتآمروا بعقر الناقة فعقروها أي أهلكوا بشؤم فرقتهم الطاغية[١٤٠].

وهذه الألفاظ جميعها تعبر عن العذاب الذي نزل بحق قوم ثمود، وإن آية أو علامة العذاب في ثمود أن وجوههم في اليوم الأول تكون مصفرة، واليوم الثاني محمرة، وفي اليوم الثالث مسودة[١٤١]، فلما كان منتصف الليل أتاهم جبرائيل عليه السلام فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم وقلقلت قلوبهم فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم ثم أرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم[١٤٢]، أما صالح عليه السلام والذين آمنوا فقد نجاهم الله برحمة منه فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾[١٤٣]، وقال تعالى: ﴿**وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[١٤٤]، ﴿**وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[١٤٥]، وفي هذا البيان تأكيد لسنة من سنن الله التي لا تتخلف ولا تتبدل ألا وهي عقاب الظالمين ونجاة المؤمنين.

إذن، إهلاك قوم صالح عليه السلام بالرجفة لم يكن اعتباطا، وإنما لكونهم أعطوا مهارة البناء والعمران مع ما كانوا فيه من طيب العيش ورغد الحياة، قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[١٤٦]، ولكنهم قابلوا هذه النعم بالكفران والنكران، ولم يقابلوها بالشكر والعرفان، فضلاً عن تكذيب صالح عليه السلام بعدما أتاهم بآية دالة على صدقه وهي (الناقة)، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بعقرها، وكان سبب هلاكهم بالرجفة لما ارتكبوه من انتهاك حرمة الله فحق عليهم العذاب.

المبحث الخامس:

عذاب قوم النبي لوط عليه السلام بالقلب وطمس الأعين وحجارة السجيل

لوط عليه السلام هو لوط بن هارون بن تارح عليه السلام[١٤٧]، وهو نبي من أنبياء الله وابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقد آمن بالنبي إبراهيم عليه السلام، أرسله الله إلى مكان في الأردن يدعى (سدوم) ويدعى (بحيرة لوط) حاليا؛ ليهدي قومه ويدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى[١٤٨]، فعمّه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي رباه بعد وفاة أبيه فآمن به وصدقه[١٤٩]، وكان لوط عليه السلام رجلا سخيا كريما يقري الضيف إذا نزل به[١٥٠]، ويعيش في أرض بابل مع عمه النبي إبراهيم عليه السلام الذي دعا سكانها إلى عبادة الله ونبذ الأصنام وكان موقفهم الكفر برسالة إبراهيم، ولما أراد إبراهيم عليه السلام الهجرة من أرض بابل قرر لوط أيضا أن يهاجر معه، وهكذا ترك لوط بلده وهاجر، ولما وصلت القافلة إلى أرض سدوم أمر النبي إبراهيم لوطا عليه السلام أن يسكن في تلك القرى ويدعو أهلها إلى عبادة الله ونبذ الأصنام وفي قرى سدوم بدأت قصة لوط عليه السلام.

أما مدينة سدوم فهي المدينة التي بعث الله لوطا عليه السلام إليها وما والاها من المدائن، ويقال: إنها أربع مدائن (سدوم، عمورة، صوغر، صبوييم)[١٥١]، ويقال: المدائن الخمس (سدوم، وعمورا، وأدموتا، وصاعورا، وصابورا)[١٥٢]، كان أهل سدوم يعيشون على الزراعة يعملون من الصباح حتى غروب الشمس ثم يعودون إلى منازلهم في القرية[١٥٣]، وعن أبي جعفر عليه السلام: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا أجمعهم وتبقى النساء خلفهم[١٥٤].

إلا أنهم ساءت أخلاقهم وأصبحوا أشرارا يعملون المنكرات والقبيح الذي

تأباه البهائم وتنفر منه جميع النفوس البشرية من سابق ولاحق، وكان لا يستحي بعضهم مِن بعض مِن أن يأتي بأفظع المنكرات فيجتمع صغيرهم وكبيرهم والأب والابن والسيد والعبد على نكاح الرجل الغريب واللوط به ولو في محضر نسائهم وبناتهم[١٥٥]، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ﴾[١٥٦]، ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[١٥٧]، إنهم كانوا طاغين يأتون الفواحش والمنكرات ويعتدون على الغرباء، فكانوا يأتون الرجال شهوة دون النساء ويقطعون عن الناس الأسفار بإتيان الفاحشة، فإنهم كانوا يفعلون بالمجتازين من ديارهم وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة وبالخذف[١٥٨]، فإن أصابه كان أولى ويأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم[١٥٩]؛ فلذلك كان المسافرون يخافون الاقتراب من منازل سدوم وأهلها المجرمين، كانوا لا يعرفون منزلا يكرمهم ويقدم لهم الطعام ويحسن لهم سوى منزل لوط عليه السلام، كانوا يلعبون القمار جميعا وما عادوا يخجلون من أعمالهم الدنيئة والمنحطة، وكانوا يعبدون الأصنام[١٦٠]، كانوا أهل قرية لا يتنظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة بخلاء أشحاء على الطعام[١٦١]، فدعاهم النبي لوط عليه السلام لترك المنكرات وعبادة الله وحده لا شريك له، ولقد استخدم النبي لوط عليه السلام أسلوب التخويف والتعذيب في الآخرة وكان يغريهم بنعيم الجنة، ولكنهم لم يتعظوا، وقيل: إن الذي حملهم على هذا (الشهوة) وهي إتيان الرجال دون النساء أنهم كانت لهم بساتين وثمار في منازلهم، وبساتين وثمار أيضا على ظهر الطريق، وقد أصابهم القحط الشديد والجوع فقالوا لبعضهم: إن منعتم عن أبناء السبيل والمسافرين كان فيها

معايش، فقالوا: وكيف نمنعها؟ فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: اجعلوا ألسنتكم وعاداتكم أن مَن وجدتموه في بلادكم غريبا فاسلبوه وانكحوه، وزين لهم الشيطان هذا الفعل وحلّاه في أعينهم فظلوا مستمرين على هذه العادة إلى أن جاء النبي لوط عليه السلام ودعاهم إلى عبادة الله (عزوجل) وترك المنكرات والفواحش[١٦٢]، ﴿**وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ**﴾[١٦٣]، فإن هذا الفعل كارثة؛ كونها تخالف فطرة الله، لقد خلق الذكر والأنثى وجهز كل صنف من الصنفين بأعضاء وأدوات، ومن يتأمل في صنع الله وإلقائه تعالى غريزة الشهوة في كل منهما والجمع بينهما في النكاح يعلم أن الحكمة وراء ذلك هي التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين، فالرجل مخلوق للمرأة لا لرجل مثله، والمرأة مخلوقة للرجل لا لامرأة مثلها[١٦٤].

لبث لوط في قومه (٣٠سنة) يدعوهم إلى عبادة الله ويحذرهم عقابه[١٦٥]، ولم ييأس لوط عليه السلام من دعوتهم، وكانوا قد حذروه من قبل أنه إذا لم ينته فسيطرد من القرية وطالبوه بالصمت، ولكنّ لوطا نبي ليس لهُ إلا أن يبلغ رسالة ربه، وعندما قام لوط بالإبلاغ أصدروا عليه قرار الطرد، قال تعالى: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[١٦٦]، وعندما أصدروا قرار الطرد أنذرهم لوط عليه السلام بالعذاب، يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ**﴾[١٦٧]، أي لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوه في إنذاره وتخويفه[١٦٨].

وبذلك أصروا على عملهم بقطع النسل وإتيان المنكرات والقبائح، وأصروا على أن يكتبوا أسماءهم في قائمة الاستئصال وهم مختارون، قال تعالى: ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ**﴾[١٦٩]، وبذلك استهزؤوا بلوط وسخروا كما

استهزأ من قبلهم الأكثر منهم فحولة وذكورة، وأمام طلبهم لم يملك لوط إلا أن يقول: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[١٧٠]، دعاء منه عليهم، وقد عدهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدد الإنسانية بالفناء[١٧١].

قبل أن تصل الملائكة التي أرسلها الله لعذاب قوم لوط ذهبت إلى إبراهيم عليه السلام تبشره بالذرية، فأكرمهم إبراهيم وقدم لهم الطعام وخاف منهم؛ لأنهم لم يأكلوه وخشي أنهم يضمرون سوءاً، فطمأنوه وبينوا له أنهم ملائكة من عند الله تعالى لا تأكل ولا تشرب وعاجلوه بالبشرى، ثم أخبروه أنهم سائرون نحو قوم لوط ليهلكوهم، فخاف إبراهيم عليه السلام على ابن أخيه الذي أرسله إلى القرى الظالمة فطمأنته الملائكة بأنهم يعلمون من فيها وأنهم سينجونه وأهله من العذاب إلا امرأته، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾[١٧٢]، انطلقت الملائكة تجاه القرى الظالمة بعد أن ألقت خبر البشرى على ابراهيم، ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[١٧٣]، دخلوا في زي ضيوف غرباء، ولم يشعر أحد بهم، عندما طرقوا باب لوط كان في وقت المساء فتح لوط الباب ورأى ثلاثة شبان وسيمين، شعر لوط أنه في مأزق حرج، هل يعتذر عن استضافتهم؟! ولكن هذا ليس من الأخلاق ولا من الدين، ماذا يفعل؟ رحب النبي لوط بضيوفه وأدخلهم بسرعة وأغلق الباب[١٧٤]، فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فلما رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يهرعون،

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾[١٧٥]، قال المفسرون: كان قومه قد نهوا أن يضيّفَ رجلا، وعندما علموا بمن عنده أسرعوا إليه فرحين بذلك وتجمعوا حول منزل لوط وراحوا يطرقون الباب بعنف، ولما رآهم تجمعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعضة أو إغلاظ في الكلام وأراد أن يصرفهم عما يريدون بقوله: ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي﴾ إشارة إلى نساء القوم؛ لأن النبي أبو أمته، فنساؤها بناته كما أن رجالهم بنوه، خير وأطهر من قصد الذكور عن طريق الفحشاء، ولكن القوم لم يؤثر فيهم ذلك أي أثر وأجابوه بما آيسوه به، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[١٧٦]، وهذا جواب قومه عندما دعاهم إلى النكاح المباح قال لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[١٧٧]، قال المفسرون: أي ليت لي قدرة بانضمام رجل رشيد منكم يقوم بنصرتي فأدفعكم به عن ضيوفي، ولم يكن لوط عليه السلام يعلم أن معه في الحجرة ركن من أقوى الأركان، وأي ركن أشد من جبرائيل عليه السلام؟ وكان مع لوط تحت سقف واحد[١٧٨].

وقبل نزول العذاب حدثت محاورة بين لوط عليه السلام والملائكة مفادها: قال جبرائيل للملائكة لو علم ماله من قوة، فقال لوط: من أنتم؟ فقال جبرائيل له: أنا جبرائيل، فقال لوط: وبماذا أمرت؟ فقال: بهلاكهم، قال: الساعة؟ فقال جبرائيل: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[١٧٩]، قال: فكسروا الباب ودخلوا البيت فضرب جبرائيل بجناحه على وجوههم فطمسها وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[١٨٠]، فلما رأوا ذلك علموا أنه قد

جاءهم العذاب[١٨١]، طلبت بعدها الملائكة من لوط أن يغادر صباحا دون أن يلتفت وراءه؛ لكي لا يرى ما سينزل بقومه الكافرين من عذاب، وأن امرأته سوف يصيبها ما يصيب قومها وسوف تهلك مع الهالكين[١٨٢]، قال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**﴾[١٨٣]، عندما جاء الصباح أخذت القومَ (الصيحة) وتعني الصوت الهائل، و(مشرقين) أي كونهم داخلين في إشراقة الصباح[١٨٤]، وقد خرج النبي لوط مع ابنتيه من سدوم، وكانت امرأته معهم فلما سمعت بالعذاب من خلفها التفتت وقالت: (واقوماه) فأتتها حجارة من السماء أهلكتها، ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾[١٨٥].

قالوا: اقتلع جبرائيل تلك القرى الظالمة بطرف جناحه بمن فيهن من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل: أربعة آلاف نسمة ومن معهم من الحيوانات وما يتبع المدن من الأراضي والأماكن، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات دِيَكَتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها[١٨٦]، فأمطر الله عليهم حجارة من طين، كان كل حجر مقدرا ومرسلا باسم صاحبه الذي سيسقط عليه، ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَم حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾[١٨٧]، ويقال: إن (السجيل) هو الحجر الشديد القوي الصلب، و(منضود) أي تبع بعضها بعضا في النزول، و(مسومة) أي معلومة مكتوب على كل حجر اسم صاحبها الذي سيهبط عليه فيدمغه[١٨٨]. ويذكر أن القلب على بلادهم والأمطار بالسجيل عُذّبَ به الغائبون منهم، وقيل: إن القرية هي التي أمطرت حين رفعها جبرائيل عليه السلام ليخسفها، وقيل: إنما

أمطرت عليهم الحجارة بعدما قلبت القرية تغليظا في العقوبة، لقد كان هناك قلب وصيحة وأمطار بالحجارة، ﴿**فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾[189]، وعندما جاء أمر القلب استثنى الله تعالى منزل لوط عليه السلام وجعله عبرة للسيارة[190].

وأخيرا فإن سبب إهلاك قوم لوط عليه السلام بالقلب وطمس الأعين وحجارة السجيل لأنهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور شهوة دون النساء، وبذلك عكسوا فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ لذلك قلب الله عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، وكذلك هم قد قلبوا ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ويعني هذا أن الجزاء كان من جنس عمل القوم.

المبحث السادس:

عذاب قوم شعيب عليه السلام بالرجفة والصيحة

لقد اُختلف في نسب شعيب عليه السلام فقالوا: إنه[191]

أ -شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب عليه السلام.

ب -وقيل: إنه شعيب بن نويت بن عيفا بن مدين بن إبراهيم عليه السلام.

ت -وقيل: شعيب بن صفورا بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، وقيل غير ذلك في نسبه.

وكان عليه السلام ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن الكريم، وهم هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله عليه وآله[192]، وقد ذكر الله طرفا من قصته في سور (الأعراف، وهود، والشعراء، والقصص، والعنكبوت)[193]، أما لسان شعيب ولسان قومه فقد كان عربياً، وقد اشتهر فيهم بالعلم والحكمة والصدق والأمانة، وقد روي عن

الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: (كان شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء)[١٩٤].

وكان شعيب عليه السلام يعرف بأنه (يثرون) كاهن مديان المذكور في العهد القديم، ويذكر العهد القديم أن (يثرون) حمو موسى عليه السلام وهو كاهن مديان الذي لجأ إليه موسى عليه السلام عندما هرب من فرعون مصر وتزوج ابنته صفورا[١٩٥]. ويقال: إن شعيباً قد دعا قومه مرتين، فعن علي عليه السلام وقد قيل له: يا أمير المؤمنين حدثنا عن شعيب، قال: إن شعيبا عليه السلام دعا قومه إلى الله حتى كبر سنه ودق عظمه ثم غاب عنهم ما شاء الله، ثم عاد إليهم شاباً فدعاهم إلى الله (عزوجل) فقالوا: ما صدقناك شيخاً فكيف نصدق شاباً؟[١٩٦].

وقد أُرسل عليه السلام إلى مدين، قال تعالى: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[١٩٧]، وهي قرية تقع في طريق الشام من الجزيرة، ورأس قبيلة مدين هو(مدين بن إبراهيم بن خليل الله)، كان أهل القرية وما حولها منعمين بالخصب ورخص الأسعار والرفاهية[١٩٨]، وكان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم (مدين)، شاع الفساد بينهم برفع الأسعار والتطفيف ونقص المكيال والميزان، وكانوا يعبدون الأصنام ويقطعون السبيل ويخيفون المارة، وكانوا أسوء الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما ويأخذون الزائد ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه الأفعال القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم، فآمن به بعض وكفر بعض حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد[١٩٩]، وكانت دعوته لهم قائمة على محاور عدة:

١. دعاهم إلى التوحيد.

٢. دعاهم إلى الكف عن الإفساد في الأرض، ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ**

إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢٠٠].

٣. دعاهم إلى ترك التعرض إلى صراط الله المستقيم **﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾**[٢٠١].

٤. دعاهم إلى الصبر حتى يحكم الله بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، **﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾**[٢٠٢].

فما كان رد قومه عليه إلا أن قالوا: **﴿قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾**[٢٠٣].

أما (أصحاب الأيكة) فقد قال المفسرون: الأيكة الغيضة الملتف شجرها، وقيل: إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة، وكانوا ممن بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام وكان أجنبياً منهم، وأمرهم بتقوى الله وبيَّنَ أنه رسول من عند الله سبحانه أمين على ما حمله من الرسالة، لا أبلغكم إلا ما أمرني ربي وأراده منكم[٢٠٤]، وروي أن الأيكة كانت تمتاز بحدائقها الغناء الملتفة وتوابعها الكثيرة (الماء- الأهوار- الأشجار). إذ قال تعالى: **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾**[٢٠٥].

وقد وقع خلاف هل أن الأيكة هي مدين؟ أم أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين؟ وللجواب على هذا الخلاف نجد أن الذين قالوا بأن الأيكة غير مدين أصابوا بدليل: أنهم استندوا إلى الأحاديث، أما غيرهم فقد استند إلى رأيه. كذلك لأنهم استندوا إلى نوع العذاب، فعذاب الأيكة يخالف عذاب

مدين من حيث نوعه، فمدين ضربت بالرجفة أو الصيحة، والأيكة ضربت بعذاب الظلة، واستندوا إلى كتاب الله، فضلاً عن أن الله سبحانه وتعالى نسب شعيبا إلى مدين ولم ينسبه إلى الأيكة، ثم إن هناك ملامح طرد وهجرة لأتباع شعيب عليه السلام من مدين في كتاب الله. وقد فجر أصحاب الأيكة قضية رفض البشر الرسول، وهو الذي لم يحدث في مدين، وليس معنى هذا أن مدين تعترف ببشرية الرسول، فمدين عبدوا الأصنام وتصرفوا على وفق أهوائهم، ولكنهم لم يفجروا هذه القضية؛ لأنهم لم يملكوا مؤهلاتها، فالقضية لا تفجر إلا في مجتمع مترفٍ، وأصحاب الأيكة امتلكوا الأيكة، وكان من عندهم يتدفق النهر الذي تحمل أمواجه الزخرف، ومدين ما هي إلا موجة من أمواجهم، وإضافة إلى ذلك فإن الأيكة كان يسكنها كبار التجار، أما مدين فقد كانت تمتاز بكثافة سكانية، وكان لأصحابها الترف، ولكنه لا يقاس بترف أصحاب الأيكة.

أراد شعيب عليه السلام أن يطهرهم ويطهر مَن حولهم، ولكنهم أبوْا إلا العذاب، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ودخل شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه الأيكة ليبدأوا معها الطريق الذي بدأوه مع مدين[٢٠٦].

ومن ذلك نستنتج أن مدين غير أصحاب الأيكة، حيث روى ابن عساكر عن رسول صلى الله عليه وآله: (أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام)[٢٠٧]، وقال قتادة: (أرسل شعيب مرتين إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة)[٢٠٨]، كما أن أصحاب الأيكة أُهلكوا بعذاب الظلة، وأن أهل مدين أهلكوا بالرجفة، وهناك فرق بين الذين يهلكون تحت سحابة الظلة الذي يحمل النار والحر، وبين الذين يأتي عليهم الصبح وقد ضربتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وعندما بعث الله شعيبا عليه السلام إلى مدين قال:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٢٠٩]، وعندما بعث الله شعيباً عليه السلام إلى أصحاب الأيكة قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[٢١٠]، ولم يقل أخاهم؛ فلذلك يختلف أصحاب الأيكة عن مدين وهما أمتان بُعِثَ إليهما شعيب عليه السلام.

أما دعوته عليه السلام فقد كان قومه يعبدون الأصنام، وشاع فيهم التطفيف في الكيل والوزن عندهم، واشتد الفساد فيهم، فأرسل الله سبحانه وتعالى شعيباً عليه السلام إليهم دعاهم إلى التوحيد وتوفية الميزان والمكيال بالقسط، وترك الفساد في الأرض وبشرهم وأنذرهم وبالغ في وعظهم[٢١١]، ونهاهم عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم من سلب نعمة الله عليهم في دنياهم وعذابه الأليم في آخرتهم أشد، ثم قال لهم آمراً زاجراً: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[٢١٢]، قال ابن عباس: (بقية الله خير لكم) أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس، وقال ابن جرير: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف[٢١٣]، كما أن شعيباً عليه السلام قال لهم: ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾[٢١٤]، أي إني أشاهدكم في خير وهو إنعام الله عليكم من المال وسعة الرزق والرخص والخصب فلا حاجة لكم إلى نقص المكيال والميزان واختلاس اليسير من أشياء الناس طمعا في ذلك من غير سبيله المشروع وظلما وعتوا، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ تبيّن أن هناك رادعين عن معصية الله هما[٢١٥]:

أولا: إنكم في خير ولا حاجة إلى بخس الناس أموالهم.

ثانيا: إن وراء مخالفة أمر الله تعالى يوما محيطا يُخاف عذابه.

فكان رد قومه رد اللصوص والمفسدين في كل مكان وزمان، رد الذين تخصصوا في سلب كل فرع وكل غصن وكل زهرة وكل ورقة وكل عشب في أرض الله الواسعة، ليسلبوا منها كل قرش وكل حبة وكل عرق وكل نفس ليحل الشقاء بأي إنسان ولتظل جيوبهم وبطونهم منتفخة وعقولهم أيضا[٢١٦]، فأخذوا يرمون نبيهم عليه السلام بأنه مسحور وبأنه كاذب، ﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ**﴾[٢١٧]، وأخافوه بالرجم وهددوه والذين آمنوا بالإخراج من قريتهم أو ليعودُن في ملتهم، ﴿**قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾[٢١٨]، ولم يزالوا به حتى أيأسوه من إيمانهم فتركهم وأنفسهم ودعا الله بالفتح[٢١٩]، ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾[٢٢٠]، وقال قوم شعيب عليه السلام عندما أعرضوا عنه: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾[٢٢١]، إنه في مقياسهم ضعيف؛ لأن الفقراء والمساكين اتبعوه، أما علية القوم فقد استكبروا وأصروا على طغيانهم، إنه مقياس بشري خاطئ؛ فالقوة بيد الله تعالى والله مع أنبيائه[٢٢٢]، وقالوا تهديداً لشعيب عليه السلام: ﴿**وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**﴾، أي لولا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك، لكننا نراعي جانبهم فيك، وفي تقليل العشيرة إيماءٌ إلى أنهم لو أرادوا قتله يوما لقتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته، وإنما كفهم عن قتله نوع احترام وتكريم منهم لعشيرته، وبعدها

طالبوه بالعذاب إن كان من الصادقين وحددوا العذاب الذين يريدونه كما تشير الآية الكريمة ﴿**فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ**﴾[٢٢٣]، أي أسقط علينا قطعا من السماء، وكان رد شعيب عليه السلام عندما طالبوه بالعذاب[٢٢٤]: ﴿**قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٢٢٥].

وعند ذلك نزل العذاب وهلك القوم فقال تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾[٢٢٦]، أي الزلزلة، وقيل: أرسل الله عليهم حراً شديداً فأخذ الله بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم البيوت ولم ينفع معهم ظل ولا ماء، وأنضجهم الحر فبعث الله عليهم سحابة فيها برد الريح وطيبها وظل السحابة، فنادوا عليكم بها فخرجوا إلى البرية فلما تجمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد وصاروا رماداً، وهو عذاب يوم الظلة، وقيل: بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا بها، وقيل: إنه كان لشعيب عليه السلام قومان، قومٌ أهلكوا بالرجفة، وقومٌ هم أصحاب الظلة، ومن خلال هذه الأقوال نجد أن (أهل مدين) قد كان عذابهم (الرجفة)، ﴿**فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾، والرجفة: الاضطراب الشديد، والجثوم في المكان: القعود فيه أو البروك على الأرض، وهو كناية عن الموت، والمعنى أخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في ديارهم لا حراك بهم، لقد ضربتهم الرجفة داخل بيوتهم، وضربتهم الصيحة خارج الجدران في الحقول وعلى قمم الجبال، فمن لم يمت بالرجفة مات بالصيحة، والصيحة: صوت هائل ترتعد له القلوب والأركان، وكان وقت الرجفة عندما دخل وقت الصباح وعندما جاء الصباح لم يجدهم؛ لأن الرجفة قد أخذتهم في أيسر زمان[٢٢٧].

أما (أصحاب الأيكة) فقد أخذهم عذاب يوم الظلة، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢٢٨]، و(يوم الظلة) يوم عُذبوا فيه بظلة من الغمام، وروي أنه يوم حر وسموم فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكفيهم منه شيء، ثم أقبلت سحابة أظلت فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله عليهم شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلة، لقد ضربهم الحر تحت الظلال وهم الذين طالبوا بهذا العذاب[٢٢٩]، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾[٢٣٠]، وعن أبي جعفر عليه السلام قال: (أوحى الله لشعيب عليه السلام إني معذب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من أشرارهم وستين ألفاً من أخيارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله (عزوجل) إليه: دهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي)[٢٣١].

وبذلك طويت مدين وطوي أصحاب الأيكة واحترقت أكواخهم في لمح البصر وتعذبوا ليالي طويلة في يوم عظيم ونجى شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه ورجعوا إلى مدين مقره الأول وموطن القبيلة وأقاموا بها، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٢٣٢].

أما لماذا أهلك قوم شعيب عليه السلام بالرجفة والصيحة؟؛ فلأنهم كانوا لا يوفون المكيال والميزان العدل، والموازين والمكاييل آلة لإقامة العدل؛ لذلك أمر الله بإيفائها ونهى عن نقصها،

لأن نقص المكيال والميزان تعطيل للمنهج الإلهي ومخالفة للأوامر الربانية وتعرض لسخط الجبار وعذابه في الدنيا والآخرة، إلا أنهم لم يستمعوا إلى شعيب عليه السلام نبيهم بعدما نهاهم عن هذا الفعل، فجاء رد رب العالمين عليهم بما يناسب أفعالهم وهي الرجفة والصيحة، أما أصحاب الأيكة فقد طلبوا العذاب من الله (عزوجل) وجاءهم كما أرادوا: ﴿**أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً**﴾، أي قطعا من السماء، ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[٢٣٣].

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث أوجزت أهم النتائج التي ظهرت لهذا الموضوع، والتي يمكن إجمالها بالآتي:

١. بعد استقراء الآيات الواردة في قصص السابقين تبين أن الذين عاقبهم الله بعذاب الاستئصال هم قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وقوم مدين وأصحاب الأيكة.

٢. بالنظر إلى الفترات التي عاش فيها هؤلاء المذكورون تبين أن عذاب الاستئصال بدأ بأول أمة انجرفت عن الجادة وهم قوم نوح عليه السلام، ثم توالت الأمم بعدهم تعقب بعضها بعضاً، وتلقى المصير ذاته، وقد استمرت إلى الفترة السابقة لمولد النبي صلى الله عليه وآله.

٣. هناك ربط وثيق بين ذكر الهلاك وسببه في قصص الأقوام السابقة؛ لأجل الاعتبار بتلك القصص والاتعاظ بمصير الهالكين، فلو كان ذكر الهلاك دون ذكر أسبابه لما عُلمت تلك الأسباب

حتى تُجتنب فلا تتحقق الغاية التي من أجلها سيقت القصص، وهي التحذير من الوقوع في مثل ما وقع فيه السابقون وهلكوا بسببه.

٤. إن الجزاء والعذاب الدنيوي للأقوام المعذبة كان من جنس عمل القوم الذي كانوا يعملونه في حياتهم.

٥. بالنظرة المتأنية نجد أن الأسباب التي أدت إلى هلاك الأقوام السابقة هي: الشرك، الاستكبار، الاستهزاء بالرسل وأتباعهم، وإيذاء الرسل وأتباعهم، كفران النعم، عقر الناقة، عمل قوم لوط، نقص الميزان والمكيال، الفساد، الفسق، الظلم، الخطايا وغيرها.

٦. هذا الزمان يتسم بكثرة الفتن والكوارث التي تزهق الأرواح وتدمر البلاد، وهذه الأمور إما عقوبات يعاقب الله بها العصاة، وإما ابتلاء يبتلي الله به عباده ليميز الصبور من الجزوع، والواجب عند حدوث فتنة أو كارثة أن يعتبر الناس بها ويتعظوا، سواء من كان ممن داهمته الفتنة أو الكارثة، أو من كان بعيد الدار فسلم وسمع بها.

٧. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان أساسيتان لحماية المجتمعات من العقوبات العاجلة، فما دام الناس يأتمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فإنهم في مأمن من نزول العذاب؛ لأن المعاصي -وإن وجدت- فهي خفية أو في نطاق ضيق، أما إذا تُرك الحبل على الغارب، وجاهر أهل المعصية بمعصيتهم، وشاع في الناس الحرية الفوضوية وسكت الخاصة والعامة فلم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فلينتظروا عندئذ عذاباً من الله، لا يختص بالعصاة فحسب، بل يعم المجتمع كله، والعاقل من اتعظ بغيره.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم (المصدر الأساسي والرئيسي).

٢. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الفكر (بيروت- لبنان)، ط١، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

٣.ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار الفكر، (بيروت- لبنان)، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

٤.ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، قصص الأنبياء، دار الطباعة والنشر الإسلامي، ط٥، (١٤١٥هـ - ١٩٩٧م).

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، (بيروت- لبنان)، ط١، (١٩٦٨م).

٦.أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، دار الهادي، (بيروت- لبنان)، ط٢، (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

٧. الجزائري، السيد نعمة الله بن عبد الله بن محمد، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، دار الكاتب العربي، (بيروت- لبنان)، ط١، (١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م).

٨.الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، مفاتيح الغيب- التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، ط٣، ١٤٢٠هـ

٩. الرواندي، قطب الدين بن هبة، قصص الأنبياء، دار الهادي، قم، ط١، (١٤١٨هـ).

١٠.الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، (بيروت- لبنان)، ط٣، ١٤٠٧هـ

١١.الزين، سميح عاطف، قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث، الدار الأفريقية العربية، (بيروت- لبنان)، ط٤، ١٩٩٧م.

١٢.السامرائي، صالح إسماعيل حمد شهاب، أنواع عذاب الدنيا الجسدي في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)، أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.م.د محمد صالح عطية الحمداني، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، قسم أصول الدين، سنة ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

١٣.الشيرازي، الشيخ ناصر بن محمد كريم بن محمد باقر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، (قم- مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام)، ط الأولى .

١٤.الصدوق، أبو جعفر بن محمد بن علي بن موسى بن بابويه، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

١٥.الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات الأعلمي للمطبوعات، (بيروت- لبنان)، ط ١، (١٩٩٧م - ١٤١٥هـ).

١٦.الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، حسين الأعلمي، (٢٠شوال ١٤١٤هـ - ١١/٤/١٩٩٤م).

١٧.الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، ط ١، (٢٠٠٠م - ١٤٢٠هـ).

١٨.العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، تفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران (١٣٨٥هـ).

١٩.القمي، الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمي، مؤسسة دار الكتاب للطباعة، ط٣، (١٤٠٤هـ).

٢٠.المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، المكتبة العصرية، (صيدا- بيروت)، ط ١، (١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م).

المصادر الإلكترونية:

١. (قصة النبي صالح وناقته)، (forums.alkafeel.net)

٢. (قصة نبي الله لوط)، (www.almarsal.com)

٣. السامرائي، د. فاضل السامرائي، الفرق بين كلمة (الريح) و (الرياح) في القرآن، (albayanl quarany.com)

٤. شعيب عليه السلام (ar.wikipedia.org)

٥. شعيب عليه السلام (islamyuiaden.comwww.)

٦. ألفاظ العقاب في القرآن الكريم، (WWW.IslamQT.Com)

٧. قصة نبي الله لوط عليه السلام، (forums.alkfeel.net)

٨. الكمالي، محمد، (لوط نبي أكثر الناس فجورا)، (www.albayan.ae)

الهوامش:

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٦٨م، ج١، ص٥٨٥، حرف الباء مادة (عذب).

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج٤، ص٢٥٩.

(٣) المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعريف، عالم الكتاب، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، القاهرة، ج١، ص٥٠٨.

(٤) السامرائي، صالح إسماعيل حمد شهاب، أنواع عذاب الدنيا الجسدي في القران الكريم (دراسة موضوعية)، أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.م.د. محمد صالح عطية الحمداني، كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، قسم أصول الدين، سنة ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ

(٥) الأعراف، الآية (١٦٦).

(٦) الزخرف، الآية (٥٥).

(٧) المائدة، الآية (٣٨).

(٨) السامرائي، صالح إسماعيل حمد شهاب، أنواع عذاب الدنيا الجسدي في القران الكريم (دراسة موضوعية).

(٩) السجدة، الآية (٢١).

(١٠) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ بيروت، لبنان، ص (٤١٧).

(١١) سورة الأعلى، الآية (١٢-١٣).

(١٢) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠م - ١٤٢٠هـ ص(٤١٧).

(١٣) آل عمران، الآية (١٠٦).

(١٤) المائدة، الآية (٤٠).

(١٥) البقرة، الآية (١٠).

(١٦) إبراهيم، الآية (٧).

(١٧) البقرة، الآية (٧).

(١٨) الإسراء، الآية (١٥).

(١٩) ينظر: ألفاظ العقاب في القرآن الكريم (WWW.IslamQT.Com).

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) الفرقان، الآية (٦٥).

(٢٢) الرعد، الآية (٣٤).

(٢٣) الأنعام، الآية (٦٥).

(٢٤) النور، الآية (٢).

(٢٥) النور، الآية (٨).

(٢٦) الأعراف، الآية (١٦٥).

(٢٧) الأنفال، الآية (٣٣).

(٢٨) الحشر، الآية (٣).

(٢٩) المؤمنون، الآية (٦٤).

(٣٠) المؤمنون، الآية (٦٧).

(٣١) القلم، الآية (٣٣).

(٣٢) النمل، الآية (٢١).

(٣٣) السجدة، الآية (٢١).

(٣٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٩٩٧م - ١٤١٥هـ بيروت، لبنان، ج١٠، ص ٢٣٧.

(٣٥) سورة نوح، الآية (٢٣).

(٣٦) سورة العنكبوت، الآية (١٣).

(٣٧) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص ٢٣٨.

(٣٨) القمي، الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمي، مؤسسة دار الكتاب للطباعة، ط٣، ١٤٠٤هـ ج١، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٣٩) سورة هود، الآية (٣٦).

(٤٠) سورة نوح، الآية (٢٦).

(٤١) سورة هود، الآية (٣٧).

(٤٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص ١٢٩.

(٤٣) سورة هود، الآية (٣٨-٣٩).

(٤٤) سورة المؤمنون، الآية (٢٧).

(٤٥) العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، تفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، ١٣٨٥هـ م١، ص ٢٠.

(٤٦) سورة القمر، الآية (١١-١٢).

(٤٧) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص ١٢٩.

(٤٨) سورة هود، الآية (٤٢).

(٤٩) سورة العنكبوت، الآية (١٤).

(٥٠) ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، حرف (الطاء)، مادة (طوف)، ص٢٢٥.

(٥١) سورة هود، الآية (٤٨).

(٥٢) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ج١٠، ص٣٢٨.

(٥٣) الجزائري، نعمة الله بن عبد الله بن محمد، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، دار الثقلين، بيروت، لبنان، ص ٧٨.

(٥٤) الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان، حسين الأعلمي، (٢٠شوال ١٤١٤هـ- ١١/٤/١٩٩٤م)، ص ٢٤٧.

(٥٥) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ج١٠، ص٣٢٧.

(٥٦) الصدوق، أبو جعفر بن محمد بن علي بن موسى بن بابويه، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ج١، ص٤١.

(٥٧) سورة القمر، الآية (١٠-١٢).

(٥٨) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، تفسير سورة هود، ص١٥٣.

(٥٩) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ج١٠، ص١٢٠.

(٦٠) سورة فصلت، الآية (١٥).

(٦١) سورة الأعراف، الآية (٦٩).

(٦٢) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص(٢٨٧ -١٢٠).

(٦٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص١٥٧.

(٦٤) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص١٢١.

(٦٥) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، تفسير الطبري، ج١٩، ص٢٨.

(٦٦) سورة الأعراف، الآية (٦٩).

(٦٧) سورة الشعراء، الآية (١٣٠ - ١٣١).

(٦٨) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص(١٥٨ - ١٥٧).

(٦٩) سورة الفجر، الآية (٦ - ٨).

(٧٠) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، دار الهادي، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ط٢، ص(٦٥- ٦٩).

(٧١) سورة الشعراء، الآية (١٢٣ - ١٣٥).

(٧٢) سورة هود، الآية (٥٢).

(٧٣) سورة فصلت، الآية (١٥).

(٧٤) سورة فصلت، الآية (١٤).

(٧٥) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(٦٦).

(٧٦) سورة الأعراف، الآية (٧١).

(٧٧) سورة المؤمنون، الآية (٤١).

(٧٨) سورة الذاريات، الآية (٤١-٤٢).

(٧٩) سورة الذاريات، الآية (٤١).

(٨٠) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص(٢٠٠).

(٨١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٦، ص(٤١٧).

(٨٢) سورة القمر، الآية (١٩-٢١).

(٨٣) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، ج (٢٢)، ص(٥٢٩).

(٨٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٢٧، ص٧٢.

(٨٥) سورة الأحقاف، الآية (٢٤).

(٨٦) سورة الأحقاف، الآية (٢٤-٢٥).

(٨٧) سورة الأحقاف، الآية (٢٢).

(٨٨) سورة الأحقاف، الآية (٢٤).

(٨٩) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(٨٢-٨٣).

(٩٠) سورة القمر، الآية (١٩-٢٠).

(٩١) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، ص(٥٢٩).

(٩٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج(٢٧)، ص(٧٢).

(٩٣) سورة الحاقة، الآية (٧).

(٩٤) سورة القمر، الآية (٢٠).

(٩٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج(٢٧)، ص(٧٣).

(٩٦) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، ص٥٢٩.

(٩٧) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(٨٤-٨٥).

(٩٨) سورة هود، الآية (٥٨).

(٩٩) سورة الأعراف، الآية (٥٨).

(١٠٠) سورة فصلت، الآية (١٦).

(١٠١) سورة القمر، الآية (١٩).

(١٠٢) سورة الحجر، الآية (٢٢).

(١٠٣) سورة الأعراف، الآية (٥٧).

(١٠٤) السامرائي، د. فاضل السامرائي، الفرق بين كلمة (الريح) و(الرياح) في القرآن، albayanal) quarany.com)

(١٠٥) سورة القمر، الآية (٢٠).

(١٠٦) الروندي، قطب الدين بن هبة، قصص الأنبياء، دار الهادي، قم، ط١، (١٣٧٦-١٤١٨)ش، ص(١٠٠).

(١٠٧) الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ج٤، ص(٢٩٣).

(١٠٨) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج١، ص(١٣٠).

(١٠٩) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص(١٦٣).

(١١٠) سورة الشعراء، الآية (١٤٧-١٤٨).

(١١١) (قصة النبي صالح عليه السلام وناقته) (forums.alkafeel.net).

(١١٢) الزين، سميح عاطف، قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث، الدار الأفريقية العربية، لبنان، بيروت، ١٩٩٧م، ط٤، ج٢، ص(٦٣).

(١١٣) سورة الفجر، الآية (٩).

(١١٤) (قصة النبي صالح عليه السلام وناقته)، (forums.alkafeel.net).

(١١٥) سورة الأعراف، الآية (٧٣).

(١١٦) الزين، سميح عاطف، قصص الأنبياء في القرآن الكريم المختار من مجمع البيان الحديث، ج٢، ص(٦٣-٦٥).

(١١٧) المصدر نفسه، ج٢، ص(٦٦).

(١١٨) سورة هود، الآية (٦٤).

(١١٩) الطوسي، محمد بن الحسن بن علي بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، مكتب الإعلام الإسلامي، (١٤٠٩رمضان الكريم)، ط١، ج٦، ص(١٩).

(١٢٠) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١١٠-١١١).

(١٢١) الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ج٤، ص(٢٩٤).

(١٢٢) المصدر نفسه، ج٤، ص(٢٩٢).

(١٢٣) سورة هود، الآية (٦٥).

(١٢٤) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١١٥).

(١٢٥) سورة الأعراف، الآية (٧٧).

(١٢٦) سورة النمل، الآية (٤٨).

(١٢٧) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١١٦-١١٨).

(١٢٨) سورة الذاريات، الآية (٤٤).

(١٢٩) سورة الأعراف، الآية (٧٧).

(١٣٠) الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن، مجمع البيان، ج٤، ص(٢٩٣).

(١٣١) سورة الأعراف، الآية (٧٨).

(١٣٢) سورة هود، الآية (٦٧).

(١٣٣) سورة الذاريات، الآية (٤٤).

(١٣٤) سورة الحاقة، الآية (٥).

(١٣٥) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٢١).

(١٣٦) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج (٦)، ص(٢٢).

(١٣٧) سورة الذاريات، الآية (٤٤-٤٥).

(١٣٨) الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، مفاتيح الغيب- التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ ط٣، ج١، ص(٢١).

(١٣٩) سورة القمر، الآية (٣١).

(١٤٠) الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ج٣٠، ص(٦٢١).

(١٤١) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج (٦)، ص(١٢).

(١٤٢) الرواندي، قطب الدين بن هبة، قصص الأنبياء، ص(١٠٢).

(١٤٣) سورة القمر، الآية (٦٦).

(١٤٤) سورة فصلت، الآية (١٨).

(١٤٥) سورة النمل، الآية (٥٣).

(١٤٦) سورة الأعراف، الآية (٦٩).

(١٤٧) الكمالي، محمد، (لوط نبي أكثر الناس فجورا)، (www.albayan.ae).

(١٤٨) (قصة نبي الله لوط)، (www.almarsal.com).

(١٤٩) الكمالي، محمد، (لوط نبي أكثر الناس فجورا)، (www.albayan.ae).

(١٥٠) الجزائري، السيد نعمة الله بن عبد الله بن محمد، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ط١، (١٣٩).

(١٥١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص(٣٤٣).

(١٥٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م، ط١، ج(١)، ص(٣٧).

(١٥٣) قصة نبي الله لوط عليه السلام، (forums.alkfeel.net).

(١٥٤) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص(٣٣٣).

(١٥٥) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٣١).

(١٥٦) سورة الشعراء، الآية (١٦٥).

(١٥٧) سورة النمل، الآية (٥٤-٥٥).

(١٥٨) أي الرمي بالحصى الصغيرة بأطراف الأصابع.

(١٥٩) الرواندي، قطب الدين بن هبة، قصص الأنبياء، ص(١٣٨).

(١٦٠) قصة نبي الله لوط عليه السلام، (forums.alkfeel.net).

(١٦١) الروانـدي، قطـب الـدين بـن هبـة، قصـص الأنبياء، ص(١٢٠).

(١٦٢) (قصة نبي الله لوط)، (www.almarsal.com).

(١٦٣) سورة الأعراف، الآية (٨٠).

(١٦٤) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٣١).

(١٦٥) الروانـدي، قطـب الـدين بـن هبـة، قصـص الأنبياء، ص(١٢١).

(١٦٦) سورة النمل، الآية (٥٦).

(١٦٧) سورة القمر، الآية (٣٦).

(١٦٨) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص(٨٤).

(١٦٩) سورة العنكبوت، الآية (٢٩).

(١٧٠) سورة العنكبوت، الآية (٣٠).

(١٧١) أيـــوب، ســـعيد، الانحرافـــات الكبـــرى، ص(١٣٦).

(١٧٢) سورة الذاريات، الآية (٢٤-٢٨).

(١٧٣) سورة هود، الآية (٧٧).

(١٧٤) قصة نبي الله لوط عليه السلام (forums.alkfeel.net).

(١٧٥) سورة هود، الآية (٧٨).

(١٧٦) سورة هود، الآية (٧٩).

(١٧٧) سورة هود، الآية (٨٠).

(١٧٨) أيـــوب، ســـعيد، الانحرافـــات الكبـــرى، ص(١٤٣-١٤٦).

(١٧٩) سورة هود، الآية (٨١).

(١٨٠) سورة القمر، الآية (٣٧).

(١٨١) الجزائري، السيد نعمة الله بن عبد الله بـن محمـد، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ص(١٤٢).

(١٨٢) (قصة نبي الله لوط) (www.almarsal.com).

(١٨٣) سورة الحجر، الآية (٧٣).

(١٨٤) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٥٠).

(١٨٥) سورة هود، الآية (٨٢-٨٣).

(١٨٦) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بـن عمر، قصص الأنبياء، دار الطباعة والنشـر الإسـلامي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٧م، ط٥، ص(٢٥٢-٢٥٣).

(١٨٧) سورة الحجر، الآية (٧٤).

(١٨٨) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بـن عمر، قصص الأنبياء، ص(٢٥٤).

(١٨٩) سورة الحجر، الآية (٧٣ -٧٤).

(١٩٠) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٥١-١٥٢).

(١٩١) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بـن عمر، قصص الأنبياء، ص(٢٦٣).

(١٩٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص(٣٣٦).

(١٩٣) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٦١).

(١٩٤) الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص(٣٤٩).

(١٩٥) شعيب عليه السلام، (ar.wikipedia.org).

(١٩٦) الجزائري، السيد نعمة الله بن عبد الله بن محمد، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ص(٢١٢).

(١٩٧) سورة الأعراف، الآية (٨٥).

(١٩٨) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٥٩).

(١٩٩) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، قصص الأنبياء، ص(٢٦٤).

(٢٠٠) سورة الأعراف، الآية (٥٦).

(٢٠١) سورة الأعراف، الآية (٨٦).

(٢٠٢) سورة الأعراف، الآية (٨٧).

(٢٠٣) سورة الأعراف، الآية (٨٨).

(٢٠٤) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٨٠).

(٢٠٥) سورة الشعراء، الآية (١٧٦-١٧٨).

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص(١٧٩).

(٢٠٧) المصدر نفسه، ص(١٦٠).

(٢٠٨) الجزائري، السيد نعمة الله بن عبد الله بن محمد، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ص(١٦٠).

(٢٠٩) سورة الأعراف، الآية (٨٥).

(٢١٠) سورة الشعراء، الآية (١٧٦-١٧٨).

(٢١١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج (١٠)، ص(٣٤٩).

(٢١٢) سورة هود، الآية (٨٥-٨٦).

(٢١٣) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، قصص الأنبياء، ص(٢٦٦).

(٢١٤) سورة هود، الآية (٨٤).

(٢١٥) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج (١٠)، ص(٣٥٠).

(٢١٦) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٦٦-١٦٧).

(٢١٧) سورة الشعراء، الآية (١٨٥-١٨٦).

(٢١٨) سورة الأعراف، الآية (٨٨).

(٢١٩) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج (١٢)، ص(٣٦٦).

(٢٢٠) سورة الأعراف، الآية (٨٩).

(٢٢١) سورة هود، الآية (٩١).

(٢٢٢) شعيب عليه السلام (www.islamyuiaden.com).

(٢٢٣) سورة الشعراء، الآية (١٨٧).

(٢٢٤) أيـــوب، ســـعيد، الانحرافـــات الكبـــرى، ص(١٧١-١٨١).

(٢٢٥) سورة الشعراء، الآية (١٨٨).

(٢٢٦) سورة الأعراف، الآية (٩١).

(٢٢٧) أيـــوب، ســـعيد، الانحرافـــات الكبـــرى، ص(١٧٧-١٧٨).

(٢٢٨) سورة الشعراء، الآية (١٨٩).

(٢٢٩) أيوب، سعيد، الانحرافات الكبرى، ص(١٨٢).

(٢٣٠) سورة الإسراء، الآية (٩٢-٩٠).

(٢٣١) الجزائـري، السـيد نعمـة الله بـن عبـد الله بـن محمد، النور المبين في قصـص الأنبيـاء والمرسـلين، ص(٢١٢).

(٢٣٢) سورة هود، الآية (٩٤).

(٢٣٣) سورة الشعراء، الآية (١٨٩).

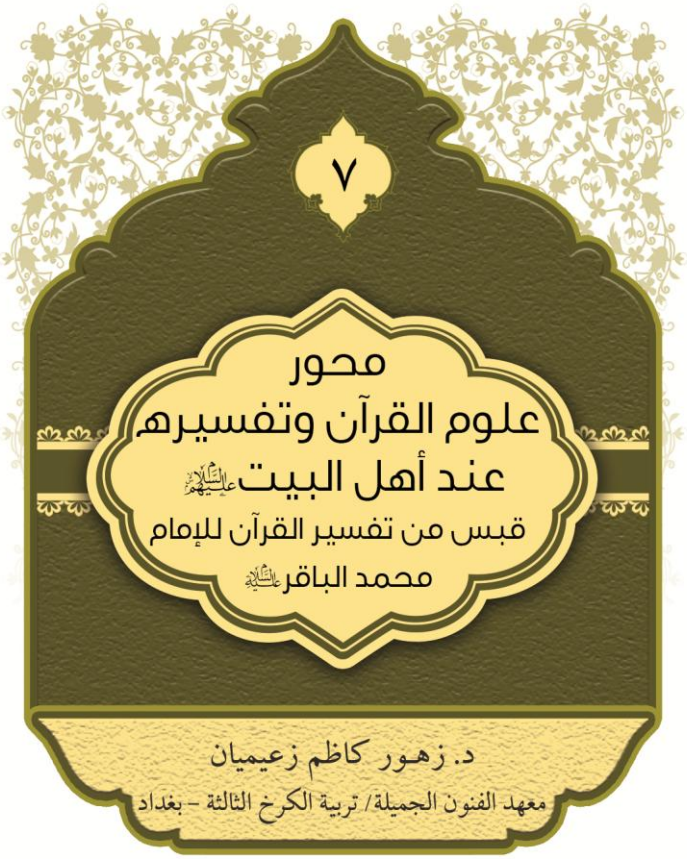

د. زهور كاظم زعيميان
معهد الفنون الجميلة/ تربية الكرخ الثالثة - بغداد

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

محمد الباقر عليه السلام: هو أبو جعفر محمد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، الملقب الباقر، الإمام الخامس للشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية، وهو والد الإمام جعفر الصادق عليه السلام[1].

ولد الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام يوم الاثنين في الثالث من صفر، أو غرّة رجب سنة ٥٦هـ بالمدينة المنوّرة، وكان حاضراً في واقعة الطفّ مع جدّه الحسين عليه السلام وعمره أربع سنوات، واستشهد يوم الاثنين السابع من ذي الحجّة، سنة ١١٤هـ، وقيل ١١٨هـ وهو ابن ستّ وخمسين سنة. ودفن في المدينة المنوّرة في البقيع[2]. أمّه: فاطمة بنت الإمام الحسن بن علي عليه السلام[3]، فهو هاشمي من هاشميين، علوي من علويين[4].

ومعنى الباقر أي الذي شق العلم؛ قال القرطبي (ت٦٧١هـ) في تفسير معنى البقرة: «وقيل: البقرة واحد البقر، الأنثى والذكر سواء. وأصله من قولك: بقَرَ بطنه، أي شقه، فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره، ومنه الباقر لأبي جعفر محمد بن علي زين العابدين؛ لأنه بَقَر العلم وعرف أصله، أي شقّه»[5]. حتى قال عنه ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) (الذي لم ينصف أهل البيت عليهم السلام): أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين، وقيل: إنما سُمي (الباقر) لأنه بقر العلم[6]. وهو لقب أطلقه عليه جده المصطفى صلى الله عليه وآله، فعن جابر بن عبدالله الأنصاري أنّه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله «يوشك أن تبقى حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقال له: محمد يبقر علم الدين بقراً، فإذا لقيته فأقرئه منّي السلام»[7].

وللإمام الباقر عليه السلام إسهامات كبيرة في تدوين الحديث النبوي الشريف، ونشره بين الخاصة والعامة، وذلك لما للحديث من أهمية قصوى في بيان معالم الدين وأحكامه، فهو المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، وسوف يركز هذا البحث المتواضع على أحاديثه عليه السلام في تفسير القرآن الكريم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[٨].

وأكد ذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله قول الله عز وجل»[٩].

وقد روى جابر بن يزيد الجعفي سبعين ألف حديث عن الباقر عليه السلام عن آبائه كلها عن النبي صلى الله عليه وآله من طريق أهل البيت. وكان المانع له عن التحدث بها أنها لا تتحملها بعض العقول الضعيفة فيكذب فيها ويسري التكذيب إلى أغلب الناس[١٠].

وألّف الإمام الباقر عليه السلام كتاباً في تفسير القرآن الكريم نص عليه ابن النديم في (الفهرست) عند عرضه للكتب المؤلّفة في تفسير القرآن الكريم حيث قال: «كتاب الباقر محمّد بن علي بن الحسين رواه عنه أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية»[١١]. وهو أول كتاب ذكره في التفسير وهو لم يصل إلينا.

وتفسير القرآن لا يناله إلا الراسخون في العلم وهم أهل البيت عليهم السلام، قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه»[١٢]. وأهل البيت عليهم السلام هم حبل الله الممدود الذين يرتبط تفسير القرآن الكريم بهم، قال

الإمام الباقر عليه السلام: «إنما يعرف القرآن من خوطب به»[١٣]، يريد بذلك أن القرآن نزل في أهل البيت عليهم السلام وهم فقط القادرون على فهمه وإدراك معانيه[١٤].

ولا يفوتنا أن نذكر أن أهل البيت عليهم السلام يرون أن القرآن الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله واحد، بمعنى أنهم يرون أن القراءات ليست من القرآن الكريم وإنما هي سنة[١٥]، فقد نقل زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إن القرآن واحد نزل من عند الواحد، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة»[١٦].

وهو رد ذكره الطبري (ت ٣١٠هـ) لمخالفيه ممن زعم بأن الكلمة الواحدة نزلت على سبعة قراءات وهو ما لا يتقبله العقل، فقد كان كلام الطبري واضحا ببطلان من زعم بأن القراءات المختلفة في الكلمة الواحدة مما علمه رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد ذكر الطبري القول بأن القراءات تعني اللغات على أنه رأي لمخالفيه ثم حاول بأن يجد لنفسه مخرجاً بأن يطرح أسئلتهم ويرد عليها قائلا: «فإن قال: ففي أي كتاب الله نجد حرفاً واحداً مقروءا بلغات سبع مختلفات الألفاظ، متفقات المعنى، فنسلم صحة ما ادّعيت من التأويل في ذلك؟ قيل: إنّا لم ندّع أن ذلك موجود اليوم»[١٧]، وقال أيضاً: «وكيف يجوز أن يكون هنالك اختلافٌ بين القوم، والمعلم واحد، والعلم واحد غير ذي أوجه؟ وفي صحة الخبر عن الذين رُوي عنهم الاختلافُ في حروف القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بأنهم اختلفوا وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك، على ما تقدم وَصْفُنَاهُ أبينُ الدلالة على فساد القول بأن الأحرف السبعة إنما هي أحرف سبعة متفرقة في سور القرآن، لا أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة باتفاق المعاني»[١٨]. وبهذا يكون زعمهم موجبا بالدلالة على أن

الأمة أهملت ست حروف هي من القرآن الكريم، وقد ذكر الطبري في ذات الموضع من الحوار بأن من كفر بحرف من القرآن فقد كفر بالقرآن كله. ونقل قول النبيﷺ: كان الكتاب الأول نزل على حرف واحد، ونزل القرآن على سبعة أحرف[١٩].

أحاديث الإمام الباقرعليه السلام في تفسير القرآن:

قوله في البسملة:

ونستهل بما استهل به الله تعالى كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقد اختلف العلماء في أنها آية أو ليست بآية في كل سورة، أو آية في سورة الفاتحة وحدها، واتفقوا على أنها آية في سورة النمل[٢٠].

أما الشيعة فقد أجمعوا على أنها آية في كل سورة، ونقلوا عن الإمام الباقرعليه السلام «سرقوا أكرم آية في كتاب الله بسم الله الرحمن الرحيم»[٢١]. بل إن الصلاة تبطل بدونها[٢٢]. وروي عن الصادقعليه السلام أنه قال: «ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم»[٢٣].

أما عن اسم الله فقد سأل أحدهم الإمام الباقرعليه السلام: «جعلت فداك نعبد الرحمن الرحيم الواحد الأحد الصمد، قال فقال: إن من عبد الاسم دون المسمى بالأسماء أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئاً بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمى بهذه الأسماء دون الأسماء؛ لأن الأسماء صفات وصف بها نفسه»[٢٤].

المبحث الأول:

آيات في أهل البيتعليهم السلام:

مَن هم الذين يعلمون في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(الزمر/٩)؟ قال الإمام الباقرعليه السلام: «نحن الذين يعلمون

وعدونا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب»[٢٥]. وقال عليه السلام: «العلم علمان: فعلم من عند الله مخزون لم يُطلِع عليه أحداً من خلقه، وعلم علمه ملائكته ورسله، فإنه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته، وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء»[٢٦]. وكان عليه السلام يقول: «نحن خزنة علم الله، ونحن ولاة أمر الله، وبنا فتح الله الإسلام، وبنا يختمه، فمنا يتعلّمون، فوالله الذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ما علم الله في أحد إلّا فينا، وما يدرك ما عند الله إلّا بنا»[٢٧].

وهو ما تؤكده الأحاديث الواردة عنه بأن أهل البيت عليهم السلام هم الذين يعلمون وأن حديثهم صعب، يقاربون فيه علم الملائكة والأنبياء، فقد روى عنه معروف بن خربوذ قال: سمعته يقول: «إنّ حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب، أو نبيّ مرسلٌ، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان»[٢٨].

وهم خزّان الله في الأرض وفي السماء، روى سورة بن كليب الأسدي عنه قال: «والله إنّا لخزّان الله في سمائه وفي أرضه، لا على ذهب ولا فضّة إلّا على علمه»[٢٩].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ (الأعراف/١٧٠)، قال الإمام الباقر عليه السلام: «الذين يمسكون كتاب نزلت في آل محمد صلى الله عليه وآله وأشياعهم»[٣٠]. فقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾ (فاطر/٣٢)، فقال عليه السلام: «الظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام، والمقتصد العارف للإمام، والسابق بالخيرات الإمام»[٣١]. وجاء ذلك في تفسير القرطبي فقال: «و(الكتاب) هاهنا يريد

به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمدﷺ القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة، فكأنه ورث أمة محمدعليه السلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا»[٣٢]. فأهل البيت ورثة علم الكتاب الذين اصطفاهم الله تعالى، وذلك الفضل لهم كبير من عند الله.

ورجح الطبرسي (ت٥٤٨هـ) القول بما نقله عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قائلاً: «والمروي عن الباقر والصادقعليهما السلام أنهما قالا: هي لنا خاصة وإيانا عنى، وهذا أقرب الأقوال؛ لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء وإيراث علم الأنبياء؛ إذ هم المتعبدون بحفظ القرآن وبيان حقائقه والعارفون بجلائله ودقائقه»[٣٣].

وقالعليه السلام: «إن الأئمة بعد رسول اللهﷺ بعدد نقباء بني إسرائيل وكانوا اثني عشر، الفائز من والاهم والهالك من عاداهم»[٣٤].

وفي قول الله عز وجل: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾(النحل/٤٣)، ورد عن أبي جعفر الباقرعليه السلام أنه قال: «نحن أهل الذكر»[٣٥]. ويفسرعليه السلام معنى (أولي الأمر) في قوله تعالى من سورة النساء بأنها تخص أهل البيتعليهم السلام فعن بريدة العجلي قال: سألت أبا جعفر عن قوله عز وجل: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾(النساء/٥٩)، فكان جوابه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾(النساء/٥١)، فأولي الأمر بحسب تفسير أبي جعفر الباقرعليه السلام: هم الأئمة المعصومون[٣٦].

وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾(التوبة/١١٩)، قال الإمام الباقرعليه السلام: «إيانا عنى»[٣٧]. وقالعليه السلام:

«إن الصادقين هاهنا هم الأئمة الطاهرون من آل محمد أجمعين»[٣٨].

وفسّر عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾(طه/٨٢)، فقال: «ثم اهتدى، أي: اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت، وقال: فوالله لو أن رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام، ولم يجيء بولايتنا إلا أكبه الله في النار على وجهه»[٣٩].

ويفسر الإمام الباقر عليه السلام قول الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾(إبراهيم/٣٧)، وهو ينظر إلى الحجيج، وهم يطوفون حول الكعبة المشرفة، فيقول: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية، إنما أمروا أن يطوفوا بها، ثم ينظروا إلينا، فيعلمونا ولايتهم ومودتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم»[٤٠].

كما ذكر فرات الكوفي تفسير الإمام الباقر عليه السلام لهذه الآية ناقلا قوله: «أما إنه لم يعن الناس كلهم، فأنتم أولياؤه ونظراؤكم، وإنّما مثلكم في الناس مثل الشعرة السوداء في الثور الأبيض ومثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود»[٤١].

ويشرح الإمام الباقر عليه السلام ضلال الناس، إذا لم يهتدوا بأئمة أهل البيت بقوله: «من عبد الله عبادة اهتمام وتعب، ولم يعتقد بإمام عادل، وأنه منصوب من الله، فلا يقبل الله منه سعيا، ومثله كمثل نعجة فقدت راعيها وقطيعها، فظلت حائرة نهارها، فلما جن الليل ظنت أنها وجدت راعيها وقطيعها لتلحق بهم، فلما أصبح الصباح رأت الراعي غير راعيها، فعادت إلى حيرتها تبحث، ثم رأت قطيعا آخر، فأرادت أن تلحق به، ودعاها راعي ذلك القطيع، وقد رأى أنها ضالة، ولما وجدت أنه غير راعيها عادت إلى حيرتها، حتى لقيها الذئب فافترسها، ذلك هو حال من أصبح لا إمام له، حتى إذا مات، مات ميتة جاهلية»[٤٢].

أما المحسودون في قوله تعالى: ﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا، أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فقال الإمام الباقر عليه السلام: «ونحن الناس المحسودون على ما أتانا الله من الإمامة دون خلقه». وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(النساء/٥٤)، يقول: جعلنا منهم الرسل والأنبياء والأئمة فكيف يقرون به في آل إبراهيم، وينكرونه في آل محمد ﴿فمنهم من آمن به، ومنهم من صد عنه، وكفى بجهنم سعيرا﴾[٤٣].

وفي تفسيره لسورة الفتح في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(الفتح/٢٩) فـ(رحماء) تعني الذين بينهم صلة رحم بقوله: «المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق المؤمن من طينة جنان السموات وأجرى فيهم من روح رحمته لهذا فهو أخوه لأبيه وأمه»[٤٤].

وقال الإمام الباقر عليه السلام لشيعته: «إنا لا نغني عنكم من الله شيئا، إلا بالورع، وإن ولايتنا لا تدرك إلا بالعمل، وإن أشد الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلا، وأتى جورا»[٤٥].

أما عن حبل الله في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عمران/١٠٣)، قال الباقر عليه السلام: «آل محمد هم حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به»[٤٦].

وروى سدير الصيرفي عنه عليه السلام أنّه قال عليه السلام: «إنّما كلف الله سبحانه الناس معرفة الأئمّة والتسليم لهم في ما أوردوا عليهم، والردّ إليهم فيما اختلفوا فيه»[٤٧]. وقال عليه السلام: «من ثبت على

ولايتنا في غيبة قائمنا، أعطاه الله عزوجل أجر ألف شهيد من شهداء بدر وحنين»[٤٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف/١٢٨)، قال الإمام الباقر عليه السلام: «وجدنا في كتاب علي عليه السلام بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وأنا وأهل بيتي الذين أورثنا الأرض ونحن المتقون»[٤٩].

أما مَن هم أهل الذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(الأنبياء/٧)؟ فقد قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن كنتم لا تعلمون من المعنون بذلك؟ قال: نحن»[٥٠].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾(المؤمنون/ ٧٤)، قال: عن ولايتنا[٥١]. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المؤمنون/٧٣)، قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إلى ولاية أمير المؤمنين»[٥٢].

وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾(الأنبياء/١٢)، فقال عليه السلام: «ذلك عند قيام القائم»[٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾(الليل/١)، قال الإمام الباقر عليه السلام: «النهار هو القائم منا أهل البيت إذا قام غلب دولة الباطل»[٥٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(الأنبياء/٧٢)، قال الإمام الباقر عليه السلام: «يعني الأئمة من ولد فاطمة عليها السلام يوحى إليهم بالروح في صدورهم، ثم ذكر ما أكرمهم الله به فقال: فعل الخيرات»[٥٥].

وفي تفسيره لمعنى (علامات) في قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل/١٦)، قال عليه السلام: النجم محمد والعلامات الأوصياء عليهم السلام[٥٦].

أما الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾(الأعراف/٤٦)، قال الباقر عليه السلام: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبب معرفتنا ونحن الأعراف الذين لا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه»[٥٧].

وتحدث عما لقي آل محمد وشيعتهم من أذى وظلم، فقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة أن الإمام أبا جعفر محمدا الباقر عليه السلام قال: «يا فلان، لقد لقينا من ظلم قريش إيانا، وتظاهرهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبونا من الناس ما لقينا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وقد أخبرنا: أنا أولى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش، حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجت على الأنصار بحقنا وحجتنا، ثم تداولتها قريش واحدا بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كئود، حتى قتل»[٥٨].

أما (الذين أخرجوا من ديارهم) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج/٤٠)، فقد قال الإمام الباقر عليه السلام: «نزلت في المهاجرين وجرت في آل محمد عليهم السلام الذين أخرجوا من ديارهم وأخيفوا»[٥٩]. وعنه أيضاً أنها نزلت في رسول الله وعلي وجعفر وحمزة وجرت

في الحسين عليه السلام أجمعين»[٦٠].

واستدل الإمام الباقر عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(البقرة/٢٥٣)، على أن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قد اختلفوا من بعده فمنهم من آمن ومنهم من كفر[٦١].

المبحث الثاني:

تفسيره لآياتٍ في فضل علي عليه السلام:

وفي حديث أهل البيت عن الباقر عليه السلام: «عليّ هو الصراط المستقيم» في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الحمد/٦)[٦٢].

وفي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(المائدة/٦٧)، قال: يعني بذلك تبليغ ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وآله في فضل علي، وقد روى عليه السلام أن الله عز وجل أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً فكان يخاف أن يشق على جماعة من أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه[٦٣]. وقد جاء في التفسير أن التبليغ يخص ولاية أمير المؤمنين، فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية في ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام[٦٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾(الجن/١٦)، قال عليه السلام: «يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من ولده، وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماءً غدقاً يعني أشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة: هي الإيمان بولاية علي والأوصياء»[٦٥].

وكذلك عن أبي جعفر عليه السلام في قول

الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(النساء/٥٩)، قال: نزلت في علي عليه السلام[٦٦]. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(الرعد/٧)، قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسيرها: المنذر رسول الله صلى الله عليه وآله والهادي علي عليه السلام، ثم قال: والله ما زالت فينا إلى الساعة[٦٧]، وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا المنذر وعليٌّ الهادي من بعدي يا علي بك يهتدي المهتدون»[٦٨]. وعن أبي بردة الأسلمي قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بالطهور وعنده علي بن أبي طالب، فأخذ رسول الله بيد علي بعد ما تطهر فألزمها بصدره ثم قال: «إنما أنت منذر»، ثم ردَّها إلى صدر علي ثم قال: «ولكل قوم هاد»، ثم قال: إنك منارة الأنام وغاية الهدى وأمير القرى، وأشهد على ذلك أنك كذلك»[٦٩].

وأما (خير أمة أخرجت للناس) في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران/١١٠)، فقراءة الإمام الباقر عليه السلام: «أنتم خير أمة أخرجت للناس، بالألف، نزل بها جبريل وما عنى بها إلا محمداً وعليا والأوصياء من ولده عليهم السلام»[٧٠].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾(النحل/٩٠)، قال عليه السلام: «العدل رسول الله صلى الله عليه وآله والإحسان علي وإيتاء ذي القربى فاطمة»[٧١]. وفي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة/١٤٣) جاء عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ...﴾ قال: «منا شهيد على كل زمان: علي بن أبي طالب في زمانه والحسن في زمانه والحسين في زمانه، وكل من يدعو منا إلى أمر الله

تعالى»[٧٢]. وأما قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(البقرة/٢٥٦)، فقد بيّن الإمام الباقر عليه السلام معنى العروة الوثقى بأنها (مودة أهل البيت)[٧٣].

وروى موفق بن أحمد[٧٤]، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «أنت العروة الوثقى»[٧٥]. والعروة: عروة الدلو ونحوه؛ لأنها متعلقة، وعروت الرجل أعروه عروا إذا ألممت به متعلقاً بسبب منه، واعتراه همّ إذا تعلق به، والأصل في الباب التعلق والعروة لغة كل نبات له أصل ثابت[٧٦]، وقد شبه الله تعالى محمدا والذين معه ممن له صلة رحم من أهل البيت عليهم السلام بالزرع وفرعه، وهو ما ذكرناه تفصيلا في بحثنا عن الإمام الحسين عليه السلام في الإنجيل[٧٧]. وقال الإمام الباقر عندما سئل عن هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ...﴾، فبين أنه «مثل أجراه الله في شيعتنا كما يجري لهم في الأصلاب ثم يزرعهم في الأرحام ويخرجهم للغاية التي أخذ عليهم ميثاقهم... فمنهم أتقياء شهداء، ومنهم الممتحنة قلوبهم، ومنهم العلماء... ومنهم أهل التسليم، فازوا بهذه الأشياء سبقت لهم من الله... وجرت للناس بعدهم في المواثيق... حد المستضعفين وحد المرجون لأمر الله، وحد عسى أن يتوب عليهم، وحد لابثين فيها أحقاباً... فمن ألهمه الله الخير... بلغ منه غايته التي أخذ عليها ميثاقه»[٧٨].

وقد اختلفت التفاسير في تأويل (العروة الوثقى)، فقالوا: «لا إله إلا الله، القرآن، الإيمان، الإسلام»[٧٩]، وأجازوا أن تدل على شخص فقال الشوكاني: «أبو بكر وعمر»[٨٠]. وهو ما لا يكون مع قوله تعالى: ﴿لا انفصام له﴾ التي تعني (لا انقطاع لها، وحبل الله

الممدود)[٨١]، قال الزمخشري: «الوثقى: من الحبل الوثيق المحكم، المأمون انفصامها، أي: انقطاعها»[٨٢]، فحبل الله الممدود حدد في حديث الحبلين بقوله صلى الله عليه وآله: «أيها الناس إني قد تركت فيكم حبلين، إن اتخذتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[٨٣].

وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): «العروة الوثقى لمن استقام على الصراط المستقيم»[٨٤].

المبحث الثالث:

آيات متفرقات:

في التفاسير من الإسرائيليات ما جعل المفسرين يقولون بأن الذين ركبوا مع النبي نوح عليه السلام في السفينة ليس سواه وأولاده الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم، وهو مأخوذ من سفر التكوين من الكتاب المقدس[٨٥]،

أما روايات أهل البيت عليهم السلام فهي مختلفة، ومنها ما روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**﴾(الصافات/٧٧)، يقول: الحق والنبوة والكتاب والإيمان في عقبه وليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح، قال عز وجل في كتابه: ﴿**قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾(هود/٤٠)، و﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾(الإسراء/٣)، و﴿**وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**﴾(الصافات/٨٣).

وسئل الإمام الباقر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾(البقرة/٨٣)، فقال: «إن الله تعالى يبغض اللعان السباب، الطعان الفحاش، المتفحش، السائل الملحف، ويحب الحيي الحليم، العفيف المتعفف»[٨٦].

وفرق بين الموت والقتل قائلاً في

تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾(آل عمران/١٨٥)، بقوله: «لم يذق الموت من قتل، وقال: لابد من أن يرجع حتى يذوق الموت»(٨٧).

وسُئل عليه السلام عن (الرتق) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء/٣٠)، فقال عليه السلام: كانت السماء رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات، عن عكرمة وعطية وابن زيد وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام(٨٨).

وفي تفسيره لكلمة (وحيد) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾(المدثر/١١)، فقد نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي الذي اتهم النبي صلى الله عليه وآله بالسحر، وكان الوليد يسمى في قومه الوحيد، والآية سيقت على وجه التهديد له، وقد روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر أنه قال: الوحيد ولد الزنا، وقال زرارة ذُكر لأبي جعفر أن أحد بني هشام قال في خطبته: أنا ابن الوحيد، فقال: ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها!، فقلنا له: وما هو؟ قال: من لا يعرف له أب(٨٩)

وعن أبي الجارود قال: قال: أبو جعفر عليه السلام: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثم قال: أن النبي صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال، فقيل له: يابن رسول الله أين هذا من كتاب الله عز وجل؟ قال: قوله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(النساء/١١٤)، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(النساء/٥)، وقال: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ﴾(المائدة/١٠١).

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾(النساء/١٧٠)، قال أبو جعفر عليه السلام: «أي صدّقوه وصدّقوا ما جاءكم به من عند ربكم»[٩٠].

وفي تأويله لكلمة (سكارى) من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾(النساء/٤٣)، قال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً ولا متناعساً ولا متثاقلا، فإنها من خلل النفاق وإن الله نهى المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم»[٩١].

وفرق بين معنى مكة وبكة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾(آل عمران/٩٦)، فعن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إن بكة موضع البيت وإن مكة جميع ما اكتنه الحرم»[٩٢].

وقد ذكر ارتداد العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بتفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾(آل عمران/ ١٤٤)، فقال: «كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة وهم المقداد وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي»[٩٣].

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة الطيبة في أقوال الإمام الباقر عليه السلام في تفسير القرآن الكريم نوجز النتائج التي توصل البحث إليها بحسب المباحث:

قال الإمام الباقر عليه السلام وقوله الفصل في البسملة ووصفها بأنها أكرم آية وبطلان الصلاة بدونها، وأن ما جاء في القرآن الكريم عن أسماء الله هو تعبير عن صفاته.

نقل البحث أقوال الإمام الباقر في تفسيره لآيات الكريم التي جاءت بحق أهل البيت عليهم السلام فهم الذين يعلمون، وهم أولو الألباب، وخزنة علم الله، وهم ورثة الكتاب، وهم أهل الذكر، وهم الصادقون، المحسودون على إمامتهم، وهم الأشداء على الكفار الرحماء بينهم، وهم حبل الله، وورثة الأرض، وقائم آل محمد عجل الله فرجه الشريف هو النهار إذا تجلى، وهم العلامات، وهم الأعراف.

أما الآيات التي قال عنها الإمام الباقر عليه السلام بأنها نزلت بحق علي عليه السلام، وفيها تبين لنا أنه المقصود بالصراط المستقيم، وأنه المقصود بآية التبليغ، وأنه الاستقامة، وهو أولي الأمر وهو مع محمد وآله، والمقصود بخير أمة، والعروة الوثقى.

وفي تفسيره لآيات متفرقات اختلف تأويله عليه السلام عن بقية التفاسير والتي أخذت تفسيرها مما جاء في العهد القديم عن عدد الأشخاص الذين ركبوا سفينة النبي نوح عليه السلام.

وفرق بين القتل والموت، وبيّن معنى كانت السماء رتقا، ومعنى (وحيدا) في قوله تعالى: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيدا**﴾.

وبيّن معنى (سكارى) في القرآن الكريم التي نهى الله تعالى عنها في الصلاة، وفرق بين معنى مكة وبكة، وحدد أصحاب رسول الله الذين لم يرتدوا عن الإسلام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

١. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، قدم له: السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٤م.

٢. الاحتجاج عليه السلام على أهل اللجاج، أحمد بن علي الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، دار النعمان، النجف، ١٣٨٦هـ.

٣. الأربعون حديثاً، الإمام روح الله الموسوي الخميني (قدس سره)، محمد الغروي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.

٤. الإرشاد في معرفة حُجَج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعرف بالشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، ط١، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٩٩٥م.

٥. أصول الكافي، الشيخ الكليني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، طبع عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٦. إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم.

٧. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٨. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.

٩. البحر المحيط، لأثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الحياني الشهير بأبي حيان (ت٧٤٥هـ) وبهامشه النهر الماد من البحر وكتاب الدر اللقيط من البحر المحيط، ط٢.

١٠. البرهان في تفسير القرآن، العلامة المحدث المفسر السيد هاشم الحسيني البحراني (ت١١٠٧هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة إسماعيليان في قم.

١١. بصائر الدرجات، محمد بن حسن الصفار، انتشارات كتاب خانة آية الله مرعشي، قم، ١٤٠٤هـ.

١٢. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي

للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣م.

١٣. تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

١٤. تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم الكوفي، مطبعة الحيدرية، النجف.

١٥. تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، دار الكتب، قم، ١٤٠٤هـ.

١٦. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٧. تهذيب الأحكام (التهذيب)، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٤.

١٨. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، دار عليه السلام الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.

١٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠ هـ)، تحقيق: محمد محمود شاكر، دار المعارف، مصر.

٢٠. حلية الأولياء، أبو نعيم فضل بن الدكين (أحمد عبد الله أصفهاني)، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ

٢١. الدلالة القطعية والاحتمالية للقرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، د. زهور كاظم زعيميان، جامعة بغداد، ٢٠١٥م.

٢٢. روضة الواعظين، الشيخ محمد بن الفتال النيشابوري، مكتبة المعصومين الأربعة عشر، تحقيق: غلام محسن المجيدي - مجتبى الفرجي، ط١، منشورات دليل ما، ١٤٢٣هـ

٢٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، طهران، ١٨٨٦م.

٢٤. صحيح سنن الترمذي- ضعيف سنن الترمذي، الترمذي، الألباني (ت١٤٢٠هـ) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط١، مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ

٢٦. الصواعق المحرقة على أهل الرفض

والضلال والزندقة، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، طبعة مصر، ١٩٨٩م.

٢٧. عقيدة الشيعة (تاريخ الإسلام في العراق وإيران) أحمد صبحي، دونالدسون، القاهرة، ١٩٤٦م.

٢٨. الفصول المهمة في أصول الأئمة عليهم السلام، تكملة الوسائل، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي.

٢٩. المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، دار الكتب الإسلامية، قم.

٣٠. الفهرست، محمد بن إسحاق ابن النديم، طهران، ١٣٦٦.

٣١. الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، مؤسسة دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٤٨.

٣٢. كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الاثني عشر، لأبي القاسم علي بن محمد الخزّاز القمّي الرازي، حققه: العلم الحجة السيد عبد اللطيف الحسيني الكوه كمري الخوئي، انتشارات بيدار، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠١هـ.

٣٣. مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطَبرسي (ت٥٤٨هـ)، ط٢، دار المرتضى، بيروت، لبنان، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٣٤. المراجعات، السيد عبد الحسين شرف الدين (ت١٣٧٧هـ)، مؤسسة الوفاء.

٣٥. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٣١٩هـ

٣٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٣٧. المناقب، مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، محمد بن علي، قم، ١٣٩٧هـ.

٣٨. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي

الدين، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣٩. موطأ مالك، تحقيق: د. تقي الدين الندوي أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمارات العربية المتحدة، دار القلم، دمشق ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩١م.

٤٠. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - نشأة التشيع وتطوره، علي سامي النشار، الإسكندرية، ١٩٦٩م.

٤١. نور الثقلين، عبد علي بن جمعة عروسي حويزي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

٤٢. الإمام الحسين عليه السلام في الإنجيل، بحث د. زهور كاظم زعيميان، مؤتمر الإمام الحسين عليه السلام، مؤسسة شهيد المحراب، محافظة واسط، ٢٠١٧م.

٤٣. وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة، محمد بن حسن الحر العاملي، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط٥، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٩٩هـ

الهوامش:

(١) انظر: الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ٥٨٥/٢.

(٢) إعلام الورى، للطبرسي: ٤٩٩، وانظر: تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٤٨، وبحار الأنوار: المجلد ٢ ج: ١٥٣/١.

(٣) أصول الكافي: ج١/ باب مولد أبي جعفر محمّد بن علي: ٣٩٠.

(٤) نور الأبصار: ١٤٣، وعمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ٢٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٤٤٦/١، وينظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف: ٣٢٠/١.

(٦) منهاج السنة: ١٢٣/٢.

(٧) إعلام الورى: ٥٠٦.

(٨) صحيح الترمذي، رقم الحديث: ٣٧٨٦، وينظر: صحيح مسلم: (٤٤٢٥).

(٩) أصول الكافي، الشيخ الكليني :١/ ١٠٥، رقم ١٤.

(١٠) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين: ٢٠٣/١.

(١١) الفهرست: ٥٠.

(١٢) الكافي: ١/ ٢٢٩.

(١٣) فقيه أهل البصرة: ٨/ ٣١١.

(١٤) فقيه أهل البصرة: ٨/ ٣١١، وج ٦، ص ٢٥٦.

(١٥) انظر: مقدمة الدلالة القطعية والاحتمالية للقرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، د. زهور كاظم زعيميان،٢٠١٥: ص.

(١٦) الكافي: ٢/ ٦٣.

(١٧) تفسير الطبري: ١/ ٥٩.

(١٨) مقدمة جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري: ١/ ٥٧.

(١٩) مسند الإمام أحمد: مسألة ٤٢٤٠، وانظر: جامع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٧١.

(٢٠) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١/ ٨٩.

(٢١) تفسير العياشي: ١٩/١، وتفسير الصافي: ١/ ٥٢، وتفسير البرهان: ١/ ٤٢، ونور الثقلين: ٢٠/١.

(٢٢) مجمع البيان، الطبرسي: ٢١/١.

(٢٣) مجمع البيان، الطبرسي: ٢١/١.

(٢٤) الكافي: ١/ ٨٧، ونور الثقلين: ٥٨/١.

(٢٥) جامع البيان، الطبري: ٢١/ ٢٦٨، وأصول الكافي: ١ /٢١٢.

(٢٦) أصول الكافي: ١٤٧، ح ٦.

(٢٧) أصول الكافي: ١٤٧، ح ٦.

(٢٨) بصائر الدرجات: ٤/٤١، الكافي: ١/ ٣٣٠، روضة الواعظين: ٢١١، المناقب لابن شهر آشوب: ٢٠٦ /٤.

(٢٩) بصائر الدرجات: ١٢٣ / ١، الكافي: ١ / ١٤٨.

(٣٠) تفسير القمي: ١/ ٢٤٦، والمناقب: ٢٨٣/٤، ونور الثقلين: ٢/ ٥٢٨.

(٣١) أصول الكافي:١ /٢١٤.

(٣٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣١١/١٤.

(٣٣) مجمع البيان: ١٨٧/٨.

(٣٤) كفاية الأثر: ٢٤٥.

(٣٥) مجمع البيان، الطبرسي: ١٢١/٦.

(٣٦) مجمع البيان، الطبرسي: ١١٩/٣.

(٣٧) الكافي: ١/ ٢٠٨، والصافي: ١/ ٧٣٩، وتفسير البرهان: ٢/ ١٦٩، ونور الثقلين: ٣/ ١٨٥.

(٣٨) انظر: مجمع البيان: ٥، وتفسير البرهان: ٢/ ١٧٠.

(٣٩) مجمع البيان: ٧ /٣٣.

(٤٠) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - نشأة التشيع وتطوره: ج٢/ ١٣٧ ، الإسكندرية ١٩٦٩م.

(٤١) تفسير فرات الكوفي: ٢٢٣.

(٤٢) أحمد صبحي: ٣٥٩، دونالدسون، عقيدة الشيعة (تاريخ الإسلام في العراق وإيران)، القاهرة، ١٩٤٦م: ص ٣٣٤.

(٤٣) المراجعات: ٢٨، وانظر: سورة النساء: آية ٥١ -٥٤.

(٤٤) المحاسن: ١/ ١٣٤.

(٤٥) الكافي: ٥/ ٧٣ ، إرشاد المفيد: ٢/ ١٦١ ، تهذيب التهذيب: ٦ / ٣٢٥ / ٨٩٤

(٤٦) تفسير العياشي: ١/ ١٩٤، والبرهان: ١/ ٣٠٧.

(٤٧) الكافي: ١ / ٣٢١ / ١.

(٤٨) إثبات الهداة: ٣ /٤٦٧.

(٤٩) الكافي: ١/ ٤٠٧، وتفسير العياشي: ٢/ ٢٥، والبرهان: ٢/ ٢٩، ونور الثقلين: ٢/ ٤٨٩.

(٥٠) تفسير القمي: ٦٨/٢، وبصائر الدرجات: ١/ ٤٢، والبرهان: ٣/ ٥٢، ونور الثقلين: ٤/ ٤٥٣.

(٥١) المناقب: ٣/ ٧٣، والبرهان: ٣/ ١١٧.

(٥٢) تفسير القمي: ٢/ ٩٢، والصافي: ٢/ ١٤٥، ونور الثقلين: ٥/ ٩٥.

(٥٣) الكافي: ٨/ ٥١، ونور الثقلين: ٤/ ٤٥٤، والصافي: ٢/ ٨٦

(٥٤) تفسير القمي: ٢/ ٤٢٥، والصافي: ٢/ ٨٢٤، والبرهان: ٤/ ٤٧٠، ونور الثقلين: ٨/ ٢١٦.

(٥٥) البرهان: ٣/ ٦٦.

(٥٦) تفسير فرات الكوفي: ٢٣٤.

(٥٧) تفسير العياشي: ٢/ ١٩، والصافي: ١/ ٥٨٢، والبرهان: ١/ ٢١، ونور الثقلين: ٢/ ٤٦١.

(٥٨) انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤ / ٦٣ – ٧٤.

(٥٩) مجمع البيان الطبرسي: ١١٤/٧، وانظر: المناقب: ٢/ ١٢٦، والصافي: ٢/ ١٢٦، والبرهان: ٣/ ٩٤، ونور الثقلين: ٥/ ٤٢.

(٦٠) الكافي: ٨/ ٣٣٧، والصافي: ٢/ ١٢٦، والبرهان: ٣/ ٩٣، ونور الثقلين: ٥/ ٤١.

(٦١) تفسير العياشي: ١/ ٢٠٠، والكافي: ٨/ ٢٧٠، والبرهان: ١/ ٣١٩، ونور الثقلين: ١/ ٤٧٢.

(٦٢) الكافي: ١/ ٤١٦، ونور الثقلين: ١/ ٣٨.

(٦٣) مجمع البيان :٤ /٢٢٣.

(٦٤) مجمع البيان، الطبرسي: ٣/ ٣١٤، والاحتجاج على أهل اللجاج: ٥٨/١، ونور الثقلين: ٢/ ٢٦٧.

(٦٥) أصول الكافي: ١ /٢٢٠.

(٦٦) تفسير فرات الكوفي: ١١٠.

(٦٧) المراجعات: ٢٨.

(٦٨) مجمع البيان، الطبرسي: ١٢/٦.

(٦٩) مجمع البيان، الطبرسي: ١٢/٦.

(٧٠) المناقب: ٤/ ٢، ونور الثقلين: ١/ ٤٥٤.

(٧١) تفسير فرات الكوفي: ٢٣٦.

(٧٢) تفسير فرات الكوفي: ٦٢.

(٧٣) المناقب: ٤/٣، ونور الثقلين: ١/ ٣١٧.

(٧٤) أبو المؤيد الموفق بن أحمد الخوارزمي، ضياء الدين المكي، تلميذ الزمخشري، انظر: إنباه الرواة ٣٠٨. له عدة مصنفات منها: (مقتل الحسين عليه السلام)، و(مناقب أمير المؤمنين عليه السلام).

(٧٥) مناقب الخوارزمي: ٣٦، و ٦١ / ح ٣١. وانظر: معاني الأخبار: ٣٦٨ / ح ١. وأمالي الصدوق. ٢٦٤، وبحار المجلسي: ٣٦ / ح ٣، وأمالي الصدوق: ٩٢ / مجلس ١٠ / ح ٧، وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ١ / ٦٣/ ح ٢١٦.

(٧٦) مجمع البيان، الطبرسي: ٢/ ١٣٢.

(٧٧) الإمام الحسين عليه السلام في الإنجيل: بحث شاركنا به في مؤتمر مؤسسة شهيد المحراب في محافظة واسط عام ٢٠١٧.

(٧٨) تفسير فرات الكوفي: ٦٧٠، الحديث (٥٦٠).

(٧٩) انظر: فتح القدير للشوكاني: ١٧٨/١، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٥٨/٣.

(٨٠) انظر: فتح القدير للشوكاني: ١٧٨/١.

(٨١) انظر: جامع البيان ، للطبري: ٥/ ٤٢٢، وفتح القدير للشوكاني: ١٧٨/١، والكشاف، للزمخشري: ٤٨٧/١.

(٨٢) الكشاف، للزمخشري: ٤٨٧/١.

(٨٣) مجمع البيان: ٢/ ٤٨٢، وتفسير فرات الكوفي: ١٤.

(٨٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١/ ٦٨٤.

(٨٥) الكتاب المقدس/ سفر التكوين.

(٨٦) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٢١.

(٨٧) تفسير العياشي: ١/ ٢١٠، والصافي: ١/ ٣١٨، والبرهان: ١/ ٣٢٩.

(٨٨) مجمع البيان، الطبرسي: ٦٠/٧.

(٨٩) مجمع البيان: ١٠/ ١٧٣.

(٩٠) مجمع البيان: ٢٠٤/٣.

(٩١) تفسير العياشي: ٢٤٢/١، والبرهان: ٣٥٧/١، ومستدرك الوسائل: ٤/ ٩٠.

(٩٢) تفسير القرآن في حديث الإمام الباقر عليه السلام: ١١٢.

(٩٣) تفسير العياشي: ١/ ١٩٩، والكافي: ٨/ ٢٤٥، والبرهان: ١/ ٣١٩، ونور الثقلين: ١/ ٤٧١.

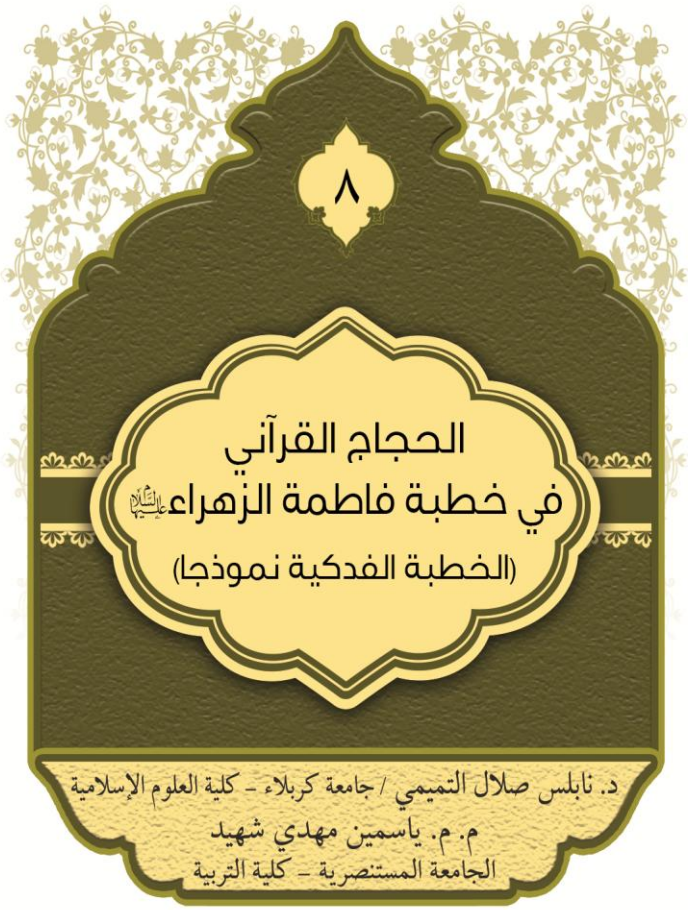

د. نابلس صلال التميمي / جامعة كربلاء - كلية العلوم الإسلامية
م. م. ياسمين مهدي شهيد
الجامعة المستنصرية - كلية التربية

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ على فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها، عدد ما أحاط به علمك وأحصاه كتابك برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين.

وبعد: وقفت اعتبارات عدة في اختيار هذا الموضوع، وبلورته جملة من الظروف ولعل أبرزها شغفي بعلم السيدة الزهراء، وحبي لشخصها ولا غرو أن تكون سيدة نساء العالمين بفضلها وعلمها عليها السلام.

ليس خافيا على أحد ما للسيدة الزهراء عليها السلام من فضل ومكانة لا يكاد ينافسها فيها أحد من نساء العالمين، وعليه فليس المقصود من البحث إبراز فضلها أو توضيحا لمكانتها؛ لأنها وبفضل الله ومنته ليست خافية على أحد بقدر ما هو إسهام حقيقي بنشره والتأكيد عليه، ليكون منهجا لكل نساء الأرض ولبث علمها وإشاعة فضلها عليها السلام.

جاء البحث مرتكزا على منهج نقدي حديث يتطلع الى إبراز علم السيدة الزهراء وجميل فضلها وصبرها وحكمتها في مواقف تنوعت موضوعاتها بين الاجتماعية والدينية متكئا على الآيات القرآنية في ذلك، ومتخذا من خطبتها الفدكية نموذجا في تطبيق الأسلوب الإقناعي الذي اتصفت به عليها السلام في الدفاع عن حقها في إرث أبيها صلى الله عليه وآله، ولما كان اغتصاب أرض فدك تجاوزا على الإسلام من قبل أعداء الإسلام، تلك الحادثة التي كررها التاريخ مرات عدة، إذ كان أبو بكر أول من صادر أرض فدك والعوالي من السيدة الزهراء، ثم بقيت في أيدي بني أمية بعد أن أعطاها عثمان بن عفان لمروان إلى زمن عمر بن عبد العزيز، إذ كان من أعماله منع سب الإمام علي عليه السلام على المنابر، وردِّ أرض فدك لأولاد السيدة الزهراء عليها السلام، ثم اغتصبها مرة

أخرى يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهكذا تعاقبت الحكومات على اغتصابها، وكان آخرها المتوكل العباسي ومنه بقيت أرض فدك والعوالي مغصوبة إلى يومنا هذا، والقصة بتفاصيلها معروفة تاريخيا، والحدث معروف على مستوى أمة، وفيه مخالفة واضحة لقاعدة فقهية «قاعدة التصرف» جاء نصها في القرآن الكريم واضحا وفي مواطن مختلفة منه، ما كان كل هذا إلا ليسكتوا صوت أهل البيت وتحجيم دورهم بعد وفاة الرسول، والظلم في ذلك واضح وضوح النهار، فباغتصاب الخلافة من الإمام علي عليه السلام وبمصادرة أرض فدك بدأ الاعتلال السياسي في الأمة وتبعه قطعا اعتلال واختلال واضح في الدين، مما دفع سيدتي فاطمة الزهراء إلى المطالبة بحقها على أنها خطوة لم تقصد وراءها المنفعة المادية كما أُتهمت من قبل أعدائها بقدر ما كان إحقاقا للحق ونصرة لدين الله، وكلمتها المشهورة حينما رجعت من خطبتها «حسبي الله» إنما هي حجة على ذوي العقل ومن بهم باقية من دين الله وسنة نبيه.

منهج البحث:

اتَّكأ البحث على نظرية نقدية حديثة وهي (نظرية الحجاج)، إذ عمدت الباحثة إلى توظيف وسائل المنهج الحجاجي وآلياته في البحث على مبحثين، مع الأخذ بعين الاعتبار مواءمة المباحث الحجاجية في البحث لفن الخطبة، فاختص الأول: بعرض الحجاج من خلال التصديقات غير الصناعية، وهي آلية حجاجية ناجعة، ولاسيما في الخطب الدينية والاجتماعية؛ لما للقرآن من تأثير مباشر على عقول متلقيه، ولمصداقيته الواضحة، وبحكم مركزية النص الديني عند المسلمين بما هو السنن الكبيرة يبنى فيه الحجاج الخطبي بنسبة كبيرة[1].

فكانت الآيات القرآنية في الخطبة الشريفة ضمن التصديقات غير الصناعية، وهي ما لا دخل للخطيب في إنتاجها، بل يتم التسويق لها لصالح القضية التي تطرحها الخطبة، ولهذه التصديقات تأثير كبير على المتلقي العربي بخاصة؛ لأنها تقع ضمن ثقافة مجتمعه، هذا من جانب من جانب آخر فإن لهذه التصديقات مسافة لا يمكن تقليصها ولو بشيء من التفاوض مع المتلقي العربي؛ لأنها مقدسة وصريحة ومن السهل ربطها بمقصد الخطبة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن التصديقات غير الصناعية لدى أرسطو لا تقف عند «الإيمان» فقط، بل هي خمسة، «القوانين» و«الشهود» و«والعقود» و«العذاب» وبضمنها الإيمان، ومن الملاحظ أن دارسي التراث الأرسطي والمتأثرين به لم يتناولوا هذا الجانب بالدارسة في الخطبة الإسلامية التي هي خير ميدان لتطبيق هذا النوع من الحجج[2].

أما المبحث الثاني فقد اختص بالمعنى القرآني من خلال قراءة المفردة القرآنية خارج سياقها القرآني في الخطبة الشريفة، ضمن ما يُعرف بالتصديقات الصناعية، ونقصد بها تلك

التي يستجلبها الخطيب لاتساق الخطاب وتماسكه، وتشمل الأقاويل والمواضيع التي تختلف في درجة قبولها وتصديقها عند المتلقين كلا بحسب بيئته وقناعته كذلك ثقافته، وهي وحدة حجاجية دنيا، عكس التصديقات غير الصناعية التي هي وحدة حجاجية كبرى، لضمان تأثيرها على المتلقين.

ثم ختم البحث بخاتمة توصلت لأهم ملامح الحجاج عند السيدة الزهراء، وبقائمة لأهم مصادر البحث.

التمهيد:

الحجاج بعدّه نظرية نقدية حديثة مجالا نقديا مفتوحا على الجديد والمبتكر، إذ ما زالت هذه النظرية تحتضن الكثير من المجالات وتضمها إليها، ولا يكاد يفلت من قبضتها أي خطاب مهما كان نوعه وتوجهه.

ولأن القرآن الكريم الحدث الأكبر في حياة العرب؛ لما أحدثه من ثورة نوعية على الأصعدة جميعها حتى أصبح موجها قيميا وتوعويا للعرب بفعل مركزيته التي حملت على عاتقها التغيير الثوري الذي نهض بالأمة من الظلمات إلى النور فنقل شبه جزيرة العرب نقلة نوعية أصبحت بفضله أمة مسلمة بعد أن كان الشرك مخيما على عقول العرب حينها، كانت مقاربة النص القرآني بنظريات وأنماط خطابية يعسر ضبطها في جنس أدبي معين، ويجعل الاحتكام إلى أكثر من شبكة تحليل عند مقاربته أمرا مطلوبا[٣]، بعده نصا يفوق ما ورثته العرب من بلاغة كما يحقق الهدف من ورائه وهو الإقناع.

لذا جاء القرآن - دون منافس - نصا له قدسيته خضع له الجميع، ومن منطلق الطاقة الحجاجية والإقناعية التي حملها القرآن الكريم كان استناد الخطبة التي وجهتها الزهراء عليها السلام لمن سلبوا حقها في فدك (أبي بكر بن أبي قحافة) في مسجد الرسول على آيات من القرآن الكريم، فقد طالبته في هذه الخطبة بحقها في أرضها (فدك والمعالي) التي ورثتها عن أبيها صلى الله عليه وآله، محاججة خصومها ممن سلبوها حقها في أرض فدك وممن قبلوا وسكتوا بهذا الظلم بالقرآن الكريم موضحة ظلم حكمهم وجورهم من خلال ما حملته آيات القرآن الكريم من حكم شرعي على تجوزهم وظلمهم لها.

ومن الملاحظ أن أغلب التفاسير للآيات التي وردت في الخطبة الشريفة لم تتعارض مع الوظيفة الإقناعية لصالح الخطبة وتوجهها الإقناعي، وهذا مهمة

سيضطلع بها الهامش مع وظيفته الأساسية وهي عرض الإحالات في البحث.

إذن، ما الحجاج؟ وهل تتناسل منه مصطلحات أخر تتواءم معه في عرض طاقة النص الاقناعية؟.

كل الدراسات الحجاجية لا تبتعد عن طريقين، الأول: ضيق شديد الخناق على التوسع الذي يبتغيه بعض المهتمين بالنظرية الحجاجية من دارسين وباحثين، يتشبث أصحابه بالبرهنة والاستدلال، والبعض الآخر راهن على قبول الحجاج لكل أنواع الخطابات بما فيها الشعرية، التي تبتعد عن المنطق والاستدلال، مع ذلك اتسعت هذه النظرية لتحتضن مختلف الخطابات[٤]، لكن تبقى «الخطابة» الميدان الرحب الذي تمخض عنه الحجاج منذ أن وضع أوليات النظرية أرسطو في كتاب «الخطابة» إلى اليوم، وهذا لا ينفي حرية الحركة التي امتلكها الحجاج داخل الخطابات المختلفة.

الخطابة والحجاج، علاقة تجاذب:

كانت الخطابة وما زالت بابا من أبواب الإقناع وفنا موجها بالضرورة إلى جمهور ما بهدف إقناعه برسالة ما؛ لذا لم يتناقض الحجاج مع الخطابة وظيفيا، بل حتى على مستوى البناء كانت الخطبة متضمنة الأساليب البنائية التي تنتج خطابا إقناعيا من خلال مستويات عدة، إذ في الغالب ما تتكون الخطبة من مقدمة ونتيجة، وهنا يكون المظهر الحجاجي واضحا، أيضا من خلال الحجج غير المباشرة مثل التوجه البلاغي الذي لا تكاد تخلو منه أي خطبة كما عرف الحكماء والمناطقة الخطابة بأنها القياس المؤلف من المظنونات والمقبولات لترغيب الناس برسالة ما[٥].

فالخطاب أو الخطبة أو الخطابة ما هو إلا اتصال لغوي أو لساني يستعمله واستعمله الإنسان منذ القدم من أجل إيصال رسالة إلى شخص معين أو مجموعة من الأشخاص[٦]. وللخطابة

تاريخ قديم قدم الإنسان، إذ عُرفت منذ الجاهلية قبل الإسلام وزامنت الرسل فكانت أداتهم التي بلغوا من خلالها رسالات الله تعالى.

لكن ماذا لو سألنا عن العمق الذي حصلت عليه الخطابة في ظل الدراسات البلاغية الحديثة؟. حتما سيحوم الجواب حول أرسطو وما قدمه هذا الفيلسوف للبلاغة الحديثة، إذ تشير كل الدراسات الحديثة والقديمة حول الخطابة بالفضل لكتابي أرسطو (الخطابة، وفن الشعر)، إذ شكلت الخطابة في عهده منعطفا بالغ الأهمية بإضافتها إلى تاريخ البلاغة ثراء منقطع النظير (إذ قام هذا الفيلسوف بعملية قطع مع ميراث صنَاع الكلام الذين كان سلوكهم في الفترة السابقة منافيا للأخلاق... فكانت هذه البلاغة الأرسطية المرشد لثقافة الحجاج التي انتشرت)[٧].

ثم شهدت البلاغة الأرسطوية انحطاطا وتدهورا، ولاسيما في نظرية الحجاج داخل البلاغة، ويمكن حصر هذه الفترة من نهاية الامبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن العشرين وفيها تحولت البلاغة إلى نظرية من المحسنات والصور الأسلوبية. هذا بالنسبة للبلاغة، أما الحجاج فقد خيم عليه ظل البرهان بنشاط الفلسفة العقلية، لكن بعد هذا الخمول والتحول استعادت البلاغة الجديدة مكانتها مرة أخرى في ظل الحراك البلاغي الذي قاده الفيلسوف البلجيكي شاييم بيرلمان وتولمن حول الحجاج[٨].

وفي خضم كل هذا لا نستطيع شد التوجه البلاغي العربي إلى درجة التقلص؛ لأنه بالفعل لم يكن كذلك، إذ نجد أسس هذا النظرية في الدرس البلاغي العربي ليس حصرا بل الأكثر أثرا؛ وذلك لأن الدرس الحجاجي العربي متشعب بتشعب الفنون القولية التي امتلكها العربي، وبهذا كانت نشأة الحجاج داخل الثقافة العربية مغايرة

لنشأتها داخل الثقافة الأرسطية التي اتكأت على المدخل البلاغي لولادة الحجاج؛ ولأن العرب أمة شفاهية أسست لثقافتها من مجالات واسعة ومتعددة مثل المجال الفكري، وعلوم القرآن وعلم التفسير والفلسفة وعلم الأصول وعلم الكلام، فكلها علوم تبطنت الحجاج وأسست له من خلال ارتباطها بالخطابة، ولا أصح على ذلك من ذكر الجاحظ وجهوده في إرساء فن الإقناع من خلال اشتغاله على الخطابة وباعتبارها فنا قادرا على مجابهة الجمهور وحملهم على الإقناع[٩]؛ ولأن (الخطابة جنس ارتبط منذ مطلع نشأته بمقاصد نفعية)[١٠]، وهو مشروع تحقق للجاحظ الخوض فيه من خلال اهتمامه بالإقناع والإفهام، كذلك التركيز على المقام، والمتلقي والباث[١١].

ثم طورت العلاقة العضوية بين الخطابة والإقناع في كتاب «البرهان في وجوه البيان» لأبي إسحاق بن إبراهيم بن وهب الذي اقتفى فيه أثر الجاحظ وجاء مطورا للعلاقة التي تربط الإقناع بالخطابة، أي ارتبطت جهود ابن وهب بالاتجاه الخطابي (إذ يمكن تلمس الصفة الإقناعية في دفاع ابن وهب عن البيان المعرفي، حين اعتبر بأن وجوه البيان تشف عن العملية العقلية وتعكس نشاطها)[١٢].

الجهاز الاصطلاحي: الحجاج:

خضع مصطلح الحجاج لاجتهاد الباحثين في مجالات عديدة، فمنهم من يفضل استعمال (الحجاج)، ومنهم من يذهب إلى استعمال (التحاج)، ومنهم من يفك الادغام فيقول (التحاجج)، ومنهم من يستعمل (الحجاجية)، وغيرها من التعريفات الاشتقاقية، ومن أبرز الأسباب التي أدت إلى هذه السعة و التباين هو التأثر النظري بالدراسات الغربية والترجمة عنها مباشرة من الأصل الأجنبي، ومنهم من يأخذ الترجمة دون أن يتمكن من الاطلاع على الأصل، مما

أدى في النهاية إلى عدم تمثل النظرية كما هي في مضانها ومن ثم ينجز عنه سوء التطبيق[١٣].

ففي الدراسات العربية كانت جذور الحجاج عميقة في تربة التراث، فمن الناحية اللغوية فالحجاج من (حاج) و«حاجَجْتُه أُحاجُّه ومحاجَّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها...وحاجه محاجة وحجاجا، نازعه الحجة...والحجة الدليل والبرهان»[١٤]. وبهذا المعنى يدل الحجاج على الاختلاف بين طرفين/ أطراف، أو الخصام، ومن بعض معاني الحجاج النزاع والخصام بوساطة الأدلة والبراهين[١٥]، وفي هذا المعنى أورد ابن فارس معنى الحجاج بتعريفه قائلا: (يُقال حاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حجج، والمصدر الحجاج)[١٦]، والمفهوم من كلام العرب أن الحجاج يدور حول الخصومة والاختلاف، فقد عرفه الزمخشري متفقا مع ابن فارس في معنى الحجاج قائلا: (حجج: احتج على خصمه بحجة شهباء وحجج شهب، وحاج خصمه محجة، وفلان خصمه محجوج وكانت بينهما محاجة وملاجّة)[١٧].

أما الحجاج في الاصطلاح فيعني (جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها)[١٨]، كما يعرفه بعض الباحثين بقولهم: (هو ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفهام مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك)[١٩]، ومن أبرز المعرفين لمفهوم الحجاج هما «بيرلمان» و«تيتيكا» إذ أطلقا لفظة (حجاج) و(محاججة) على (العلم الذي يدرس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو تزيد من درجة ذلك

التسليم)[٢٠]. وبذلك يكون الحجاج وسيلة للإقناع، يتوجه لمخاطب ما في محاولة لإقناعه بما يُطرح عليه من أفكار وقضايا، أو يزيد درجة التسليم، دون صرامة أو إلزام.

إذن، هدف الحجاج هو الإقناع والتأثير في المتلقين، وبهذا يكون الحجاج جنسا خاصا من الخطاب يعرض فيه المتكلم دعواه مدعومة بتبريرات وتعليلات، عبر سلسلة من الأقوال[٢١]، والإقناع (خاصية مؤسسة لخطابات تفرض قوتها وخطورتها في عالم اليوم، وتصنع الإنسان المعاصر، إنها خطابات الإعلام وخطابات السياسة)[٢٢].

لهذا دخل الحجاج في كثير من المجالات، فلسفية وأدبية وسياسية واجتماعية؛ لذلك نجد بعض المهتمين بنظرية الإقناع يعرفه تعريفا شاملا واسعا، ومنهم طه عبد الرحمن، إذ شمل تعريفه للحجاج المعنى التداولي، حيث قاربه بالبرهان، كما أعطى الحجاج صفتين رئيستين، الأولى تداولية (لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية يهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية إنشاءً موجها بقدر الحاجة)[٢٣]، أما الصفة الثانية التي أعطاها طه عبد الرحمن للحجاج فهي (كونه جدليا؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة)[٢٤]، وبالرغم من هذا التوسع في مفهوم الحجاج إلا أن الدراسات الحديثة التي تعرضت لهذه النظرية لم تتوقف عند حد معين في مفهوم الحجاج وآلياته، فقد أشارت بعض هذه الدراسات إلى أن الحجاج هو حوار يستهدف إقناع المتلقي، سواء أكان مخالفا أم محايدا أم من مؤيدي الخطيب، فلم يعد مفهومه يُراد به (الجدل) أي (شدة الخصومة)، وهذا

نقض لمفهوم البرهان الذي يعني بالضرورة الخلاف[٢٥]، ومنهم من عرف الحجاج بقوله: (توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة الطبيعية)[٢٦].

ومجال الجدة التي دخل إليها الحجاج هو عدم الصرامة أو الإلزام في إقناع المتلقين بطروحات الباث، بل القدرة الإقناعية واللغة التي يمتلكها الباث هي وحدها الكفيلة بإقناع المتلقي وتغيير قناعته الراسخة قبلا، فهو- الحجاج- (مظهر من مظاهر القوة الباطنية، التي تتوسل بشتى السبل للوصول بالمتلقي إلى درجة التأثير أو الاقتناع، بل قد تدفع الجماعات نحو تغيير السلوك أو إنجاز الفعل)[٢٧].

القرآنية:

لقد تناسل مصطلح القرآنية من اصطلاحات نقدية وأدبية عديدة، أقربها عضويا وأشدها ارتباطا بالقرآنية مصطلح (التناص)، إذ اشتركت مع القرآنية في الدلالة العامة بعد ظهور الحوارية على يد الباحث الروسي (ميخائيل باختن) كردٍّ على انغلاق النصوص، و(الحوارية) وأولياته النقدية في تطور مستمر، إذ اتكأت على المصطلح الباحثة البلغارية جوليا كرستيفا لتخرج لنا بنظرية جديدة ومصطلح جديد وهو (التناص) الذي يمثل عندها تقاطع نصوص ووحدات من نصوص في نص أو نصوص أخرى. وعليه أصبح النص عندها لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، فكل نص يستقطب ما لا يحصى من النصوص التي تُعاد عن طريق التحويل والنفي أو الهدم وإعادة البناء[٢٨].

وبالرغم من التعدد والاختلاف الذي واجهه هذا المصطلح في التعريف والاشتغال[٢٩]، إلا أنه بقي محافظا على وظيفته النقدية[٣٠]، إذ يتمثل التناص بقدرة المبدع على توظيف نصٍّ أو نصوص في منجزه الإبداعي، على أن

هذا التوظيف لا يتنافى مع آليات العمل الإبداعي (الفني والفكري). والقرآن الكريم منذ نزوله إلى يومنا هذا معينٌ لا ينضب لأصحاب العقول المبدعة ورافدٌ ملهمٌ للكثيرين، والنص القرآني في هذا المجال يُعد (عتبة تناصية) للكثير من النصوص؛ وعليه كانت نظرة النقد وما زالت للنصوص التي تبتعد عن التناص نظرة انغلاقية، فوصف النص الذي يخلو من التناص بأنه نصّ بدون أفق[٣١].

ولكثرة التناص مع القرآن الكريم ظهر مفهوم (القرآنية) كمفهوم إجرائي جديد على الحقل النقدي متصدرا هذا الاجتراح الدكتور مشتاق عباس معن، إذ عرفه بقوله: (آلية من الآليات التي يتوسل بها المبدع في تشكيل نصوصه الإبداعية من جهتي الرؤية والاتساق، وبنية وإيقاعا بحسب السياق القرآني الكريم)[٣٢]، ولم يكن د. مشتاق أول من حاول اجتراح مصطلح يوائم الاستعمال القرآني بشكل تناص، بل تنافست عدة مصطلحات نقدية قبله ومنها (أثر القرآن)، كذلك مصطلح (التناص القرآني)، ولم يترك د. مشتاق اجتراحه لهذا المصطلح دون تبرير، فقد برره بقوله: (سعى نقادنا القدامى وجملة من النقاد المحدثين في تلك الاصطلاحات إلى تمييز الأخذ من القرآن الكريم والإفادة منه بمصطلحات تدل عليه، كما اختلف القدامى في تلك الاصطلاحات، فبعضهم ميّزه بـ(الاقتباس) أو (التضمين)، في حين أدخله بعضهم في خانة (السرقة)، وجريا على ذاتية التمييز تلك سعينا لاجتراح مصطلح (القرآنية) لتمييز عملية الأخذ والإفادة من القرآن من سواها)[٣٣].

وقد علّق على بعض المصطلحات المستعملة قبل طرحه مصطلحه (القرآنية) بالنقد ممثلا بمصطلح (التناص القرآني) قائلا: (مصطلح «التناص» يدل على ثنائية مفاهيمية من جهة «الآخذ والمأخوذ» الأمر الذي يُحدث لبسا عند

بعض المتلقين لو أضفناه إلى القرآن، إذ يدلل على أن المأخوذ هو القرآن، كما يصح أن يكون الآخذ أيضا، ولاستحالة الاتفاق مع الغرض الثاني أعرضنا عن هذا الاصطلاح، وأن نستبدل به مصطلحا جديدا)[٣٤]، هو القرآنية الذي آثرته الباحثة على غيره من المصطلحات؛ للملائمة الإجرائية التي اشتملها المصطلح الأخير على غيره.

وللانتشار الواسع للسياق القرآني في الخطب بأنواعها؛ جاء البحث ليكشف عن الطاقة الحجاجية من الاستعمال القرآني عند السيدة الزهراء في خطبتها الفدكية، كما وضح أهمية هذا التوظيف في إسقاط وتعرية خصومها ممن اغتصبوها حقها في فدك.

ومن الملاحظ كذلك في البحث أنه لم يقف عند الاستعمال القرآني الصريح فقط، بعدّه نصا إقناعيا بامتياز، بل وقف عند التوظيف غير المباشر، وهذا ما اضطلع به المبحث الثاني من البحث الذي عرض حجاج السيدة الزهراء في الخطبة الفدكية باستعمال مفردات من القرآن الكريم، سواء كانت تلك المفردات معضدة بسياق قرآني، أم متفردة؛ لتقوية هيكلية خطابها، ولاستمالة مخاطبيها أيضا.

المبحث الأول:

التصديقات غير الصناعية:

وهي قوام عمل الخطيب وسبب نجاحه في الغالب، وهي بالعادة جاهزة لا دخل للخطيب في إنجازها؛ لأنها خارج موضوع الخطبة في الأصل، أي أنها تكونت وحدثت في قضية خارج موضوع الخطبة، لكن للقوة التي تحملها هذه (الأدلة/ الحجج) ثقافيا أو دينيا على المتلقي يستجلبها الخطيب، وفي ثقافتنا العربية والإسلامية يُعد النص القرآني من أقوى الأدلة الجاهزة التي يستخدمها الخطيب لإقناع متلقيه بقضيته[٣٥].

ولأن موضوع البحث يدور حول الحجاج القرآني، أي التصديقات غير

الصناعية (الجاهزة) التي هي آيات القرآن الكريم في خطبة السيدة الزهراء تقدم هذا المبحث على غيره، إذ حصرنا موضوع التصديقات غير الصناعية التي وردت في الآيات التي توافرت عليها الخطبة، ونجدها تدور حول موضوع الخطبة (الظلم، واغتصاب أرض فدك، وحرمان السيدة الزهراء من ورث أبيها محمد صلى الله عليه وآله)؛ لذلك نجد التصديقات غير الصناعية التي وردت في الخطبة تدور حول هذا الموضوع.

وقبل الدخول في الحجج التي عرضتها السيدة الزهراء في خطبتها عرضت القرآن الكريم مصدرا لحججها الجاهزة بقولها: (كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع بيّنة بصائره منكشفة سرائره...).

التقوى:

(اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)، وهو مدخل مرتبط بالعديد من المفاهيم والقيم مثل الكفر والإيمان، العلم والجهل؛ ولعدم تقواهم وظلمهم في سلبهم حقها عليها السلام استشهدت بقوله تعالى، وفيه بُعدان: الأول صريح وهو عدم تقواهم في السير على منهج الإسلام في توريث الأنثى، فالتقوى مدخل من مداخل الإيمان نوهت عليه عليها السلام بتجريد مخاطبيها من هذه القيمة؛ لأنهم خالفوا أمر الله بالرجوع إلى حكم الجاهلية، وهي في الحقيقة حجة عليهم، إذ عقّبتْ على كلامهم بقولها: (وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه)، والمسألة بالمجمل تدور حول فقه الإرث في الإسلام وتشريعاته التي أتى بها الإسلام مقوما ما كان في الجاهلية من نظام وظلم في هذا الجانب، فالمرأة في الجاهلية (كانت محرومة من نصيبها في الإرث الذي كان يوزع حسب مشيئة الأب على الأبناء ومن غير حصص مقنعة للأبناء أنفسهم، وإذا مات الأب عن بنات ولم يكن له وريث من الذكور ذهب ميراثه إلى من يبادر

للاستيلاء عليه من الإخوة والأعمام وأبناء العم)[٣٦].

وهذا نظام حاربه الإسلام، ولكن خرج بعضهم عن هذه التعاليم ونادى بالجنوسة التي تقوم على الذكورة ضد الأنثى، والخطبة الفدكية للسيدة الزهراء دليل على هذه النكسة التي منيت بها الأنثى في المجتمع العربي، والزهراء عليها السلام أوعزت هذا الظلم للجهل الذي كان عليه مخاطبيها واستشهادها بقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، وهنا يكمن البعد الثاني الذي نوهت عليه الخطبة الشريفة وهو جهلهم علاوة على كفرهم[٣٧]. فقد ورد في تأويل هذه الآية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (يعني بالعلماء، من صدق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم)[٣٨]. وفيها تفسير آخر يتناسب والبناء الحجاجي الذي توافر في الخطبة الشريفة، حيث جاء عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: (إن من العبادة شدة الخوف من الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، وقال جل ثناؤه: ﴿**فلا تخشوا الناس واخشون**﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا**﴾[٣٩].

وهنا وظفت عليها السلام الاستنباط كآلية حجاجية وكلت مهمتها للمخاطب/ المتلقي، بعدّهم من محيط معرفي واحد، حيث ضمّنتْ خطابها تأويلا واحدا لا يتشعب هو:

١ـ مَن أخاطبهم...ليسوا بعلماء.

٢ـ مَن أخاطبهم...لا يخشون الله.

٣ ـ مَن أخاطبهم...لا تصدق أفعالهم أقوالهم.

وهذه كلها مقدمات تخدم النتيجة التي عرضت لها لاحقا السيدة الزهراء عليها السلام، وفي الحقيقة تقوم هذه الآلية (بفك الترميز اللساني، وهي عملية لا تبحث فقط عن تقوية التمثيل المفهومي، لكنها تتضمن صحة كل نتيجة من المقدمات من ناحية أولى،

ووسيلة لحساب الفرضيات من ناحية ثانية)[٤٠].

والفرضيات الجديدة التي يمكن أن تفرزها المقدمات المذكورة ساقتها السيدة الزهراء بشكل استشهاد قرآني مما يزيد صحة المقدمات ومصداقيتها، فقد استشهدت بقوله تعالى: ﴿**ومن يبتغِ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾، فالمقدمة هنا هي في النسبة التي عرضتها الآية الكريمة بين الدين الإسلامي والخسارة، فالمقدمة هنا (أنهم/ مخاطبيها) ليسوا مسلمين، تقود المتلقي إلى نتيجة مفادها خسارة هؤلاء، وهنا نلاحظ انتقال الخطاب من مستوى إلى آخر، ففي البداية كان الخطاب بالعموم، ثم دخل في التخصيص لغاية حجاجية؛ إذ مهد (الخطاب/ الخطبة) للمتلقين موضوع الخطبة بشكل لا يقبل الدحض أو الرفض من خلال الاستدراج في المقدمات، وهي آلية حجاجية غالبا ما يُكتب لها النجاعة؛ لأن مقدماتها مرتبطة بنتائجها بشكل استلزامي، فنحن نعرف أن الجهل بداية كل ضلال وباطل، ثم وقفت الآيات التي استشهدت بها السيدة الزهراء على مفهوم أوسع من الجهل، وهو الخسارة التي هي عاقبة لمن جهل واستجهل بأحكام الله. إذن، الجهل استلزم الخسارة هنا، وهي دقة متناهية في الاستشهاد من قبل السيدة الزهراء عليها السلام[٤١].

ولو حاولنا الميل إلى التأويل لخدمة البناء الحجاجي في الخطبة الشريفة لوجدنا تأويل الآيات الشريفة التي وردت في الخطبة جاء منسجما مع التوجه الحجاجي الذي قصدته السيدة الزهراء عليها السلام، فقد ورد عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، قال: (إنما يعني به علياً عليه السلام وكان عالما بالله، ويخشى الله عز وجل ويراقبه، ويعمل بفرائضه، ويجاهد في سبيله، ويتبع في جميع أمره مرضاته ومرضاة الرسول صلى الله عليه وآله)[٤٢]. وقال

في الآية نفسها: (كان علي عليه السلام يخشى الله ويراقبه ويعمل بفرائضه، ويجاهد في سبيله، وكان إذا وصف في القتال كأنه بنيان مرصوص، ويقول الله: إن الله يحب الذي يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، يتبع في جميع أمره مرضاة الله ورسوله وما قتل المشركين قبله أحد)[٤٣]. وورد عن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، قال: أعلم الناس بالله أشدهم خشية[٤٤].

وإنما استشهدت السيدة الزهراء عليها السلام بهذه الآية لتذكّر أهل المجلس أن الخشية مخصوصة فقط بالعباد العلماء، والعلماء هم عليهم السلام؛ فقد حصر الله الخشية بالعلماء من العباد، ولم يكن في المجلس شخص عالم؛ لأنهم لم تكن أعمالهم مصدقة لأقوالهم ولم يستشعروا الخشية من الله عز وجل في ظلمهم لها.

كما أن حجاج السيدة الزهراء لم يكن عند هذا الحد، بل هونت من أمر مخاطبيها مستهينة بهم على نحو واضح، إذ استشهدت بقوله تعالى: ﴿**إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾، وهنا ينتقل الخطاب إلى مستواه المباشر، كما أشارت الباحثة إلى هذه التقنية التي اتبعتها السيدة الزهراء عليها السلام إنما كان للاستدراج، فبعد أن كان حجاجها على قضية بعينها أصبح الآن حول شخوص بعينهم وأفعالهم.

الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجي:

غالبا ما تكون هذه الخصائص في الخطبة الاجتماعية التي تركز على قضية مختلف فيها، أو في خضم استعراض الحجج والنتائج، وهي في الحقيقة آلية مرتكزة على بعدين هما (التشخيص والمقام)[٤٥]، وهما في نظر الباحثة في تلازم وظيفي يخدم البعد الحجاجي للخطاب، لا سيما أن الحوار أحد أهم السمات الأساسية في التعبير القرآني بعدّه أداة فعالة في تحريك مشاعر

المتلقي والتأثير فيه، وهذا بالفعل مدخل أساسي للبلاغة التي اتكأت على قدرة الباث في إقناع متلقيه، فالحجاج ضمن هذا المنطلق يجعل المتلقي محور قاعدته الإقناعية(٤٦).

ولأن المقام الخطابي هو من حكم الحوار في الخطبة الشريفة سنقف عنده بعدّه أحد أبعاد التوجه الحجاجي في الخطبة الشريفة.

ففي الآية الكريمة: ﴿**إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ حوار استند إلى الدليل، إذ كفر مخاطبيه لن يضر الله شيئا، وهو في الحقيقة خطاب ملائم واضح لهم وذلك بلفظ (تكفروا)، وهذا المقام احتضن كل صفة سالبة يمكن أن يكون عليها الإنسان، من ظلم واغتصاب وعصبية، ثم جاء المقام لُيفسر قبحهم في الآية الكريمة: ﴿**ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمُحيطة بالكافرين**﴾(التوبة/٤٩).

ثم زاد التقابل بين صورة المخاطب وصفة الكفر في المقام الخطابي الذي عمدت له السيدة الزهراء عليها السلام في الآية الكريمة: ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾، فالمقام في الآية الكريمة يشي بالأجواء التي أحاطت بالخطبة الشريفة، كما أن لفظة (ظلموا) حددت المسار الخطابي الذي طغى على الخطبة الشريفة.

ثم ختمت قولها في صفاتهم بالآية الكريمة: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾، فالمقام تحتم أن يكون الخطاب هنا استنكاريا؛ لأنها عليها السلام استنكرت عليهم عدم معرفتهم بالقرآن وأحكامه، (فالسياق المقامي يوفر، جزئيا، بعض العوامل أو المحددات التي تسهم في تحديد معنى التعبيرات اللغوية، والمقامات بوصفها سياقا، هي صنف متأصل في المحددات الاجتماعية)(٤٧)، والمقام الذي تدور حوله الخطبة يقتضي هذا التقارب التشخيصي للشخصيات التي كان

الخطاب موجها لها، كما يبين ذلك تفسير الآيات التي ورد ذكرها، إذ كان تفسيرها بالاتفاق (هم الكافرون)، فقد ذكر أبو هلال العسكري في الصناعتين أن من الهجنة أن يذكر صاحب الخطبة أو القصيدة ما يخص المتكلمين شكلا كأن يُذكر الجسم والعرض والكون[٤٨]، بل أن يعمد للصفة التي من أجلهم حُدد الجنس الخطابي، وهذا دليل على أن طبيعة الخطاب إنما توجه من أحوال المخاطبين/ المتلقين، والمقام هنا توبيخي؛ لأنهم على علم بكتاب الله وأحكامه لكنهم ردوا بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله لجهلهم وجهالتهم التي شكلت توصيفا خاصا بهم في الخطبة الشريفة، وهذا لا يحتاج إلى إعمال الفكر أو التأمل للوصول إليه، حتى أن السيدة الزهراء عليها السلام استشهدت بالآية الكريمة لتزيد المقام الملائم للخطبة فقالت: قال الله عز وجل: ﴿**ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا**﴾، ووجه الاستدلال هنا أن الرسول صلى الله عليه وآله إن مات لا تموت شريعته ودينه الذي كان نورا للبشرية، وإنما من يرتد عن ذلك فلن يضر الله شيئا، بل (سيجزى الشاكرين)، فالمرسل إليه في الخطبة الشريفة هو مَن حدد مسار الخطاب/ الخطبة؛ لأنه هو الطرف الذي يوجّه إليه المرسل خطابه عمدا، وقد أشار اللغويون القدماء إلى تأثير المرسل إليه على المرسل عند إنتاج الخطاب[٤٩].

المبحث الثاني:

التصديقات الصناعية:

إن هدف نظرية الحجاج هو دراسة التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة الأشخاص أو تعزيز موافقتهم على القضايا التي تُقدم لهم[٥٠]، وهذا لا يعني تمركز هذه الوظيفة في التراكيب أو الجمل، بل تفعل المفردة فعل التركيب والجملة في الإقناع، واستمالة المتلقي إلى رأي الباث والتسليم له إذا ما وظّفت الكلمة التوظيف المناسب لها حجاجيا،

والكلمة القرآنية تتصف بصفات عدة تجعلها مؤهلة لتكون مؤشرا واضحا على فحوى (الآية/النص القرآني)، ومنها أن للكلمة القرآنية القدرة على الجمع بين معانٍ متفاوتة كلها صحيحة ومقبولة، وهذا ما يعجز عنه البشر[٥١]، وبما أن حجاج السيدة الزهراء عليها السلام بالقرآن الكريم الذي يتمتع بخصيصة إقناعية متفردة، فقد كان للكلمة دور في حجاجها يضاهي دور الجملة أو التركيب؛ وذلك لارتباط وجود الكلمة الحجاجية ببعدها التداولي الذي يقتضي وجود أطراف متحاورة تمتلك الثقافة اللغوية نفسها وداخل محيط اجتماعي واحد.

ونقصد بالكلمة الحجاجية هنا (هي التي تكون مفتاح الموضوع أو أحدى لبناته الأساس، ووجودها في بناء النص يسوقه إلى معاني الغرض الرئيس ودلالاته، كما وقعت عليه قصدية المنشئ واختياره وانتقاؤه)[٥٢]، وفي هذا التوظيف تقاطع واضح مع القرآن الكريم، إذ تنتمي هذه الكلمات إلى معجم القرآن الكريم كون القرآن الكريم يعني: الزهراء.

ومن الضرورة بمكان أن نذكر هنا أن الاستخدام المفرد لألفاظ القرآن الكريم يُعد استراتيجية حجاجية ناجعة؛ لأنه يفضي إلى المعنى دون أن يُنقص من أفقه، كما أن القرآن الكريم بلفظه يحمل بلاغة متفردة تساعد على انسجام الخطاب واتساقه، والحجاج القرآني في خطبة السيدة الزهراء عليها السلام اشتمل على اللفظ -إضافة لنص القرآن أي بالآيات- وأيضا على المعنى المتواتر في القرآن الكريم بعده حاملا للوظيفة الدلالية التي جاء في سياقها.

ومن نماذج حجاجها بلفظ القرآن الكريم قولها: (الحمد لله على ما أنعم)، فلفظة (الحمد) لم تأتِ عفوا في خطبتها عليها السلام، بل كانت اللفظة مفتاح ابتدائها على خصمها، وفي الوقت نفسه

غير متخطية نظام الاستهلال، فكانت فاتحة خطبتها بفاتحة القرآن الكريم (أمّ الكتاب/ سورة الحمد)، ولها دلالات حجاجية وتداولية أدت إلى انتظام الخطبة واتساقها، إذ احتجت بقدرة الله وفرض قوته على الجميع والخضوع له بتسليم مطلق، وهذه قمة الإيمان ومنتهى الطاعة، عكس ما عليه مخاطبيها من ظلمهم لها ومخالفتهم لأمر الله تعالى باغتصابهم حقها.

ومن خلال مركزية القرآن الكريم جاء الحمد محتويا دلالات أوسع مما هو متوقع في الافتتاح، إذ ضم أيضا مفردة أخرى عضدت سياقيا لفظة الحمد وهي لفظة (أنعم) التي هي نموذج قرآني واسع المعنى، حيث ارتبط الحمد بكثرة النعمة وهنا توجه صريح من السيدة الزهراء لمخاطبيها بالإيمان في التسليم لحكم الله تعالى، وفي الوقت نفسه هي استراتيجية حجاجية تعكس بؤس مخاطبيها وظلمهم لها، فسياقها القرآني يدل على ذلك في (عنوان القرآن الكريم، إذ إن مضامينها تكثيف بليغ معجز، واختزال بديع للكلمات المفَرعة والموسعة في ثناياه، إذ كل عنوان هو تجميع لمقاصد كتاب أو نص في أوله...)[٥٣]، وهي حجة واضحة على جهل مخاطبيها، إذ أنكروا نعمة الله عليهم بالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وآله نبيا وأمينا، و(الحمد لله حاصل، وهو تعليم من الله لعباده كيف يحمدونه، مقابل الحمد لغير الله، وهو متروك لأنه كفر وجحود وضلال، والحمد المطلق ثابت مقابل الحمد النسبي)[٥٤]، الذي يكون من البشر للبشر أحيانا، والآية واضحة الحجة على المتلقين، فالمتلقون بعيدون عن مقاصد الحمد وأهدافه، وجاء التعضيد في لفظة (أنعم) التي سياقها القرآني ضمن الآية نفسها في قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم**﴾، إذ تحمل الآية تقابلا واضحا في المعنى

وهو: النعمة على الأولياء مقابل النقمة على الكفار، وهو أيضا تقابل ترغيب للمؤمنين وترهيب للمغضوب عليهم(٥٥).

والزهراء عليها السلام بهذا الخطاب تخلق (مسافة حجاجية) بينها وبين مخاطبيها، فقد حددت هوية مخاطبيها بحجاجها القرآني وفصلتها عن هويتها التي أكدتها بالقرآن، وأعطت المساحة الحجاجية سعة مؤكدة من خلال الاختلاف الذي أفرزته بحجاجها، إذ (إن الإشكال الحقيقي في الحجاج حول المسافة يكمن في تأكيد الهوية أو العثور عليها، لذلك يقدم كل من المتكلم والمخاطب في أقوالهم إمكانات الرفض أو درجات القبول، وهما عنصران يسمحان للمتخاطبين بالتملص من الاختلاف المعطى والانطلاق بحرية نحو البحث عن الاختلاف الجديد المفترض وتأكيد الهوية المفترضة الجديدة)(٥٦). إذن، الخطاب هنا خَلَقَ هويتين تتنافسان للوصول للمصداقية، هوية السيدة الزهراء التي وضعتها في مجال الحجج الجاهزة التي لا تقبل التفاوض حول المصداقية (القرآن الكريم)، ومجال الحكاية التي اعتمدها مخاصميها التي تخضع للمشترك وهي حجج صناعية (الرواية الشفاهية)، وعلى ما نظن فلا توجد مقارنة بين التوجهين.

وتزيد المسافة الحجاجية اتساعا في استخدام السيدة الزهراء للمؤشرات الحجاجية المختلفة ولاسيما الضمائر التي تحيل وتحدد مخاطبيها، فقد خاطبت عليها السلام مَن في المجلس بقولها: (ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخزر القنا، وبثة الصدر وتقدمة الحجة، فدونكما فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون...)، فمن الملاحظ أن

الألفاظ التي وردت في نهاية النص ضمن الاستخدام القرآني، فقد وردت في سياقها القرآني ضمن الآية ﴿**كلما أوقدوا نارا للحرب...**﴾(الأنعام/١٦٥)، وهي لفظة (الموقدة) التي ارتبطت أسلوبيا بلفظة (الأفئدة) كما في سياقها القرآني (وأفئدتهم هواءٌ)، فهو تصوير للعجز عن الفقه، ويعبر ذلك عن الجبن أيضا، وفي سياق آخر جاءت لفظة الموقدة مع لفظة أفئدة للاتصال الوظيفي بين المعنيين، فقد جاءت في السياق القرآني ضمن سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾(الإسراء/٣٦). فالفؤاد: هو القلب ومنه فأدت الخبزة: مللتها وخبزتها في الملة، ويقال: فَأَدْتُ الخُبزَةَ إذا جعلت لها موضعاً في الرماد والنار لتضعها فيه، وكلا المعنيين يدلان على التخبط الذي كان عليه مخاطبيها وجهلهم.

كما ورد في الخطبة الشريفة: (وكنتم على شفا حفرة من النار... فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله بعد اللتيّا والتي)، وردت ضمن السياق القرآني أيضا، هنا تظهر الضمائر بوظيفة التماسك التي قصدها الخطاب، فقد وضعت الزهراء عليها السلام المخاطب في خانة/أنتم، وبدأت الإحالات تسقط في هذه الخانة تبعا لاستراتيجية الخطاب، فقد وضّح الخطاب ما كانوا عليه من ضلالة تلخصت بـ(شفا حفرة)، وهنا ظهر المختلف ليصرّح بالمسافة.

فالضمائر تتحرك في الخطاب لتُظهر الاختلاف الذي حددته المسافة الخطابية التي (تتحدد بين الخطيب والسامع)[٥٧]، مثلا في قولها عليها السلام: (وكنتم على شفا حفرة من نار):

١. الضمير (أنتم) يميز هوية المخاطب عن هوية صاحب الخطاب (السيدة الزهراء عليها السلام)، ويفرز معطيات عدة منها:

كنتم كفارا - في ضلال - في تخبط

٢. أنقذكم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وآله.

وهنا تخلق اللغة المسافة، فيكون الحجاج بالمسافة التي تعكسها الضمائر في الخطاب، بل تنغلق هذه المسافة في قولها عليها السلام: (تتربصون بنا الدوائر)، فلا مجال للمقاربة بين (هم/ ونحن) في الخطاب؛ ذلك لأن الاختلاف واسع والمسافة تتصف بالمقطوعة، إذ لا يمكن أن نجد في (الخطاب/ الخطبة) ما يجعل من المتخاطبين عناصر قابلة للاتفاق، وهو مفتاح للتفاوض أيضا، إذ نجد رد المخاطبين في محاولة منهم لتقليص المسافة ردا دون الإقناع، كما أنه لا يباري الأدلة التي قُدمت من قبل السيدة الزهراء عليها السلام، فقد اعتمد حجاجهم على أدلة صناعية، وهو دليل على ضعف المسافة الخطابية بينهم، مثلا قولهم ردا على دعوى السيدة الزهراء في حقها في فدك (إرثها من أبيها النبي صلى الله عليه وآله) : قال أبو بكر: إني سمعت رسول الله يقول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهبا ولا فضة ولا دارا ولا عقارا، وإنما نورّث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه).

الملاحظ على قول أبي بكر أنه كان سماعا، كما لم يوثق هذا الحديث من قبل الموثوق بهم؛ لذلك كان حجاجه مغالطا، إذ خالف حجاجها عليها السلام بأن كان كله بالقرآن حتى عندما نقضت حديثهم - كما يدعون عن رسول الله - قالت: (سبحان الله ما كان أبي رسول الله صلى الله عليه وآله عن كتاب الله صادفا ولأحكامه مخالفا، بل كان يتبع أثره، ويقفوا سوره،[...] هذا كتاب الله حكما عدلا، وناطقا فصلا يقول: ﴿**يرثني ويرث آل يعقوب**﴾، ويقول: ﴿**وورث سليمان داود...**﴾[٥٨]، ونص الآية واضح لا يحتاج إلى مغالطة كالتي كانت في جدالهم مع السيدة الزهراء عليها السلام.

وبهذا تنغلق المسافة الحجاجية بين الأطراف المتحاورة لضعف أدلتهم.

الخاتمة:

١. الحجاج حقل يمتح من حقول عدة، منها الفلسفي واللغوي والاجتماعي...، ومع ذلك فقد كانت له صلة خاصة بصناعة الخطبة، بل وصفت هذه الصلة بالعضوية في أكثر وصف دقيق لهذا الارتباط. فالحجاج الجدلي والحجاج الخطبي ينشآن من حيث يوجد اختلاف أو خلاف فهو -الحجاج- فضاء من الخلاف والاختلاف، والخطبة الشريفة للسيدة الزهراء وقفت عند هذه النقطة، فقد عرضت لوجهتين من القول متضادتين لا تنتميان للرأي نفسه، فكانت خطبتها متينة البنيان، محكمة الوصف، واضحة العبارة، بل أهم ما يصفها أنها قوية الإقناع؛ وذلك لأن بلاغة السيدة الزهراء عليها السلام إشهاد لها بالحكمة والبيان وهي سليلة البيت النبوي.

٢. ناقش البحث مسالة (الحجاج القرآني) عند السيدة الزهراء في مسألة فقهية ذات قاعدة ثابتة لا تقبل التفاوض وهي (الإرث)، كما عرض للحجاج المغالط من قبل الطرف الثاني/ المخاطب، الذي عبر -في رأي الباحثة- عن سفسطة واضحة لبخس السيدة الزهراء حقها في ميراث أبيها النبي صلى الله عليه وآله، كما نوهت الباحثة من خلال استعراضها للحقائق التاريخية في البحث إلى الغاية الحقيقية من مطالبة السيدة الزهراء بحقها في فدك؛ لخطورة الموضوع دينيا واجتماعيا، لا سيما أن الموضوع ينتمي في حقيقة أمره إلى إثبات ظلم وبخس الحقوق وتحريف لحكم الله وسنة نبيه.

٣. تُعد التصديقات غير الصناعية (الأدلة غير الصناعية) من أبرز الحجج الناجعة في الخطبة؛ وذلك لمقبوليتها عند الجمهور وللثبات والاستقرار الذي تكون عليه هذه الأدلة. عكس الحجج الصناعية، أو التصديقات الصناعية التي تُستجلب من عند الخطيب، وتكون وليدة فطنته وثقافته، فقد لا تلاقي

الاستحسان والإذعان الذي تكون عليه التصديقات الصناعية.

٤. في الخطبة الشريفة أسرار بلاغية وأسلوبية جمة؛ لأنها تصدر عن فطرة سليمة بعيدة عن البهرجة والمحسنات؛ ذلك لأنها ذات غاية سامية استهدفت إحقاق الحق وعدم الخضوع للظلم مهما كان، وتثبيتا لدين الله وسنة نبيه.

٥. جاء التوظيف القرآني في الخطبة الشريفة منسجما مع طبيعة الحجاج الذي وردت من أجله الخطبة، في إثبات القاعدة الفقهية التي حاول مخاصمو السيدة الزهراء عليها السلام تحريفها بخسا لحقها وكرها في علو شأن أهل بيتها.

الهوامش:

(١) يُنظر: هشام الريفي، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى يومنا هذا، إشراف: حمادي صمود، منشورات كلية الآداب، تونس، منوبة، ص١٨١.

(٢) المصدر نفسه: ص١٨٤، لعل ابن رشد هو من اهتم بهذه المسألة وإن كان اهتماما سطحيا، إذ لم يعرض لوجوه استغلال التصديقات غير الصناعية في خطبتنا التراثية على وجه الخصوص، وهذا ينطبق على شرح وتلخيص كتاب أرسطو (الخطابة)، وهو كتاب خطير جدا على حد تعبير هشام الريفي؛ لكونه يدور في أغلب قسمه على القول والسياسة، ومع ذلك كان ابن رشد صاحب الريادة في الخروج عن النص الأرسطي ولو بشيء يسير من خلال الفرق الذي يتلمسه القارئ بين كتاب أرسطو(الخطابة)، وتلخيص ابن رشد لهذا الكتاب.

(٣) يُنظر: من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص – حجاجية المفردة القرآنية نموذجا، صابر الحباشة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج٤، ص٢٠٢.

(٤) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، د. سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م، وأيضا بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، وقراءة الشعر الجاهلي في ضوء نظريات الحجاج، د. نابلس صلال التميمي.

(٥) يُنظر: الخطابة أصولها وتأريخها في أزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٦٨م، ج١، ١.

(٦) يُنظر: صنعة الخطابة عند اليونانيين والعرب، أ. د. شاكر عبد القادر، مجلة فصل الخطاب، الجزائر، العدد ٣، ٢٠١٣م، ٤٩.

(٧) تاريخ نظريات الحجاج، فليب بروتون وجيل جوتييه، تر: محمد صالح ناجي الغامدي، ط١، ٢٠١١م، مطابع الملك عبد العزيز، ص١٨.

(٨) يُنظر: المصدر نفسه.

(٩) يُنظر الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة – دراسة تداولية، ابتسام بن خراف، أطروحة دكتوراه، ٢٠١٥م، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، ص٥٦.

(١٠) التفكير البلاغي عند العرب – أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، ط٢، ١٩٩٤م، ص٣٠٥.

(١١) يُنظر: نقد العقل العربي، بنية العقل العربي – دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط٣، ١٩٩٣م، ص٢.

(١٢) بلاغة الإقناع في المناظرة ، د. عبد اللطيف عادل، دار ومكتبة عدنان، شارع المتنبي، بغداد، ٢٠١٣م، ص٦٩.

(١٣) يُنظر: من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص، ص١٩٠.

(١٤) لسان العرب مادة (ح ج ج).

(١٥) يذكر طه عبد الرحمن هذا التصور، إذ يؤكد أن حقيقة الخطاب ليست مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو (العلاقة الاستدلالية) وليس العلاقة التخاطبية وحدها، وإذا ثبت أن الحجاج هو الأصل في الخطاب، ثبت أيضا أن العلاقة الاستدلالية هي علاقة أصلية يتفرع عنها سواها ولا تتفرع عن سواها، فإذا تضمن الخطاب علاقة تخاطبية فيجب ردها إلى العلاقة الاستدلالية. يُنظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٢٢٦.

(١٦) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، دار الجيل، بيروت، ط١، مج٢، ص٣٠.

(١٧) أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص١١٣.

(١٨) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، (د.ط) ، ١٩٩٤م، ج١، ص٤٤٦.

(١٩) الحجاج والاستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري، الحبيب أعراب، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج٣، ص٣٢.

(٢٠) نقلا عن: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، ص٢٧.

(٢١)يُنظر: الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، حسن بوبلوطة، رسالة ماجستير، ٢٠٠٩–٢٠١٠م، جامعة لحاج لخضر، الجمهورية الجزائرية، ص٣٠.

(٢٢) بلاغة الإقناع في المناظرة، د. عبد اللطيف عادل، ص١٥.

(٢٣) في أصول الحوار وتجديد علو الكلام، طه عبد الرحمن، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٦٥.

(٢٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢٥) بنى الحجاج في نهج البلاغة / دراسة لسانية، د. علي عبد الوهاب عباس، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ٢٠١٣، ص١٨.

(٢٦) مدخل إلى الحجاج (أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان)، د. محمد الولي، مجلة عالم الفكر، العدد٢، مج٤٠، سنة ٢٠١١م، ص١١.

(٢٧) كتاب الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، علي محمد علي سلمان، ديموس للطباعة، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ص٨٥

(٢٨) يُنظر: التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر/ أحمد العواضي أنموذجا، عصام حفظ الله حسين، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص١٥.

(٢٩) فقد وصفه الدكتور عبد القادر بقشي بكونه مفهوما مشهورا متأبيا عن الإذعان، كل يحاول امتلاكه وضمه إلى مجال تخصصه، فاشتغل به البوطيقي والسيميوطيقي والأسلوبي والتداولي والتفكيكي رغم ما بين هذه الاختصاصات من اختلافات وتناقضات...حتى وصل الاختلاف على ضبط فعاليته النقدية، إذ أدرجه البعض ضمن الشعرية التكوينية، فيما تناوله البعض الآخر ضمن إطار جمالية التلقي. ينظر: التناص في الخطاب النقدي والبلاغي – دراسة نظرية وتطبيقية، ص١٧-١٨، أفريقيا الشرق، (د.ط) ، (د.ت).

(٣٠) يُنظر: مفهوم التناص في الخطاب النقدي الجديد، ضمن (في أصل الخطاب النقدي الجديد)، أنجينو مارك، ترجمة وتقديم: أحمد المديني، ط٢، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩م، ص١١٠.

(٣١) يُنظر: الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص٤٧٣.

(٣٢) تأصيل النص / قراءة في ايدلوجيا التناص، د. مشتاق عباس معن، ط١، مركز عبادي للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ٢٠٠٣م، ص١٧٠.

(٣٣) المصدر نفسه، ص١٦٩.

(٣٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣٥) يُنظر: الحجاج في الخطابة النبوية، ١٣١.

(٣٦) فصول عن المرأة، هادي العلوي، دار الكنوز الادبية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ص١٨.

(٣٧) يُنظر: الحديث عن المرأة والديانات، الصادق النهيوم، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م. فقد ذكر صاحب الكتاب هذا الموضوع مقارنا بين اليهودية والإسلام، إذ اعترضت اليهودية على فكرة توريث المرأة، إذ أوعز صاحب الكتاب هذه المسألة إلى البناء الاقتصادي لهيكلة القوة اليهودية، حيث كان الموروث محصورا بالابن، وإذا لم يوجد فقد ألزمت المرأة بالزواج من رجل معين أو تتخلى عن الإرث، حيث إن قانون الإرث في اليهودية كان قائما على ثلاث حدود:

١- إن المرأة لا ترث إلا إذا امتلكت أخا ذكرا.

٢- المرأة ملزمة بالزواج من أقرب أبناء عمها إليها إذا أرادت الاحتفاظ بإرثها.

٣- إن الميراث نفسه لا يُقسم إلا بين الذكور فقط أو الإناث فقط، لكن النص القرآني أول نص ديني دحض القاعدة...ونعني بالقاعدة هنا: أن كل الديانات كانت لها النظرة نفسها في مسالة إرث المرأة ، فقد وقف قانون الإرث في الإسلام عند حدين هما:

١- حق المرأة في الميراث سواء أكان المورث قد خلف ذكرا أم لم يخلف.

٢- حق الوالدين في نصيب من ذلك الميراث. يُنظر: الكتاب من ص٢٥ - ص٢٧.

(٣٨) البرهان في تفسير القرآن، سيد هاشم بن سلمان الحسيني البحراني، مؤسسة البعثة، ط١، قم، ١٤١٥هـ ق٤، ص٥٤٤.

(٣٩) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٠) عندما نتواصل نغير / مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، د. عبد السلام عشيري، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م، (د. ط)، ص١٠٩.

(٤١) يُنظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٨م، ص١١٧.

(٤٢) البرهان في تفسير القرآن، سيد هاشم بن سلمان الحسيني البحراني، مؤسسة البعثة، ط١، قم، ١٤١٥هـ ج٤، ص٥٤٤.

(٤٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٤٥.

(٤٤) يُنظر: تفسير القرآن الكريم، أبو حمزة ثابت بن دينار الثمالي، دار المفيد، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ ص٢٧٦.

(٤٥) يُنظر: الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، هاجر مدقن، منشورات الاختلاف، دار أمان، منشورات ضفاف، ط١، ٢٠١٣م، ص١٦٤.

(٤٦) يُنظر: حجاجية اللغة في الحوار القرآني، جميلة بكوش، مجلة فصل الخطاب، العدد الثالث، جامعة بن خلدون - تيارات، الجزائر، ٢٠١٣م، ص١٩١ - ١٩٢.

(٤٧) استراتيجيات الخطاب التداولي، الشهري، ص٤٣.

(٤٨) يُنظر: كتاب الصناعتين، أبو الهلال العسكري، ص١٣٢.

(٤٩) يُنظر: استراتيجيات الخطاب، الفهري.

(٥٠) نقلا عن تداولية الخطاب السردي / دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، محمود طلحة، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ٢٠١٢م، ط١، ص١٠٣.

(٥١) يُنظر: ترجمة الأمثال القرآنية وتحديات ثقافة الآخر، الالة مريم بلنشية وأسماء الموجي، ضمن ترجمة البلاغة القرآنية بين أسئلة الهوية وثقافة الآخر، تأليف: حسن دريد، عبد الحميد زاهيد، سلسلة الترجمة والمعرفة، عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٢م، ص٢٦.

(٥٢) مكونات خطاب السيدة الزهراء عليها السلام في الخطبة الفدكية / قراءة ملامحها الحجاجية وعلاقاتها الأسلوبية، د. حيدر محمود شاكر الجديع، مجلة دراسات إسلامية معاصرة، تصدر عن جامعة كربلاء، كلية العلوم الإسلامية، العدد١٦، آذار٢٠١٧، ص١٧٨.

(٥٣) تقابلات النص وبالغة الخطاب / نحو تأويل تقابلي، محمد بازي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م، ص١٤.

(٥٤) المصدر نفسه، ص١٨.

(٥٥) المصدر السابق، ص٢٨.

(٥٦) عندما نتواصل نغير / مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، د. عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٦م، (د.ط)، ص٢٠٥.

(٥٧) الفلسفة والبلاغة / مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، د. عمارة ناصر، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٥.

(٥٨) يُنظر: الخطبة كاملة في (بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار)، محمد باقر المجلسي، دار الرضا، (د.ط)، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، المجلد٢٩، ص٢٢٨- ٢٣٠.

٩

ذكر النبي الأمي وأهل بيته في القرآن الكريم

دراسة قرآنيّة لغويّة

م. م. عبدالله خليل زباري العبادي
الجامعة الاسلامية - كلية علوم القرآن

النصوصُ القرآنيةُ التي ورد فيها لفظُ الأُمّي والأمّيين:

لا بُدَّ من ذكر النصوص القرآنية التي ورد فيها لفظ الأمّي والأمّيين؛ لكي يكون القارئ على بيّنة من مدى استعمال القرآن لهذه اللفظة، وإليك ذكر النصوص القرآنية مورد البحث:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(الأعراف١٥٧-١٥٨).

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران١٥٧-١٥٨).

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(سورة آل عمران٧٥). ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ

أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(الجمعة٢-٥).

ولا بُدَّ من التدقيق في فهم معانيها، وأن يُرَى سياق ورودها، ويُقيِّمَ التفسيرين المختلفين لها في نهاية هذا البحث إن شاء الله، حيث يوجد لها تفسيران:

الأوَّل: الأُمِّي: الذي لا يعرف القراءة والكتابة.

الثاني: الأُمِّي: المكي، إذْ النسبة إلى مدينة (أُمّ القُرى) وهو أحد أسماء مكة: أُمِّي.

إذاً وردت لفظة (الأمِّي) مرَّتين في القرآن الكريم وفي سورة الأعراف حصراً، كما وردت لفظة (الأميِّين) ثلاث مرَّات، مرَّتين في سورة آل عمران ومرَّة في سورة الجمعة.

ونلاحظ أنَّ لفظ (الأُمِّي) أو (الأُميِّين) جاء مقترناً بذكر أهل الكتاب، وكأنّه قسيمه المقابل له، وسيظهر أثناء البحث سبب ذلك وحكمته.

معنى لفظة (الأُمّي) في اللغة العربية:

لفظة (الأُمِّي) في اللغة العربية هي نسبة لـ(أمّ القرى) وهي مدينة مكة، أو قرية مكة، حيث كانت تسمَّى (مكة): أُمّ القرى[1]، كما قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾(الشورى٧)، فالمراد من لفظة (أمّ القرى) هنا مكة، حيث كانوا يطْلِقونَ اسم القرية على المدينة في الزمن القديم[2]، وبالتالي يسمُّون المدن: قُرى، وبذلك جاء الاستعمال القرآني، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**﴾(الأعراف٩٤)، فكانوا يسمُّون مكة إذاً: (أمَّ القرى) أي أمَّ المدن؛ لما لها من دور مركزي في حياة العرب؛ حيث فيها بيت الله الكعبة المشرَّفة، وغالباً ما كان فيها آباء النبي

محمدصلى الله عليه وآله، وكان لهم دور كبير في حياة العرب أكثر ممَّا نتصوَّره عنهم، فهم رؤساء العرب، ولا أقلَ دينياً[٣]؛ لما لهم من دور في رسم خطط لحفظ العرب وحفظ أصالتهم، وحفظ دين إبراهيم وإسماعيل، فعن أبي جعفر الباقر قال: «لم يزل بنو إسماعيل ولاة البيت يقيمون للناس حجَّهم وأمرَ دينِهم، يتوارثونه كابراً عن كابر...»[٤].

لكنَّ هذه النسبة أُشْكِلَ عليها بأنّه يفترض أن يقال: قروي، أي النسبة للمضاف إليه لا للمضاف، فالنسبة تكون للجزء الثاني لا للأوَّل، كما هي عادة العرب في لغتهم، فمثلاً النسبة لـ(أمّ الحصى): حصوي، كما أنَّ النسبة لـ(أبي الخصيب): خصيبي. فما كان مضافاً لأب أو أم ينسب للجزء الثاني أي المضاف إليه لا للجزء الأوَّل أي المضاف[٥].

والجواب: أنّنا لو قلنا: قروي، نسبة إلى: أمّ القرى لالتبست هذه النسبة بنسبة أخرى، وهي النسبة لكلمة (قرية)؛ إذ النسبة إليها: قروي.

وعليه فلفظة (الأُمِّي) أو(الأُمِّيين) نسبة لـ(أُمّ القُرى)، فهو مصطلح ديني في قبال مصطلح (كتابي) أو(أهل الكتاب) وهو مصطلح ديني أيضاً؛ فتعني الأولى أي (الأُمّي) من كان على دين النبيين إبراهيم وإسماعيل، وأنَّ حَجَّهُ إلى الكعبة، أي أنّه مرتبط دينياً بمدينة أمّ القرى، كما تعني الثانية (أي كتابيّ) من كان على دين النبي موسى أو دين النبي عيسى.

وهذا هو المفهوم من الاستعمال القرآني كما في قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ**﴾، أي أنَّ اللهَ تعالى يدعو نبيَّهُ لدعوةِ أمّتين:

إحداهما: تابعة للنبي إسحاق والأنبياء من ذريته مثل النبيين موسى وعيسى فسمَّاهم بالذين ﴿**أُوْتُواْ الْكِتَابَ**﴾ كما في سورة آل عمران.

وثانيهما: تابعة للنبي إسماعيل

والصفوة من ذريّتِه. والذين يتميَّزون بحجِّهم إلى أوَّل بيتٍ وضعه الله للناس، وهو البيت العتيق (الكعبة المشرفة) والكائن في أمِّ القرى (مكة)، حيث سمَّاهم (الأُمِّيِّينَ).

النبي الأمي (محمد) وأهل بيته من ذرِيّة النبي إبراهيم:

أنجبت هاجر (أمة النبي إبراهيم أو زوجته) ولداً للنبي إبراهيم فسمَّاه إسماعيل؛ لأنَّ اللهَ سمع دعاءَهُ فيه، ولكنَّ اللهَ أمرَهُ بأخذه مع أمِّهِ هاجر إلى برية فاران[٦]، ووضعه عند قواعد بيت الله ببكة، وعاد إلى وطنه بأمر الله، وجرت أمور كثيرة وابتلاءات صعبة للنبي إبراهيم، كان قِمَّتُها أن رأى رؤيا أنّه يذبح ولده إسماعيل قربة لله بعدما كبر إسماعيل حيث عاش في مكة، وأنبأ النبي إبراهيم ولدَه إسماعيل وحيده بذلك، فأسلم إسماعيل لذلك، أي سَلّمَ لامتثال الأمر الإلهي صابراً محتسباً، وكان حليماً كما أنبأ الله عنه، ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾(الصافات١٠٠-١٠٢).

ولمَّا أوشك إبراهيم على ذبحه أظهر الله إرادته الجدية في ذلك، وهي إبقاء إسماعيل، وذبح كبشٍ فداءً له، كما قال الله تعالى فيما اقتصّ لنا من قصته: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾(الصافات١٠٣-١١١)، ومنذ ذلك اليوم وإلى ما شاء الله يضحَّى بالذبائح في أرض منى إحياءً لهذه الشعيرة.

وولد لإبراهيم ولدٌ آخر بعد قصّةِ

نزول العذاب على قوم لوط وسمَّاه إسحاق؛ لأنّه سيسحق الله به وبذريته الشرك والكفر والطغيان، كما بشّره بولد يعقب والده إسحاق، اسمه يعقوب ويكنّى بإسرائيل، تنتهي إليه مواريث الأنبياء، وسيكون من نسله أنبياء كثر، فاستبشر إبراهيم به وبذريته، وهذا ما يفهم من مجموعة من الآيات وردت في سور عدة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾(الصافات١١٢-١١٣). إذن، ذكر الله تبارك وتعالى بشارتين لإبراهيم في سورة الصافات:

الأولى: البشارة بولادة الغلام الحليم، ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾ ولم يذكر اسمه، وأمر والده إبراهيم بذبحه، ثمَّ رفع الذبح عنه وفداه بكبش من الجنة ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾(الصافات١٠٧).

الثانية: البشارة بولادة إسحاق، وقد صرَّح باسمه، ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾.

وقد جرت بركة الله تبارك وتعالى عليهما. أمَّا إسحاق فالأمر بيّن، (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ)، وكما في قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾(هود٧١-٧٣).

وأمَّا إسماعيل فسيتضح ذلك بعد ذكر الآيات من سورة البقرة وتحليلها. وبولادتهما كما قصّ الله علينا في سورة الصافات صار للشجرة الإبراهيمية المباركة فرعان مباركان.

شجرة النبوة الإبراهيمية لها فرعان مباركان:

الأول: الفرع الإسحاقي، وهو الفرع الأصغر للولد الأصغر للنبي إبراهيم، وهو

النبي إسحاق وقد ختمت سلسلة الأنبياء من ذريته بالنبي عيسى بن مريم، فهو من ذرية إسحاق من طرف الأم، حيث شاء الله أن تحمل به العذراء البتول الصديقة مريم بنت عمران العظيم من غير مقاربة رجل، بل بنفخة من ملك الوحي جبرائيل وكان يبشِّر بمجيء النبي العربي الأُمِّي، يعني المكي: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾(الصف٦). وكما قال الله تبارك وتعالى:﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**﴾؛ ولأنَّ العرب كان يسكن جلّهم وأهمُّ قبائلهم ما بين الفرات واليمن، كان لابدَّ من تعيين المنطقة الجغرافية التي سيبعث فيها ذلك النبي، الذي هو خاتم النبيين وخامس الرسل من أولي العزم.

الثاني: الفرع الإسماعيلي، وهو الفرع الأكبر للولد الأكبر للنبي إبراهيم وهو النبي إسماعيل، الذي سكن في مكة المكرَّمة بقرب الكعبة المشرَّفة، والممتحن بفراق أبيه (إبراهيم)، والممتحن بسكنى وادٍ غيرِ ذي زرعٍ: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾(إبراهيم٣٧)، والممتحن بالذبح، فوعد الله إبراهيم وإسماعيل[٧] – بعد بنائهما الكعبة وقصّةِ الذبح – أن يهب لهما أعظم نبي رسول، وهو خاتمهم وسيدهم، واثني عشر سيِّداً وإماماً من ذريته، أوَّلهم علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين ولدا علي وفاطمة بنت محمد سيدة نساء أهل الجنة، ثم تسعة أئمة من ذرية الحسين وهم: (السجاد والباقر والصادق والكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري

والمهدي)، والمهدي هو خاتم الحجج لله على وجه الأرض، وهو الذي ينتسب من جهة الأب إلى النبي إسماعيل، فلونه لونٌ عربي، ومن جهة الأمّ إلى النبي إسحاق ولذا جسمه جسمٌ إسرائيلي[٨]، وهو الذي يغيب غيبة تطول حتى يشكّ من يشكّ بخط الأنبياء والرسل والأوصياء، ويرتاب من يرتاب بآل محمد[٩]، ثم يظهر كالشهاب يتوقّدُ في الليلة الظلماء[١٠]، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلِئَتْ ظلماً وجوراً[١١]، فيقيم دولة التوحيد والعدل، ويظهر دين محمد الذي هو دين الأنبياء والرسل (آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى)[١٢].

الوعد الإلهي للنبي إبراهيم:

وعد الله عزّ وجلّ إبراهيم وإسماعيل بالنبي الخاتم الذي هو سيّد المرسلين، وبالأئمة الاثني عشر الأطهار، كما قال الله ذلك في القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ

نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(البقرة١٢٤-١٣٢). ففي هذه الآيات تظهر دعوة إبراهيم وولده إسماعيل واضحة في طلب ولادة النبي الخاتم والأئمة من آل محمد معه، حيث سمَّوها بـ(الأمّة المسلمة).

فالمراد من قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي اجعلنا (مُسَلِّمَيْن) لك بالتسليمِ التامّ إلى درجة الاستعداد للتضحية بالنفس، ولو بأن يذبح الوالدُ ولدَهُ في سبيل مرضاة الله، وإعلاءً لكلمته، وصبر الوالد الرحيم والولد البار على الذبح من غير جرمٍ ارتكباه، ولا شكَّ أنَّ هذا بلاءٌ مبينٌ من الله لعباده الذين اصطفى، بل لملائكته وعباده المؤمنين؛ إذْ قد يشك بعبثية هكذا تكليف، ثمَّ يرتقي الشك إلى خط الأنبياء والرسل.

الأمَّة المسلمة في القرآن الكريم:

أوَّل ما ينبغي أن نورده في هذا المبحث مسألتين أو مقدِّمتين مهمتين؛ لكي نصل إلى نتيجة صحيحة، وهما:

١- ألّف علماء اللغة العربية والدراسات القرآنية كُتُباً في علمٍ اسموه علم الأشباه والنظائر[١٣]؛ إذْ تنبهوا لظاهرة مهمة، حيث وجدوا أنَّ اللفظة الواحدة قد ترد مرات عدة في القرآن الكريم، ولكن ليس بمعنى واحد في كلِّ الموارد، بل بمعانٍ عدة، فمثلاً لفظة: (الخير) جاءت بكثرة، ولكن ليست بمعنى واحد، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران١٠٤)، تعني: العدل والإصلاح[١٤].

وأمَّا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ *

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(العاديات٦-٨)، فتعني: المال[١٥]؛ ولذا ذمَّ الله مَنْ يحبُّهُ، ولا يعقل أن يكون الفعل الحسن، فكم يوجد من فرق بين المعنى الأول والمعنى الثاني.

وهكذا لفظة (الأُمَّة)، وردت في القرآن الكريم مرّات عدّة، ولها معانٍ عدّة، فقد تأتي بمعنى: عصر من العصور البشرية كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ...﴾(يونس٤٧). وتأتي بمعنى: الجماعة كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران١١٣). وتأتي بمعنى: الأئمّة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾(البقرة١٤٣). فهنا جاءت بمعنى (الأئمة)، وبذلك جاءت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام[١٦].

٢- إنَّ ما يحدِّدُ المعنى الفارق للفظة هو السياق أوّلاً، والسنّة الشريفة إن وجدت ثانياً. وأمَّا المعجم اللغوي وكتب اللغة مثل كتب الأشباه والنظائر اللغوية فقد تعطينا للفظة الواحدة معانيَ عدة، وبالتالي فهي لا تحدد معناها في هذا النص أو ذاك تحديداً دقيقاً.

وعليه فليس من الضروري أن تكون لفظة (المسلمون) أو (المسلمين) بمعنى واحد في القرآن الكريم، فقد نستعمل كلمة (مسلم)، وكلمة (مسلمون) و(مسلمين) بمعنى من شهد الشهادتين وصلّى وصام، من دون أن نعرف حقيقة إيمانه ومدى تسليمه لله وأوامره، وقد تستعمل في التعبير القرآني بمعنى المسلِّم لله بالتسليم التام، أي صاحب يقين راسخ، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(البقرة:١٢٨). وقد وصل إبراهيم الخليل وولده إسماعيل إلى هذه المرتبة من التسليم حيث أقدما على الذبح

طائعين ومُسَلِّمَيْن لله، كما وصل إليها بالفعل الأئمة الأطهار من ذريتهما، أعني محمدا وآله، والتي عبَّر عنها القرآن الكريم بـ﴿أُمَّة مُسْلِمَة﴾[17].

وكذلك تحدَّثَ عنهم الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾(الحج٨٧). فقد سمَّى النبيُّ إبراهيمُ محمداً وآلَ محمدٍ في سورة الحج بـ(المسلمينَ) وكان قد طلبهم من الله في سورة البقرة كما تقدَّمَ ذكره، وطلب أن يبعث فيهم رسولاً منهم: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(البقرة١٢٨-١٢٩). وعليه فهذا هو المراد من طلبهما من الله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، فحرف الجر (مِنْ) يفيد التبعيض، أي ربَّنا اِجعل بعض ذريّتنا (أُمّة مُسَلِّمَة) ومضحية في سبيلك، وهذا ما تصدِّقُهُ الأحاديث الكثيرة والمتواترة عن رسول الله في فضل أهل بيته من جهة[18]، وما تصدِّقُهُ سيرةُ أهل البيتِ والأحداثُ التي صارَتْ الآن ناجزة من جهة أخرى[19]. وهذا معنى الحديث الوارد عن رسول الله: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[20]، ومعنى ما ورد عن أهل البيت: «نحن دعوة أبينا إبراهيم»[21].

إذاً البركة جرت على إسماعيل أيضاً. وقد ورد ذكر هذا الدعاء واستجابته في التوراة التي أُنزلت على النبي موسى الكليم، فقد أورد النعماني (ت٣٦٩هـ) في كتابه الغيبة في الباب الرابع (في أنّ الأئمة اثنا عشر إماماً وأنّهم من الله باختياره) ما نصُّه: «...ويزيد بإذن الله

تعالى هذا الباب دلالة وبرهاناً وتوكيداً تجب به الحجة على كلّ مخالف معاند وشاكٍّ متحير، بذكر ما نُدِب إليه في التوراة وغيرها من ذكر الأئمة الاثني عشر ليعلم القارئ لهذا الكتاب الحق كلما شرح أضاءت سرجه، وزهرت مصابيحه، وبهر نوره فيما ثبت في التوراة ممّا يدلّ على الأئمة الاثني عشر ما ذكره في السفر الأوّل فيها من قصة إسماعيل بعد انقضاء قصة سارة، وما خاطب الله تعالى به إبراهيم في أمرها وولدها قوله عزّ وجلّ: «وقد أجبت دعاءك في إسماعيل، وقد سمعتُ ما باركته، وسأكثره جداً جداً، وسيلد اثني عشر عظيماً، أجعلهم أئمة كشعبٍ عظيم». أقرأني عبدالحليم بن الحسين السمري - رحمه الله - ما أملاه عليه رجل من اليهود بأرّجان يقال له الحسين بن سليمان من علماء اليهود بها، من أسماء الأئمة بالعبرانية وعدّتهم، وقد أثبته على لفظه، وكان فيما قرأه أنّه يبعث من ولد إسماعيل - في التوراة إشموعيل - يسمّى «مامد»، يعني محمد، يكون سيداً، ويكون من آله اثنا عشر رجلاً أئمة وسادة يقتدى بهم، وأسماؤهم: «توقبيت، قيذوا، ذبيرا، مفسورا، مسموعا، دوموه، هذار، يثمو، بطور، نوقس، قيدموا».

وسئل هذا اليهودي عن هذه الأسماء في أي سورة هي؟ فذكر أنّها في مشلي سليمان، يعني قصة سليمان، وقرأ منها أيضاً قوله «وليشمعيل شمعتيخا هِنّبيّ برخّتي أوتو وهيفريتي أوتو وهيريتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ونتتيو لغوي غادل».

وقال تفسير هذا الكلام: «أنّه يخرج من صلب إسماعيل ولدٌ مباركٌ، عليه صلاتي وعليه رحمتي، يلد من آله اثني عشر رجلاً يرتفعون ويبجلون، ويرتفع اسم هذا الرجل ويجلّ ويعلو ذكره». وقرأ هذا الكلام والتفسير على موسى بن عمران بن زكريا اليهودي فصححه،

وقال فيه إسحاق بن إبراهيم بن بختويه اليهودي الفسوي مثل ذلك، وقال سليمان بن داود النوبنجاني مثل ذلك»[٢٢].

أحاديث رسول الله في أهل بيته:

لقد صدرت من رسول الله في فضل أهل بيته أحاديث كثيرة يصعب على الباحث الإلمام بها كلها، وهذه الأحاديث منتشرة في كتب المسلمين من الفريقين، ونجدها في كتب الأحاديث عموماً، وكتب السير والتواريخ والتفاسير وكتب أخرى، وقد نجدها في كتبٍ مخصّصَةٍ لذكر فضائل أهل البيت. فمن ذلك قول رسول الله: «يا علي أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي»[٢٣]، وقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢٤]، وقوله: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أنبأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[٢٥]، وقوله: «مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّفَ عنها غرق»[٢٦]، وقوله: «إنَّ هذا الأمر لن ينقضي حتى يملك اثنا عشر خليفة، كلُّهم من قريش»[٢٧]

سيرة أهل البيت والأحداث التي جرت عليهم:

لقد جرت على أهل البيت أحداث كشفت مديات تسليمهم لله، منها: مبيت علي بن أبي طالب في فراش رسول الله عند الهجرة، حيث أخبره النبي أنّه قد نزل الوحي من الله يأمره بالهجرة إلى المدينة، فقال له علي بن أبي طالب: أتنجو يا رسول الله إذا نمت بفراشك؟ فقال له النبي: نعم يا علي، فقال له عليٌّ: اذهب فداك نفسي يا رسول الله، فنام عليٌّ في فراشه يفديه بنفسه[٢٨].

ومنها: في معركة أحد حيث فرَّ المسلمون في الجولة الثانية من المعركة، فحمل خالد بن الوليد وأصحابه على رسول الله ليقتلوه، فحامى عنه علي بن أبي طالب وطرد الكتائب عنه، فأثخن

بالجراح، وغيره لاذ بالجبال فراراً[٢٩].

ومنها: معركة كربلاء وقتل الحسين، فقد ظهر مدى تسليم أهل البيت وعظم تضحيتهم في هذه الواقعة والفاجعة الأليمة لقلب كلّ حر[٣٠].

هل تعلَّم النبي محمد عند أحد؟

لم يحدِّثنا التأريخُ أنّ النبيَّ محمداً تلقّى التعليم عند أحد من الناس، حتّى القراءة والكتابة، وفي ذلك حكمة إلهية؛ لكي لا يقول المرتابون والمشكِّكون برسالة النبي أنّه جاء بهذه التعاليم وهذا العلم من معلميه، ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾(العنكبوت٤٨)، فيحدثوا لغطاً وإعلاماً يشوِّش على الناس، فسدَّ اللهُ عليهم الطريق من البداية، فإذا ثبت أنّه لم يتعلم عند أحدٍ من الناس، فمن أين جاء بكلِّ ذلك العلم والتعاليم؟. وهذا التساؤل المنطقي هو ما يريده الله من عباده؛ لكي يصلوا إلى الحقائق، وإنَّ النبي محمداً جاء بها من جهة عالم الغيب، من عند الله؛ حيث لا يوجد تفسير منطقي سوى ذلك.

لكنَّ عدم تعلم النبي محمد صلى الله عليه وآله عند أحدٍ من الناس لا ينفي أنّ له قناة معرفية يتعلم منها، وينهل ما يريد من المعارف والعلوم، ويحوز ما شاء من الملكات والكمالات، من هاهنا علينا أن نرجع لأقرب الناس إليه ليحدثونا عنه؛ لأنّهم أعرف الناس به، خصوصاً إذا عرفنا أنّهم محل اطلاع وثقة، لا أن نذهب يميناً وشمالاً في أفكارنا، وقد قال لنا نبينا نبي الرحمة، النبي محمد صلى الله عليه وآله: «أنا مدينةُ العلمِ وعليٌّ بابُها، فمن أراد العلم فليأتها من بابها»، فلماذا لا نبحث في تراث علي بن أبي طالب وهو ابن عمِّه الذي تربّى على يديه وعاش معه؛ ليحدثنا عن هذا الأمر، وفي تراث أهل البيت الذين رزقهم الله فهمه وعلمه.

لقد ورد في إحدى خطب الإمام علي عليه السلام في كتاب نهج البلاغة الذائع الصيت وصف النبي محمد قائلاً: «ولَقَدْ

قَرَنَ اللَّهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ...»[٣١].

وفي حديثٍ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «كان عبدالمطلب يُفْرَشُ له بفناء الكعبة لا يفرش لأحدٍ غيره، وكان له وُلْدٌ يقومون على رأسه فيمنعون من دنا منه، فجاء رسول الله وهو طفلٌ يدرج حتى جلس على فخذيه، فأهوى بعضُهم إليه لينحيه عنه، فقال له عبد المطلب: دع ابني، فإنَّ الملك قد أتاه»[٣٢].

إذن، كان لرسول الله قناة معرفية وعلمية مفتوحة على السماء مباشرة، فهو بفضل الله غني عن تعليم البشر، ثمَّ ما معنى قول الله تعالى له: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾(العلق١-٣)، إذا كان رسول الله لا يحسن القراءة ؟!

أهمية وصف الإمام علي لرسول الله:

يشكِّل وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لرسول الله محمد ﷺ في كتاب نهج البلاغة أهمية بالغة؛ وذلك لأنّ:

١- أمير المؤمنين عاش مع رسول الله ملازماً له أكثر من ثلاثين سنة، وهذه المدة كافية لكي يعرف تفاصيل حياة رسول الله ودقائقها. فقد قال الإمام عليٌّ عن نفسه في الكوفة أيام خلافته: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ؛ وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَ نَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ

أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ»[٣٣].

٢- أمير المؤمنين صادق بل هو الصدّيق الأكبر، وبذلك جاء الحديث عن رسول الله وعنه[٣٤].

٣- أمير المؤمنين عالم دقيق الملاحظة.

٤- أمير المؤمنين يستقي معارفه من القرآن الكريم، ومنها وصف النبي، فقد ورد في الحديث عن رسول الله أنّه قال: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[٣٥]، كما ثبت ذلك أيضاً من خلال دراسة بعض الباحثين[٣٦].

٥- أمير المؤمنين يمتلك فصاحة منقطعة النظير؛ ولذا لديه قدرة على التصوير بدقة.

ولذا سيكون وصفه للرسول الكريم في غاية الأهمية، وجدير بالدراسة.

وعند دراسته لا نجد بتاتاً ما يشير ولو من بعيد إلى أنّ الرسول كان لا يحسن الكتابة، بل على العكس هناك نصوص توحي أنّه كان يعرف القراءة والكتابة. منها قوله: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ...»[٣٧]، فكيف يرسله بالكتاب المسطور وهو لا يحسن قراءته، ويريد أن يعلمه للناس؟ أي كيف يعلِّم ما لا يحسن قراءته وكتابته؟.

ومنها قوله: «فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ، جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وَ شَرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ»[٣٨]. ومنها (يعني آل النبي عليه الصلاة والسلام): «هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ وَكُهُوفُ

كُتُبِهِ وَجِبَالُ دِينِهِ بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ»[٣٩].

فمن هذا العالِم؟ وكيف يكون عالماً وهو لا يحسن القراءة والكتابة؟ أيكون رسول الله أقلّ كمالاً منه؟ ثمّ ينبئُنا الإمام عليٌّ أنّ أهل البيت كهوف كتب رسول الله، أي عند رسول الله كتب.

ومنها قوله: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ»[٤٠].

فقول الإمام علي: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً» له مفهوم وهو: فجاء محمد يقرأ كتاباً ويدّعي نبوّة. وهكذا لو فتّشنا كل النصوص المأثورة عن الإمام علي في وصف النبي محمد صلى الله عليه وآله فإنّنا لا نجد ما يشير صراحة إلى أمية النبي بمعنى عدم قدرته على القراءة والكتابة، وهكذا وصف الأئمة من آل محمد.

رواية غريبة عن الإمام الرضا عليه السلام في وصف النبي:

وردت رواية عن الإمام الرضا عليه السلام قد يُفهم منها أنّ النبي محمد صلى الله عليه وآله لم يكن يعرف القراءة والكتابة، في مناظرة له مع أحد رؤساء الأديان يُدعى رأس الجالوت، قال فيها الإمام الرضا عليه السلام: «وكذلكَ أمرُ محمدٍ وما جاءَ بهِ كلُّ رسولٍ بعثَهُ اللهُ، ومن آياتِهِ أنّهُ كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً، لم يتعلّم كتاباً، ولم يختلف إلى معلِّم، ثمّ جاءَ بالقرآنِ الذي فيه قصصُ الأنبياءِ وأخبارِهِم حرفاً حرفاً، وأخبارُ مَنْ مضى ومَنْ بقي إلى يوم القيامة»[٤١]. فقوله: «لم يتعلم كتاباً، ولم يختَلِفْ إلى معلِّمٍ» عند التدقيق في معنى الكلام لا تعني لا يعرف القراءة والكتابة، وإنّما تعني لم يكن يتعلم التوراة أو الإنجيل عند معلّمٍ من علماء أهل الكتاب، لكي يُشْكَلَ عليه بأنّه جاءَ بقصص الأنبياءِ والأخبار بالمغيّبات ممّا درس من الكتب، وممّن تعلم عنده من

أساتذته. وعليه أن يتساءل المنصف والباحث عن الحق: من أين جاء محمدصلى الله عليه وآله بكل هذه المعلومات مع أنّه لم يتعلّم عند أهل الكتاب ولا كان يقرأ في كتبهم ؟!.

وعليه فليس له تفسير إلّا أن نعترف أنَّ الوحي قد جاء إلى محمدصلى الله عليه وآله بأمر الله عزّ وجلّ، ومن ثمّ الاعتراف بنبوة محمد وبعثته من قبل الله عزّ وجلّ. وهذا ما يريد الإمام الرضا قوله لرأس الجالوت.

وكيف يغيب عن الإمام الرضا وصف جدِّه الإمام جعفر الصادق لرسول الله: «...بَشّرَتْ بِهِ الأنبياءُ في كُتُبِها، ونَطَقَتْ بِهِ العلماءُ بنعتِها، وتأمّلَتْهُ الحكماءُ بوصفِها، مهذّبٌ لا يدانى، وهاشميٌّ لا يُوازَى، وأبطحيٌّ لا يُسامى... ابتعثَهُ رحمةً للعبادِ، وربيعاً للبلادِ، وأنزلَ اللهُ إليهِ الكتابَ فيه البيانُ والتبيانُ، قرآناً عربياً غيرَ ذي عوجٍ لعلّهُم يتّقون، قد بيّنَهُ للناس، ونهجَهُ بعلمٍ قد فصّلَهُ، ودينٍ قد أوضحَهُ...»[٤٢]. هذا محال بحقّ الإمام الرضاعليه السلام.

ولستُ أدري لماذا التعلق بصفة الأُمِّي بمعنى الذي لا يقرأ ولا يكتب وترك كلّ هذه الصفات البهية الجميلة للنبي المختار؟!، وكأنّ الإعجاز بالقرآن يبطل إذا قلنا بأنّ النبي كان عالماً قبل البعثة، وأنّه كان يحسن القراءة والكتابة، نعم علمه لم يكن من خلال تعلمه في مدرسة وعند معلّمٍ بشري كما أشير له في البحث سابقاً، ولا يوجد في كتب السير والتواريخ أنّ النبي كان يختلف إلى معلّم.

بقية الروايات الواردة في معنى الأُمِّي:

الروايات الواردة في تفسير لفظة (الأمّي) تفاوتت بين ما يطابق ما توصّلَ له البحث، وبين ما هو غير واضح في الموافقة أو المخالفة، وبين ما يخالف ما توصّلَ له البحث، ولنعرض إحدى هذه الروايات، وهي ما يوافق ما توصّل إليه

البحث، وهي رواية عن إمامنا أبي جعفر محمد الجواد، فقد روى الشيخ الصدوق في كتابه (عيون أخبار الرضا) عن شيخه ابن الوليد عن سعد بن عبدالله عن الخشاب عن علي بن حسان وعلي بن أسباط وغيره رفعه عن أبي جعفر (الإمام الجواد)، «قال: قلتُ: إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله لم يكتب ولم يقرأ، فقال: كذبوا لعنهم الله، أنّى يكون ذلك وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾(الجمعة٢).

فيكون يعلِّمُهُم الكتابَ والحكمةَ وليس يُحْسِنُ أن يقرأ أو يكتب؟!، قال: قلت: فلِمَ سُمِّي الأمِّي؟ قال (أي الإمام الجواد): نُسِبَ إلى مكة، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...**﴾(الشورى٧)، فأمّ القرى: مكة، فقيل: أُمِّي لذلك»[٤٣].

مَنْ أوَّل من وصف النبي بأنَّه لا يحسن القراءة والكتابة؟

لمَّا وصلَ أعداءُ رسولِ الله بنو أمية إلى الحكم بعد أن أتقنوا فن النفاق، وبمساندة أهل النفاق، عملوا على تحطيم شخصية الرسول الكريم سرّاً؛ وذلك بوضع روايات على ألسن منافقي الصحابة، مؤدّاها أن تنطبع صورة عن رسول الله في ذهن المسلم غير الصورة الحقيقية؛ الهدف منها غرضان:

الأوّل: تنفيذ حقدهم على النبي محمدﷺ؛ لأنّه حطّم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله، ودينهم الذي يستحلون به الربا والزنا وشرب الخمر و... إلخ.

الثاني: لكي يتّسع لهم المجال فيما يفعلونه من أمور تخالف الشرع الحنيف؛ لأنّه إذا كان رسول الله يتّصف بهذه الصفات، ويفعل مثل هذه الأفعال، ويقع في مثل هذه الأخطاء بحجة كونه بشرا،

وبحجة هذا ما جاءت به الأخبار، فإذا كان الأمر كذلك فلا حرجَ على خليفته أن يتصف بمثل صفاته ويعمل مثل أعماله[٤٤].

كما عملوا بكلّ صلافة على تحطيم شخصية علي بن أبي طالب علناً وتنفير الأمَّة منه، وقاتلوه مجتهدين في قتاله في معركة صفين، مدَّعين أنّه يحمي قتلة عثمان ويتستر عليهم بالباطل، وأنّهم أولياء دم عثمان الشرعيين، وبعد ذلك ادَّعى أتباعهم أنّهم مأجورون على قتالهم للإمام علي؛ وذلك لأنّهم مجتهدون، والمجتهد إنْ أصاب فلهُ أجران وإنْ أخطأ فله أجرٌ واحد[٤٥]. ولم تنتهِ معركتهم مع الإمام علي بصفين، فتتبعوا أنصاره من الصحابة وقتلوهم وأذلّوهم وقهروهم، وتتبعوا شيعته من أهل المصرين الكوفة والبصرة فقتلوهم، ولم يسمحوا لهم بنشر علومهم التي تعلموها من إمامهم علي بن أبي طالب، وتبنّوا نشر أفكار وأحاديث تنسجم وتوجهاتهم المعادية للإسلام وأهله بشكلٍ مبطّن، ومن جملة هذه الأفكار كون الرسول لم يكن يحسن القراءة والكتابة[٤٦]. ثمَّ مُزِجَتْ هذه الفكرة مع فكرة الإعجاز فانطلت على عامة المسلمين، وقد تبيَّن من خلال البحث أنَّ هناك فرق كبير بين كون النبي محمدﷺ لم يتعلّم عند بشر، وكونه لا يحسن القراءة والكتابة.

وصف رسول الله بالأُمّي مدحٌ وتعريف لا ذم:

هذا ما يمكن أن يشمَّ من قوله تبارك وتعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا**

النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَـيْكُمْ جَمِيعًـا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِـــهِ وَاتَّبِعُـــوهُ لَعَلَّكُـــمْ تَهْتَدُونَ﴾(الأعراف١٥٧-١٥٨).

ومن خلال هذا البحث يمكن أن نستنتج أنَّ كلمة (أُمِّي) إنْ لم تكن مدحاً بمعنى النبي الإبراهيمي الإسماعيلي، أي أنَّ النبي الخاتم من ذرية النبي إسماعيل بن النبي إبراهيم، فهي ليست ذمَّاً بمعنى الذي لا يقرأ ولا يكتب، وإنّما إعطاء صفة مميزة للنبي الخاتم، وهي أنّه يبعث من مكة (أمّ القرى). فتحديد الرقعة الجغرافية التي يبعث منها نبي آخر الزمان وخامس الرسل من أولي العزم سيعين كثيراً للاهتداء إليه؛ إذْ لم يبعث أحدٌ من أولي العزم من مكة التي فيها الكعبة المشرفة، فالنبي نوح وهو أوّل أولي العزم من الرسل بعث في أرض العراق، وكذلك النبي إبراهيم، وأمَّا النبي موسى ففي أرض مصر، وأمّا النبي عيسى ففي أرض الشام.

ولذا نجد لفظة (الأُمِّي) ترد على لسان الإمام زين العابدين علي بن الحسين مع مجموعة من الألفاظ المبينة والمرادفة لها في أحد أدعيته حيث يقول: «...اللهمَّ بذمّةِ الإسلامِ أتوسَّلُ إليكَ، وبحُرْمَةِ القرآنِ أعْتَمِدُ عليكَ، وبحُبِّيِّ النبيِّ الأمِّيِّ القُرشيِّ الهاشميِّ العربيِّ التهاميِّ المكيِّ المدنيِّ أرْجُو الزُّلْفَةَ لديكَ...»[٤٧]، فلا يمكننا أن نتصور أنَّ الإمام زين العابدين يتوسَّلُ إلى الله بالنبيِّ محمد قائلاً أتوسَّلُ اليك يا إلهي بالنبي الذي لا يحسن القراءة والكتابة! إذْ لا معنى لهذا الكلام، ومن الواضح أنَّ هذه اللفظة (الأُمِّي) بمعنى الذي ينتسب إلى أمَّة النبي إسماعيل الساكن في مكة هي التي تناسب الألفاظ الأخرى مثل: «القُرشيِّ الهاشميِّ العربيِّ التهاميِّ المكيِّ...»، وقد تقدَّم القول بأهمية السياق في تحديد معنى اللفظة، وعليه

فلفظة (الأمِيّين) تعني الإسماعيليين أو الذين حجّهم إلى مكة (أم القرى) أو العرب، في قبال أهل الكتاب التي تعني الإسرائيليين أو اليهود والنصارى.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم.

١- الأثر القرآني في كتاب نهج البلاغة دراسة في المضمون والشكل، د. عباس الفحّام، منشورات الفجر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، طبعة دار إسماعيليان، طهران - إيران.

٣- الإرشاد إلى حجج الله على العباد، الشيخ المفيد (محمد بن محمد بن النعمان العكبري ت٤١٣هـ)، طبعة مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، إيران، ط١، ١٤١٣هـ

٤- إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدمغاني، حققه عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣م.

٥- أصول الكافي، الكليني (محمد بن يعقوب ت٣٢٩هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٦- أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. جعفر جواد الخليلي، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠١م.

٧- بحار الأنوار، العلامة المجلسي (محمد باقر ت١١١٠هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين بإشراف الشيخ علي النمازي الشاهرودي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.

٨- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني (الشيخ محسن ت١٠٩١هـ)، منشورات مكتبة الصدر، طهران، إيران، ط١، ١٤٢٢هـ

٩- تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، الشيخ محمد بن محمد رضا القمي المشهدي، تحقيق حسين دركهاني، نشر شمس الضحى، طهران، إيران، ط١، ١٤٣٠هـ

١٠- تفسير علي بن إبراهيم القمي، صححه وعلق عليه السيد طيب الموسوي، منشورات مكتبة الهدى، دار الكتاب، ط٣، ١٤٠٤هـ

١١- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٢- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي السلمي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط٢، ٢٠١٥م.

١٣- السيرة النبوية، سامي البدري، دار الفقه،

قم، إيران، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٤- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، الجوهري (إسماعيل بن حمّاد)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٠م.

١٥- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٢م.

١٦- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٧- عيون أخبار الإمام الرضا، الشيخ الصدوق (محمد بن علي بن الحسين ت٣٨١هـ)، مؤسسة المراقد المقدسة العالمية، النجف الأشرف، العراق، ط١، ٢٠١٢م.

١٨- الكافي، الكليني (محمد بن يعقوب ت٣٢٩هـ)، دار الكتب الإسلامية، قم، إيران.

١٩- كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الاثني عشر، علي بن محمد الخزّاز القمي (من أعلام القرن الرابع الهجري)، تحقيق: محمد كاظم الموسوي وعقيل الربيعي، قم، إيران، ١٤٣٠هـ

٢٠- كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني، تحقيق: علي أكبر غفاري، الناشر مكتبة الصدوق، طهران، إيران، (د. ت).

٢١- لسان العرب، ابن منظور (محمد بن مكرم الأفريقي المصري)، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٢- المدخل إلى دراسة مصادر السيرة النبوية والتأريخ الإسلامي، سامي البدري، مطبعة كيميا، قم، إيران، ط١، ١٤٢٣هـ

٢٣- المراجعات، العلامة عبدالحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق وتعليق: حسين الراضي، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

٢٤- المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الحرمين للطبع والنشر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٧م.

٢٥- مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي (محمد بن الحسن ت٤٦٠هـ)، صححه وأشرف على طبعه: الشيخ حسين الأعلمي، دار الأعلمي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

٢٦- معالم المدرستين، العلامة مرتضى العسكري، مؤسسة البعثة، طهران، إيران، ط١، ١٩٩٢م.

٢٧- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق (محمد

بن الحسين ت٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، انتشارات إسلامي، قم، إيران، ١٣٧٩هـ

٢٨- معجم أحاديث الإمام المهدي، تأليف الهيئة العلمية في مؤسسة المعارف الإسلامية، الناشر مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، إيران، ط٢، ١٤٢٨هـ

٢٩- الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني، تحقيق: محمود شاكر محمود، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

٣٠- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد)، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز.

٣١- نهج البلاغة، الشريف الرضي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم، إيران، ١٤١٣هـ

الهوامش:

(١) الصحاح، الجوهري، ج٥، ص١٨٦٣، مادة (أمم). وينظر: تفسير الصافي للفيض الكاشاني، ٢: ٢٤٢.

(٢) ظ: لسان العرب، ابن منظور، ج١٥، ص١٧٧، مادة (قرا).

(٣) ظ: السيرة النبوية، سامي البدري، ص٤٤-٤٨.

(٤) الكافي، الكليني، ج٤، ص٢١٠، ح١٧.

(٥) ظ: النحو الوافي، عباس حسن، ج٤، ص٧١٣، المسألة ١٧٧.

(٦) ظ: السيرة النبوية، سامي البدري، ص٤٠.

(٧) ظ: ما كتبه العلامة مرتضى العسكري في كتابه معالم المدرستين في ج١، ص ٥٣٨ وما بعدها حيث ذكر بشارة التوراة وتحديداً في العهد القديم - سفر التكوين الإصحاح ١٧ الرقم ١٨-٢٠ من التوراة المتداولة في عصرنا.

(٨) ظ: معجم أحاديث الإمام المهدي، ج١، ص٨١ وما بعدها. فقد جاء في ص١٢٢ ما نصه: «قال رسول الله: المهدي من ولدي، وجهه كالقمر الدِّرِّيّ، اللون لونٌ عربي، والجسمُ جسمٌ إسرائيلي، يملأُ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً، يرضى بخلافته أهل السماء وأهل الأرض، والطير في الهواء، يملك عشرين سنة».

(٩) أصول الكافي، الكليني، ج١، ص٢٣٧، كتاب الحجة، الباب (١٣٧) باب في الغيبة، ح٢ وح٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٤١، ح٢٢.

(١١) ظ: سنن الترمذي، ج٩، ص٧٤. سنن أبي داود، كتاب المهدي، ج٢، ص٧.

(١٢) ظ: كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني، الباب الثالث عشر، ٢٣٧-٢٣٨، الأحاديث: ٢٦، ٢٧، ٢٨.

(١٣) ظ: مثلاً: كتاب ألفاظ الأشباه والنظائر، تأليف عبدالرحمن بن محمد بن سعيد الأنباري.

(١٤) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٢١٢، مادة (خير). وانظر: تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، للعلامة محمد رضا المشهدي، ج٣، ص١٨٩.

(١٥) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني، ص١٦٧.

(١٦) ينظر: تفسير الصافي للفيض الكاشاني، ج١، ص٣٦٦.

(١٧) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(١٨) ظ: كتاب المراجعات للعلاّمة عبد الحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق حسين الراضي، المراجعة رقم ٨، ص٧١.

(١٩) كتبت كتب كثيرة في سيرتهم، ينظر مثلاً: إعلام الورى بأعلام الهدى للعلامة الطبرسي. الدُّر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم للشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي (من أعلام القرن السابع الهجري). منتهى الآمال في سيرة المصطفى والآل للشيخ عباس القمي.

(٢٠) تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج١، ص٦٢.

(٢١)

(٢٢) كتاب الغيبة، النعماني (من أعلام القرن الرابع)، ص١٠٨- ١٠٩.

(٢٣) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٠٠، باب مناقب علي بن أبي طالب. صحيح مسلم ج٧، ص١٢٠، باب من فضائل علي بن أبي طالب. سنن الترمذي ج١٣، ص١٧١، باب مناقب علي ح٣٧٢٥ و ح٣٧٣٠. وينظر: معالم المدرستين، مرتضى العسكري، ج١، ص٥١٢-٥١٤.

(٢٤) ظ: معالم المدرستين، مرتضى العسكري، ج١، ص٥١٥-٥١٦، فقد خرِّج أسناد هذا الحديث عند المسلمين.

(٢٥) ظ: صحيح مسلم ج٧، ص، باب فضائل علي بن أبي طالب. سنن الترمذي ج١٣، ص١٩٩، باب مناقب أهل بيت النبي. خصائص النسائي، ص٣٠. مسند أحمد بن حنبل ج٣، ص١٧، ٢٦، ٥٩. مستدرك الصحيحين، ج٣، ص١٠٩.

(٢٦) المعجم الصغير للطبراني، ج١، ١٣٩. المستدرك للحاكم، ج٢، ص٣٤٣، وج٣، ص١٥٠.

(٢٧) كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الاثني عشر، علي بن محمد الخزاز القمي (من أعلام القرن الرابع الهجري)، ص١١١، ذكر مؤلفه فيه الأحاديث المروية بالأسناد إلى الصحابة إلى رسول الله أنّه نصّ مراراً على كون الأئمة من بعده اثني عشر إماماً.

(٢٨) ظ كتاب: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، د. جعفر جواد الخليلي، ص٣٧. وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، ترجمة علي بن أبي طالب، ج٤، ص١٩.

(٢٩) الإرشاد إلى حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، ج١، ص٧٨.

(٣٠) ظ مثلاً: كتاب مقتل الإمام الحسين، للسيد عبدالرزاق المقرَّم.

(٣١) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، الخطبة القاصعة، الخطبة ١٩٢.

(٣٢) أصول الكافي، ج١، ص٣٢٤، كتاب الحجة، الباب (١٦٨) باب مولد النبي ووفاته، ح٢٦.

(٣٣) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، الخطبة القاصعة، خطبة رقم ١٩٢.

(٣٤) بحار الأنوار، العلَّامة المجلسي، ج٣٨، ص٣٥٧، الباب (٦٥) باب أنّه صلوات الله عليه سبق الناس إلى الإسلام والإيمان والبيعة والصلوات زماناً ورتبةً وأنّه الصديق الأكبر.

(٣٥) رواه الحاكم في كتابه الشهير(المستدرك)، ج٣، ص١٢٤، وانظر التخريجة (٦١١) من كتاب المراجعات للعلامة عبدالحسين شرف الدين الموسوي بتحقيق وتعليق حسين الراضي.

(٣٦) ظ مثلاً: الأثر القرآني في كتاب نهج البلاغة، للدكتور عباس الفحّام.

(٣٧) نهج البلاغة، الخطبة رقم (٢).

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) المصدر نفسه، الخطبة رقم (٣٣).

(٤١) عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، ج١، ص١٢٩، الباب(١٢) باب ذكر مجلس الرضا مع أهل الأديان.

(٤٢) أصول الكافي، الكليني، ج١، ص٣٢١، كتاب الحجة، الباب (١٦٨) باب مولد النبي ووفاته، ح١٧.

(٤٣) عيون أخبار الإمام الرضا، الشيخ الصدوق. وانظر كتاب: (معاني الأخبار) للشيخ الصدوق أيضاً ص٥٣، باب معاني أسماء النبي وأهل بيته، فقد أورد رواية أخرى بسندٍ آخر في هذا المعنى.

(٤٤) ظ: السيرة النبوية، سامي البدري، ص٣٠-٣٥. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، ج١، ص٣٠٩-٣١٢.

(٤٥) ظ: معالم المدرستين، العلامة مرتضى العسكري، ج١، ص٣٤٥- ٣٩٧، كتمان فضائل الإمام علي ونشر سبه ولعنه والسبب فيهما.

(٤٦) ظ: المدخل إلى دراسة مصادر السيرة النبوية، سامي البدري، ص٣٧-٤٢.

(٤٧) مصباح المتهجِّد، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، ص٤١٠، من دعاء للإمام زين العابدين يسمّى بدعاء السحر أو دعاء أبي حمزة الثمالي.

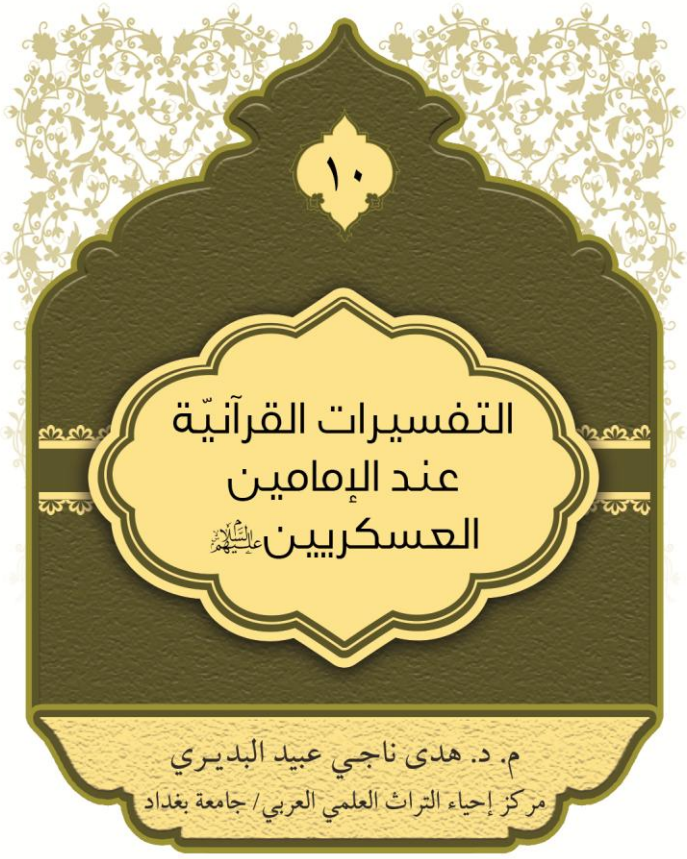
١٠
التفسيرات القرآنيّة
عند الإمامين
العسكريين عليهما السلام
م. د. هدى ناجي عبيد البديري
مركز إحياء التراث العلمي العربي/ جامعة بغداد

المقدمة:

انطلاقا من قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا، ألا وإنّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[1]. آثرتُ أن أفرد بحثا للحديث عن العَلاقة الوطيدة بين القرآن الكريم والإمامين العسكريين عليهما السلام.

عُني أئمة أهل البيت عليهم السلام عناية بالغة بتفسير القرآن الكريم، فكان كل منهم له منهج في التفسير، ومن المقطوع به أنهم أدرى بما في القرآن وأعلم بعمومه وخصوصه، ومطلقه ومقيده، وناسخه ومنسوخه، وكان سيد العترة الطاهرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أعلم من سائر الصحابة بحقائق القرآن ودقائقه، ومحكمه ومتشابهه، ويعلم وقت نزول آياته حسبما صرح به عليه السلام[2]. وأحببتُ أولا أنْ أذكرَ المعنى اللغوي للفظة (تفسير)، وأن أردفه بنماذج من تراث الإمام علي الهادي عليه السلام التفسيري بحسب ما توافر لدي من مصادر. ومن ثَمَ تحدثتُ عن تراث الإمام الحسن العسكري عليه السلام التفسيري وعن التفسير المنسوب إليه المسمى (بتفسير العسكري) والمعتمدين عليه من مراجع الإماميّة كالشيخ الصدوق، والشيخ الطبرسي، والمحقق الكركي، والمحقق المجلسي، الذين آمنوا بصحة نسبته، وقمت بذكر سنده واختلاف العلماء فيه، وأدلة الرافضين له، ونبذة من التفسيرات القرآنية في هذا التفسير. وأخيرا تحدثتُ عن نماذج من تراث الإمام الحسن العسكري عليه السلام التفسيري، واختتمتُ البحث بالهوامش وقائمة المصادر والمراجع.

التفسير لغة:

الفسُر: البيان، فسر الشي يفسره، بالكسر، ويفسره، بالضم، فسرًا وفسره: أبانه، والتفسير مثله، ابن الأعرابي: التفسيُر

والتأويلُ والمعنى واحد، وقوله عز وجلّ: ﴿**وأحسن تفسيرا**﴾[٣]، الفسُر: كشف المغطى، والتفسيرُ كشف المراد عن اللفظ المشكل والتأويلُ: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، واستفسرته كذا أي سألته أن يفسره لي... وكلّ شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته[٤].

نماذج من تراث الإمام علي الهادي عليه السلام التفسيري:

قال يحيى بن هرثمة: مرض المتوكل فنذر إن عوفي ليتصدقن بدراهم كثيرة، فعوفي، فسأل الفقهاء عن ذلك فلم يجد عندهم فرجا فبعث إلى علي الهادي عليه السلام فسأله فقال: يتصدق بثلاثة وثمانين دينارا. فقال المتوكل: من أين لك هذا؟ فقال: من قوله تعالى: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين**﴾[٥]، والمواطن الكثيرة هي هذه الجملة؛ وذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وآله غزا سبعا وعشرين غزوة، وبعث ستا وخمسين سرية، وآخر غزوة له يوم حنين، فعجب المتوكل من هذا الجواب، وبعث إليه بمال كثير، فقال الإمام الهادي عليه السلام: هذا الواجب فتصدق أنت بما أحببت[٦].

وروى العياشي بإسناده عن حمدويه، عن محمد بن عيسى قال: سمعته يقول: كتب إليه إبراهيم بن عنبسة - يعني إلى علي بن محمد عليه السلام - إن رأى سيدي ومولاي أن يخبرني عن قول الله: ﴿**يسئلونك عن الخمر والميسر**﴾[٧]، فما الميسر جعلت فداك؟ فكتب عليه السلام: كل ما قومر به فهو الميسر، وكل مسكر حرام[٨].

وروى بإسناده عن أيوب بن نوح بن دراج قال: سألت أبا الحسن الثالث عليه السلام عن (الجاموس) وأعلمته أنّ أهل العراق يقولون: إنه مسخ، فقال: أو ما سمعت قول الله: ﴿**ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين**﴾[٩].

وروى العياشي: بإسناده عن موسى بن محمد بن علي عن أخيه أبي الحسن

الثالث عليه السلام عن الجاموس وأعلمته أن أهل العراق يقولون: إنه مسخ، فقال: أو ما سمعت قول الله: ﴿**ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين**﴾.

قال موسى بن محمد الرضا: لقيت يحيى بن أكثم في دار العامّة، فسألني عن مسائل، فجئت إلى أخي علي بن محمد عليه السلام، فدار بيني وبينه من المواعظ ما حملني وبصرني طاعته، فقلت: جعلت فداك إن ابن أكثم كتب يسألني عن مسائل لأفتيه فيها[10]. فضحك عليه السلام ثم قال: فهل أفتيته؟ قلت: لا، لم أعرفها، قال عليه السلام: وما هي؟ قلت: كتب يسألني عن قول الله: ﴿**قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾[11]، أنبي الله كان محتاجا إلى علم آصف؟ وعن قوله: ﴿**ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا**﴾[12]، أسجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟ وعن قوله: ﴿**فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب**﴾[13]، من المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطب النبي صلى الله عليه وآله فقد شك، وإن كان المخاطب غيره فعلى من إذاً أنزل الكتاب؟ وعن قوله: ﴿**ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**﴾[14]، ما هذه الأبحر وأين هي؟ وعن قوله: ﴿**وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين**﴾[15]، فاشتهت نفس آدم عليه السلام أكل البر فأكل وأطعم ﴿**وفيها ما تشتهي الأنفس**﴾ فكيف عوقب؟ وعن قوله: ﴿**أو يزوجهم ذكرانا وإناثا**﴾[16]، يزوج الله عباده الذكران وقد عاقب قوما فعلوا ذلك؟ وعن شهادة المرأة جازت وحدها، وقد قال الله: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾[17].

قال عليه السلام: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، نحن كلمات الله التي لا تنفد ولا تدرك فضائلنا[18]، وأمّا الجنة فإن فيها من المأكل والمشرب والملاهي ما

تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأباح الله ذلك كله لآدم عليه السلام، والشجرة التي نهى الله عنها آدم عليه السلام وزوجته أن يأكلا منها شجرة الحسد، عهد إليهما أن لا ينظرا إلى مَنْ فضّل الله عليهما وعلى خلائقه بعين الحسد، فنسي ونظر بعين الحسد، ولم يجد له عزما[19]. وأمّا قوله: ﴿**أو يزوجهم ذكرانا وإناثا**﴾[20]، أي يولد له ذكور، ويولد له إناث، ويقال لكل اثنين مقرنين زوجان، كل واحد زوج، ومعاذ الله أن يكون عنى الجليل ما لبّست به على نفسك تطلب الرخص لارتكاب المآثم ﴿**ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا**﴾[21] إن لم يتب.

وقدم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود. فكتب المتوكل إلى علي بن محمد النقي يسأله، فلما قرأ الكتاب كتب: يضرب حتى يموت، فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله العلة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين**﴾[22]، فأمر المتوكل فضرب حتى مات[23].

وكتب ملك من ملوك الروم إلى خليفة من خلفاء بني العباس كتابا يذكر فيه: إنا وجدنا في الإنجيل أنّه من قرأ سورة خالية من سبعة أحرف حرم الله تعالى جسده على النار، وهي: الثاء والجيم والخاء والزاء والشين والظاء والفاء، فإنّا طلبنا هذه السورة في التوراة فلم نجدها، وطلبناها في الزبور فلم نجدها، فهل تجدونها في كتبكم؟ فجمع العلماء وسألهم في ذلك فلم يجيبوا عن ذلك إلّا النقي علي بن محمد بن الرضا عليهما السلام فقال: إنّها سورة الحمد فإنّها خالية من هذه السبعة أحرف. فقيل: ما الحكمة في ذلك؟ فقال: إنّ الثاء من الثبور، والجيم من الجحيم، والخاء من

الخيبة، والزاي من الزقوم، والشين من الشقاوة، والظاء من الظلمة، والفاء من الفرقة أو قيل من الآفة. فلما وصل الكتاب إلى قيصر وقرأه فرح بذلك فرحا شديدا، وأسلم لوقته ومات على الإسلام[٢٤].

ونادى المتوكل يوما كاتبا نصرانيا أبا نوح، فأنكروا الكنى للكتابيين، فاستفتى، فاختلف عليه، فبعث إلى أبي الحسن فوقع عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبي لهب)[٢٥]، فعلم المتوكل أنّه يحل ذلك؛ لأنّ الله قد كنّى الكافر[٢٦].

وروى العياشي: بإسناده عن موسى بن محمد بن علي عن أخيه أبي الحسن الثالث عليه السلام قال: الشجرة التي نهى الله آدم وزوجته أن يأكلا منها شجرة الحسد، عهد إليهما أن لا ينظر إلى مَن فضّل الله عليه وعلى خلائقه بعين الحسد، ولم يجد الله له عزما[٢٧].

أمّا الإمام أبو محمد الحسن العسكري عليه السلام فكان من أئمة المفسرين، وقد أثر عنه تفسير خاص عرف بتفسير الإمام العسكري[٢٨]. ومن جملة الخدمات العظيمة التي قدمها الإمام العسكري عليه السلام إلى الأمّة الإسلامية ما ألقاه من دروس في التفسير ممّا عنده من العلم، وذلك على شكل محاضرات كانت تملى على الحسن بن خالد البرقي أو على شخصين من الشيعة الإماميّة كانا قد لجآ إليه عليه السلام، وبحسب هذا فإنّ هذه الحلقات دامت سبع سنين، كان الإمام خلالها يلقي ممّا عنده حول تفسير الآيات وتأويلها، وكانوا يكتبون كلّ ما يدلي عليه السلام[٢٩].

التفسير المنسوب إليه:

نُسب إلى الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام التفسير المسمى (بتفسير العسكري) وقد حامت حوله الظنون، واحتفت به الشكوك، فأثبته قوم أنه له ونفاه عنه آخرون[٣٠].

ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ القول قد اختلف قديما وحديثا حول

هـذا التفسـير الحاضـر المنسـوب إليـه، فكثيـر مـن الأعـاظم عـدّوه مـن الكتـب المعتمدة بين الشيعة الإمامية، كالصـدوق والطبرسي والراوندي وابن شهر آشـوب والكركـي والشـهيد الثـاني والمجلسـي الأول والثـاني والحـر العـاملي والفـيض الكاشاني والبحراني والحويزي العروسي والحسن بن سليمان والشـيخ الأنصـاري، والطبسي وغيرهم، ورده قسم آخر مـنهم كـابن الغضـائري والعلامّـة الحلـي والتفرشي والداماد والأردبيلي والقهبـائي والبلاغي والخوئي، وتأمـل فيـه آخـرون قـائلين: إن شـان هـذا التفسـير شـأن الروايـات الـواردة عـنهم عليهم السلام يريـدون بذلك أنّه لابدّ من التحقـق فـي صـحة مـا ورد فيـه، فمـا كـان منـه معتبـر الإسـناد فمقبول وإلا فمردود[٣١].

ومن الواضح أنّ كل ما قيـل أو يقـال يـرتبط بهـذا التفسـير الموجـود بروايـة الشيخ الصدوق عن المفسر الاسترابادي، وإلا فـإن التفسـير الـذي كتبـه وجمعـه الحسن بن خالد البرقي من إمـلاء الإمـام وكـان عـدد مجلداتـه مائـة وعشـرين مجلدا، كما صرح بـه ابـن شـهر آشـوب فلا كلام فيه؛ لأنـه لـم يكـن لـذلك عـين ولا أثر، ولـم يضـعف ابـن خالـد البرقـي حتى يكـون فيـه كـلام، بـل وثقـه علمـاء الرجـال كلهـم، ومـنهم الرجـالي الكبيـر أحمد بن العباس النجاشي[٣٢].

المعتمدون عليه:

اعتمد على التفسير جماعـة مـن كبـار علماء الإماميّة، وآمنوا بصحة نسـبته إلـى الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، وفي ما يأتي بعضهم:

١- الشيخ الصدوق.
٢- الشيخ الطبرسي.
٣- المحقق الكركي.
٤- الشهيد الثاني.
٥- محمد تقي المجلسي.
٦- ابن شهر آشوب.
٧- المحقق أغا بزرك.

فهؤلاء الأعـلام لـم يشـكوا فـي نسـبة

هذا التفسير إلى الإمام، وأرسلوا نسبته إليه إرسال المسلمات[٣٣].

سنده:

أمّا سند هذا التفسير وبعض الخصوصيات فقد تصدر الكتاب، وهذا نصه: قال محمد بن علي بن محمد بن جعفر بن دقاق: حدثني الشيخان الفقيهان أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان، وأبو محمد جعفر بن محمد بن علي القمي، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم المفسر الاسترابادي الخطيب (رحمه الله) قال: حدثني أبو يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبو الحسن علي بن محمد بن سيار - وكانا من الشيعة الإماميّة- قالا: كانا أبوانا إماميين، وكانت الزيدية هم الغالبون في استراباد، وكنا في إمارة الحسن بن زيد العلوي الملقب بالداعي إلى الحق إمام الزيدية، وكان كثير الإصغاء إليهم يقتل الناس لسعاياتهم، فخشيناهم على أنفسنا فخرجنا بأهالينا إلى حضرة الإمام أبي محمد الحسن بن علي بن محمد أبي القائم عليه السلام وأنزلنا عيالاتنا في بعض الخانات، ثم استأذنّا على الإمام الحسن بن علي، فلما رآنا قال: مرحبا بالآويين إلينا الملتجئين إلى كنفنا، فقد تقبل الله سعيكما، وأمن روعتكما، وكفاكما أعداءكما، فانصرفا آمنين على أنفسكما وأموالكما، فعجبنا من قوله ذلك مع أنّا لم نشك في صدق مقاله، فقلنا: فماذا تأمرنا أيها الإمام أن نصنع في طريقنا إلى أن ننتهي إلى بلد خرجنا منه، وكيف ندخل من ذلك البلد، ومنه هربنا، وطلب سلطان البلد لنا حثيث، ووعيده إيانا شديد[٣٤]؟ فقال عليه السلام: خلفا علي ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذي يشرفهما الله به، ثم لا تحفلا بالسعاة، ولا بوعيد المسعي إليه فإن الله عز وجل يتمم السعادة، ويلجئهم إلى شفاعتكم فيه عند من قد هربتم منه... قال أبو يعقوب وأبو الحسن: فأتمروا بما أمرا وخرجا، وخلفانا هناك

فكنا نختلف إليه، فيلقانا ببر الآباء وذوي الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم: إذا أتاكما خبر كفاية الله عز وجل أبويكما، وإخزائه أعداءهما، وصدق وعدي إياهما جعلت من شكر الله عز وجل أن أفيدكما تفسير القرآن، مشتملا على بعض أخبار آل محمد صلى الله عليه وآله، فيعظم الله تعالى شأنكما، قالا: ففرحنا وقلنا: يا ابن رسول الله فإذا نأتي بجميع علوم القرآن ومعانيه، قال: كلا إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرحنا بذلك وقالا: يا ابن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كله، فقال: قد جمعت خيرا كثيرا، وأوتيت فضلا واسعا، ولكنه مع ذلك أقل قليل أجزاء علم القرآن، إن الله عز وجل يقول: ﴿**قل لو كان البحر مدادا لكمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**﴾[٣٥]، ويقول: ﴿**ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله**﴾[٣٦]، وهذا علم القرآن ومعانيه، وما أودع من عجائبه، ولكن القدر الذي أخذته فقد فضلك الله به على كل من لا يعلم كعلمك، ولا يفهم كفهمك[٣٧].

قالا: فلم نبرح من عنده حتى جاءنا فيج[٣٨] قاصدا من عند أبوينا بكتاب، يذكر فيه أنّ الحسن بن زيد العلوي قتل رجلا بسعاية أولئك الزيدية، واستصفى ماله، ثم أتته الكتب من النواحي والأقطار المشتملة على خطوط الزيدية بالعذل الشديد والتوبيخ العظيم، يذكر فيه أنّ ذلك المقتول كان أفضل زيدي على ظهر الأرض، وأنّ السعاة قصدوه لفضله وثروته، فشكر لهم وأمر بقطع آنافهم وآذانهم، وأن بعضهم قد مُثل به لذلك وآخرين قد هربوا، وأنّ العلوي ندم واستغفر، وتصدق بالأموال الجليلة بعد أن رد أموال ذلك المقتول على ورثته، وبذل لهم أضعاف دية المقتول، واستحلهم، فقالوا: أمّا الدية فقد أحللناك منها، وأمّا الذم فليس إلينا إنما هو إلى

المقتول، والله الحاكم، وأن العلوي نذر لله عز وجل أن لا يتعرض للناس في مذاهبهم، وفي كتاب أبويهما أنّ الداعي إلى الحق الحسن بن زيد قد أرسل إلينا ببعض ثقاته، بكتابه وخاتمه بأمانه لنا، وضمن لنا رد أموالنا، وجبر النقص الذي لحقنا فيها، وإنا صائران إلى البلد ومتنجزان ما وعدنا[٣٩]. فقال الإمام: إن وعد الله حق، فلما كان اليوم العاشر جاءنا كتاب أبوينا أنّ الداعي إلى الحق قد وفى لنا بجميع عداته، وأمر لنا بملازمة الإمام العظيم البركة، الصادق الوعد، فلما سمع الإمام بهذا قال: هذا حين إنجازي ما وعدتكما من تفسير القرآن، ثم قال: قد وظفت لكما كل يوم شيئا منه تكتبانه، فالزماني، وواظبا على توقير الله تعالى من السعادة حظوظكما، فأول ما أملى علينا أحاديث في فضل القرآن وأهله، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك، فكتبنا في مدة مقامنا عنده، وذلك لسبع سنين نكتب في كل يوم مقدار ما ننشط له[٤٠].

اختلاف العلماء في التفسير الموجود:

وقد اختلف العلماء قديما وحديثا في التفسير المنسوب إليه عليه السلام فمنهم من قبله وأخذ عنه ومنهم من ردّه، وإليك خلاصة ما قيل في ذلك:

١- إن المفسّر الاسترابادي ضعيف كذّاب:

قال ابن الغضائري: إنّ محمد بن القاسم المفسّر الاسترابادي -الذي روى عنه الصدوق- ضعيف كذّاب.

أقول: قد قرّر في محلّه أنّه لا اعتبار بتضعيفات ابن الغضائري، وقد أجاب المحدّث الخبير الميرزا النوري عن هذا الإشكال قائلا: إنّ الصدوق الآخذ عن محمد بن القاسم المصاحب الذي قد أكثر منه النقل عنه من هذا الكتاب في كتبه، وما يذكره إلا ويعقّبه بقوله: رضي الله عنه أو رحمه الله، وقد يذكره مع كنيته كيف خفي عليه ضعفه وكذبه، وعرفه الغضائري بعد قرون؟[٤١].

وثانيا: كيف يروي الصدوق عن هذا الكذّاب الضعيف في أكثر كتبه ويكثر عنه، وحتّى في كتابه من لا يحضره الفقيه، ثم يصرح في أول كتاب الفقيه قائلا: ولم أقصد فيه قصد المصنّفين في إيراد جميع ما رووه، بل قصدت إلى إيراد ما أفتي وأحكم بصحّته وأعتقد فيه أنه حجة فيما بيني وبين ربي تقدس ذكره وتعالت قدرته، وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورة عليها المعوّل وإليها المرجع[٤٢].

٢- الراويان لهذا التفسير مجهولا الحال:

قال العلّامة الحلّي (رحمه الله) في الخلاصة عند ذكر محمد بن القاسم: روى عنه أبو جعفر بن بابويه، ضعيف كذّاب، روى عنه تفسيرا يرويه عن رجلين مجهولين: أحدهما يعرف بيوسف بن محمد بن زياد، والآخر علي بن محمد بن يسار[٤٣].

وكيف يقال: إنهما مجهولا الحال في حين أنّ الشيخ الصدوق -كما أشرنا إليه في أول السند- والعلّامة الطبرسي في أول الاحتجاج يصرحان بأنهما كانا من الشيعة الإماميّة، نعم، إنهما غير معروفين، وأين هذا من جهل حالهما؟[٤٤].

٣- إنّ هذا التفسير مروي عنهما عن أبيهما عن الهادي عليه السلام:

وقال ابن الغضائري أيضا: إنّ يوسف بن محمد بن زياد وعلي بن محمد بن يسار يرويان هذا التفسير عن أبيهما عن أبي الحسن الثالث عليه السلام.

أقول: لقد أشرنا إلى سند هذا الكتاب ولم نجد لهذا الادّعاء محلّا؛ لأن الصدوق (رحمه الله) نقل هذا التفسير عن المفسر الاسترابادي، قال: حدثني أبو يعقوب يوسف بن محمد بن زياد وأبو الحسن علي بن محمد بن سيّار، ولم يكن في السند ما يدل على أنهما روياه عن أبيهما عن الإمام الهادي عليه السلام، بل روياه عن الإمام العسكري عليه السلام[٤٥].

٤- التفسير يشتمل على أحاديث

منكرة وأخبار كاذبة:

ومن جملة الإشكالات الواردة على هذا التفسير أنّه اشتمل على أحاديث منكرة وأخبار كاذبة، وإسناده إلى المعصوم اختلاق وافتراء.

أقول: وهذا الإشكال أيضا يرجع أصله إلى ابن الغضائري وليته أشار إلى بعض هذه الأكاذيب والمنكرات، نعم، يمكن أن يكون قد عنى بذلك بعض المعاجز الغريبة في هذا الكتاب، ولم تذكر في باقي الكتب[٤٦].

وقال التستري مشككا بصحة هذا الكتاب: لو لم يكن هذا الكتاب جعلا لنقل هذه العجيبة التي نقلها عن النبي وأمير المؤمنين وباقي الأئمة عليهم السلام ولرواها علماء الإماميّة[٤٧].

نماذج من التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام:

فسّر الإمام العسكري عليه السلام سورة الحمد وقوله عزّ وجلّ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، بقوله عليه السلام: «الله هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق وعند انقطاع الرجاء من كلّ من دونه وتقطع الأسباب من جميع من سواه فيقول: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، أي أستعين على أموري كلّها بالله الذي لا تحق العبادة إلا له، المغيث إذا استغيث والمجيب إذا دعي[٤٨].

قال الإمام عليه السلام وهو ما قاله رجل للصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله دلّني على اللّه ما هو، فقد أكثر المجادلون عليّ وحيّروني؟ فقال له: يا عبدالله هل ركبت سفينة قطّ؟ قال: بلى، فقال: هل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى، قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئا من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: بلى، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي، وعلى الإغاثة حين لا مغيث[٤٩].

الافتتاح بالتسمية عند كل فعل:

قال الصادق عليه السلام: ولربما ترك في

افتتاح أمر بعض شيعتنا ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾[٥٠] فيمتحنه الله بمكروه؛ لينبّهه على شكر الله تعالى والثناء عليه، ويمحو عنه وصمة تقصيره عند تركه قول: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾.

لقد دخل عبد الله بن يحيى على أمير المؤمنين عليه السلام وبين يديه كرسي فأمره بالجلوس فجلس عليه، فمال به حتّى سقط على رأسه، فأوضح عن عظم رأسه وسال الدم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء، فغسل عنه ذلك الدم، ثم قال: ادنُ مني فدنا منه، فوضع يده على موضحته -وقد كان يجد من ألمها ما لا صبر له معه- ومسح يده عليها وتفل فيها، فما هو إلّا أن فعل ذلك حتى اندمل وصار كأنه لم يصبه شيء قط[٥١]. قال أمير المؤمنين عليه السلام: يا عبد الله، الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمنحهم لتسلمَ لهم طاعاتهم ويستحقوا عليها ثوابها، فقال عبد الله بن يحيى: يا أمير المؤمنين وإنا لا نجازى بذنوبنا إلا في الدنيا؟ فقال: نعم أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله: الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر؟ يطهّر شيعتنا من ذنوبهم في الدنيا بما يبتليهم به من المحن، وربما يغفره لهم، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير**﴾[٥٢]، حتّى إذا وردوا القيامة توفرت عليهم طاعاتهم وعباداتهم. وإن أعداء محمد وأعداءنا يجازيهم على طاعة تكون منهم في الدنيا -وإن كان لا وزن لها لأنه لا إخلاص معها- حتى إذا وافوا القيامة، حملت عليهم ذنوبهم وبغضهم لمحمد صلى الله عليه وآله وخيار أصحابه، فقذفوا لذلك في النار[٥٣].

نماذج من تراث الإمام الحسن العسكري عليه السلام التفسيري:

روى الثقة الأمين أبو هاشم الجعفري قال: كنت عند أبي محمد عليه السلام فسألته عن قول الله عز وجل: ﴿**ثم أورثنا**

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾[٥٤]، فقال: إنّها وردت في آل محمد صلى الله عليه وآله فالظالم لنفسه الذي لا يقر بالإمام، والمقتصد العارف بالإمام، والسابق بالخيرات بإذن الله الإمام عليه السلام، قال أبو هاشم: فدمعت عيناي وجعلت أفكر في نفسي ما أعطى الله آل محمد صلى الله عليه وآله، فنظر إليّ الإمام وقال: عظم ما حدثتك به نفسك من عظم شأن آل محمد، فاحمد الله، فقد جعلك الله متمسكا بحبهم تدعى يوم القيامة بهم إذا دُعي كل إنسان بإمامه، فأبشر يا أبا هاشم فإنك على خير[٥٥].

وسأل محمد بن صالح الأرمني الإمام أبا محمد عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**لله الأمر من قبل ومن بعد**﴾[٥٦]، فقال الإمام أبو محمد عليه السلام: له الأمر من قبل أن يأمر به، وله الأمر من بعد أن يأمر بما يشاء، فقلت في نفسي: هذا قول الله: ﴿**ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾[٥٧]، فنظر إلي الإمام وتبسم ثم قال: له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[٥٨].

وروى سفيان بن محمد الصيفي قال: كتبت إلى الإمام أبي محمد عليه السلام أسأله عن (الوليجة) في قول الله عز وجل: ﴿**ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة**﴾[٥٩]، وقلت في نفسي: من يرى المؤمن ها هنا؟ فرجع الجواب: الوليجة التي تقام دون ولي الأمر، وحدثتك نفسك عن المؤمنين من هم في هذا الموضع؟ فهم الأئمة الذين يؤمنون بالله فنحن هم[٦٠].

قال أبو هاشم: كنت عند أبي محمد عليه السلام فسأله ابن صالح الأرمني عن قول الله تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾[٦١]، قال الإمام أبو محمد عليه السلام: ثبتت المعرفة، ونسوا ذلك

الموقف، وسيذكرونه، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه، ولا من رازقه، قال أبو هاشم: فجعلت أتعجب في نفسي من عظيم ما أعطى الله وليه، وجزيل ما حمله، فأقبل أبو محمد عليَّ فقال: الأمر أعجب مما عجبت منه يا أبا هاشم وأعظم، ما ظنك بقوم من عرفهم عرف الله، ومن أنكرهم أنكر الله؟ فلا مؤمن إلا وهو بهم مصدق، وبمعرفتهم موقن[٦٢].

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم.

١. أعلام الهداية الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام ج١٢، المجمع العالمي لأهل البيت، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ

٢. الإمام الصادق من المهد إلى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني، الطبعة الأولى، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨.

٣. الإمام علي الهادي عليه السلام، علي محمد علي دخيل (ب، ط)، (ب،ت).

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام أبي الحسن بن علي العسكري عليه السلام، تحقيق الشيخ محمد الصالحي الانديمشكي، منشورات ذوي القربى، قم ١٣٨٤هـ

٥. حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، دار الكتاب الإسلامي، (ب، ت).

٦. حياة الإمام العسكري دراسة تحليلية تاريخية علمية لحياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، محمد جواد الطبسي، الطبعة الثالثة، الناشر مؤسسة بوستان كتاب قم، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ١٣٨٢هـ

٧. لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، (ب، ت).

٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي.

الهوامش:

(١) الإمام الصادق من المهد إلى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني ص٣٩.

(٢) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي ص١٠٣.

(٣) سورة الفرقان/٣٣.

(٤) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ) ٥٥/٥.

(٥) سورة التوبة/٢٥.

(٦) الإمام علي الهادي عليه السلام، علي محمد علي دخيل ص٣٩.

(٧) سورة البقرة/٢١٩.

(٨) أعلام الهداية الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام ج١٢، لجنة التأليف ص٢١٩.

(٩) سورة الأنعام/١٤٤.

(١٠) أعلام الهداية الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام ج١٢، ص ٢١٩.

(١١) سورة النمل/٤٠.

(١٢) سورة يوسف/١٠٠.

(١٣) سورة يونس/٩٤.

(١٤) سورة لقمان/٢٧.

(١٥) سورة الزخرف/٧١.

(١٦) سورة الشورى/٥٠.

(١٧) سورة الطلاق/٢.

(١٨) الإمام علي الهادي عليه السلام، علي دخيل ص ٤٠.

(١٩) المصدر نفسه ص٤٤.

(٢٠) سورة الشورى/٥٠.

(٢١) سورة الفرقان/٢١.

(٢٢) سورة غافر/٨٤

(٢٣) الإمام علي الهادي عليه السلام، علي دخيل ٤٩.

(٢٤) المصدر نفسه ص ٥١.

(٢٥) سورة المسد/١.

(٢٦) الإمام علي الهادي عليه السلام، علي دخيل ص ٥١.

(٢٧) أعلام الهداية ج١٢ص ٢١٩.

(٢٨) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٣.

(٢٩) حياة الإمام العسكري دراسة تحليلية تاريخية علمية لحياة الإمام الحسن العسكري، محمد جواد الطبسي ص١٤٩.

(٣٠) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٦.

(٣١) حياة الإمام العسكري دراسة تحليلية تاريخية علمية لحياة الإمام الحسن العسكري ص١٤٩.

(٣٢) المصدر نفسه ص١٥٠.

(٣٣) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٦.

(٣٤) المصدر نفسه ص١٠٧.

(٣٥) سورة الكهف/١٠٩.

(٣٦) سورة لقمان/٢٧.

(٣٧) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٨.

(٣٨) الفيج: فارسيّ معرّب، والجمع: فيوج، وهو الّذي يسعى على رجليه، وفي الحديث: هو المسرع في مشيه الّذي يحمل الأخبار من بلد إلى بلد (لسان العرب: ٢-٣٥٠).

(٣٩) المصدر نفسه ص١٠٨.

(٤٠) المصدر نفسه ص١٠٩.

(٤١) حياة الإمام العسكري لمحمد جواد الطبسي ص١٥٢.

(٤٢) المصدر نفسه ص١٥٢.

(٤٣) المصدر نفسه ص١٥٣.

(٤٤) المصدر نفسه ص١٥٣.

(٤٥) المصدر نفسه ص١٥٣.

(٤٦) المصدر نفسه ص١٥٤.

(٤٧) المصدر نفسه ص١٥٥.

(٤٨) التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليهما السلام، تحقيق محمد الصالحي الانديمشكي ص١.

(٤٩) المصدر نفسه ص١.

(٥٠) المصدر نفسه ص٢.

(٥١) المصدر نفسه ص٢.

(٥٢) سورة الشورى/٣٠.

(٥٣) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليهما السلام ص٣.

(٥٤) سورة فاطر/٣٢.

(٥٥) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٣ و١٠٤.

(٥٦) سورة الروم/٤.

(٥٧) سورة الأعراف/٥٤.

(٥٨) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٥.

(٥٩) سورة التوبة/١٦.

(٦٠) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل ص١٠٥.

(٦١) سورة الأعراف/١٧٢.

(٦٢) حياة الإمام الحسن العسكري دراسة وتحليل

ص١٠٥.